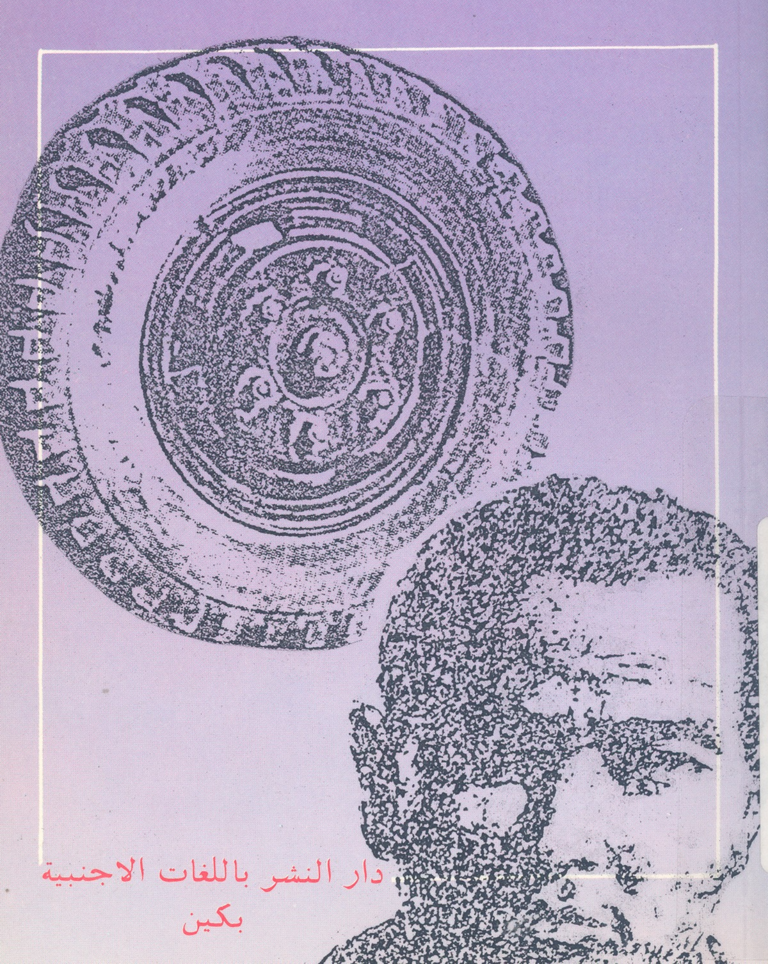
أبو الشاحنات

سلسلة كتب «العنقاء»



دار النشر باللغات الاجنبية
بكين

GIFTS OF 2000

THE EMBASSY OF THE
PEOPLE REPUBLIC OF
CHINA - CAIRO

أبو الشاحنات

قصص مختارة من الادب الصينى المعاصر
(١٩٨٠ – ١٩٨٦) الجزء الثالث

تأليف : تشن رونغ وآخرون

سلسلة كتب « العنقاء »

الطبعة الاولى . . . . عام ١٩٩١



رسم : لى هنغ تشن

٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين ـ الصين
الرمز البريدى ١٠٠٠٣٧

ISBN 7—119—01235—5

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

لا تستطيع ان تغيرني

ليو شي هونغ

قال صديقي عندما اخبرني عن لينغ كاي : " انها فتاة غريبة الاطوار . "

وقال ايضا : " هي التي طلبت مني ان اقدمها اليك . كلما رأتك ، اشارت الى ظهرك قائلة : ' اريد ان اتعرف بها ، عليك ان تعرفني بها . ' "

ابتسمت . ان صديقي رجل وقور ؛ يبدو كأنه لا يملك الخيار كلما واجهته حالة غير طبيعية . قلت : " لماذا ؟ لماذا ارادت ان تتعرف على انا بالذات ؟ " ان مصيبة الانسان تكمن في انه يحبذ عادة ان يكون معلما لغيره . وانا لا اجرؤ على ذلك . وقد ساءلت نفسي كثيرا ، وادركت انني لست من ذلك النوع من الاخوات الكبيرات اللاتي يصادقن البنات الصغيرات صداقة حميمة ، ويحللن لهن مشاكلهن ، كما انني افتقر الى القدرة والكفاءة في ارشاد البنات الصغيرات .

وعلى الرغم من ذلك قلت : " يمكن ان اتحدث معها اي حديث ، فحدد لنا موعدا . "

جاءت لينغ كاى قبل الموعد المحدد بساعة ، انها غريبة فعلا !

قفزت من السرير ، وذهبت لأفتح لها الباب ، وانا الف جسمى ببطانية .

وقفت عند الباب فتاة صغيرة تبلغ من العمر ستة عشر عاما .

وجهها هو ذاك الوجه المثالى لآهالى قوانغدونغ . انفها دقيق ، وشفتاها صغيرتان ، وجبينها بارز وكذلك وجنتاها ، وجمالها يشجع الانسان على الوقوع فى حبها .

دعوتها للدخول ، فاختارت افضل كرسى لدى ، وجلست عليه واضعة ساقا فوق ساق . اخذت انظر اليها ، انها ليست من الفتيات ذوات الجمال الباهر ، فهى تظهر وسطهن مثل كركى يقف بين جماعة الدجاج او مثل بقعة حمراء وسط غابة خضراء ، بيد انها على قسط وافر من الجمال . بشرتها البيضاء تذكرك بالاطفال والنساء فى لوحات الرسام الكبير "رانوير" ، غير ان شعرها المقصوص قصير حتى لتبدو منابته . قطبت جبينى ، وسألتها باللهجة المحلية :

— هل افطرت ؟

— شربت كوبا من اللبن .

— هل تشربين كوبا آخر ؟

— لا ، شكرا .

تركتها فى الغرفة تتصفح بعض المجلات ، واتجهت الى المطبخ لأعد وجبة افطارى .

وعندما خرجت ، اصابتني دهشة كبيرة . فقد فتحت مجلدى الخاص بالمقالات المقصوصة من الصحف ، ونثرت ما فى داخله . ثم سحبت درجى ، ورفعت غطاء احمر الشفاه ذى الالوان الستة ، وقالت وهى تصرخ بصوت مرتفع :

— رائع ! تحبين الالوان الطبيعية ايضا ؟

ابتسمت فى مرارة ، وجلست .

رفعت بيدها علبة سجائر وقالت :

— تدخنين ؟

هززت رأسى بالنفى :

— تركها صديقى .

— حبيبك ؟

— حبيبى .

وبدت لينغ كاى كأنما ادركت شيئا ، ثم سألت قائلة :

— ما اسمه ؟

— يى دونغ ، تعرفينه ؟

نفت بهزة من رأسها . ثم سألت :

— ما اسم عائلته ؟

قلت فى لهجة شبه غاضبة :

— أتحققين معى ؟

قالت فى عناد :

— ما اسم عائلته ؟

— اسم عائلته ليو ، واسمه الكامل ليو يى دونغ . يا الهى .

ارتسمت فوق وجه لينغ كاى تعابير ساخرة :

ـ عجيب ، انتما تحملان نفس الاسم العائلى . ألا تعرفين ان زواج الاقرباء ممنوع ؟

احترت ، لا ادرى : أكان الاولى بى ان ابكى ام اضحك .

ـ كيف تعرفين اننا قريبان ؟

ـ وكيف نعرف انكما لستما قريبين ؟

ـ علاقاتى الاجتماعية غير معقدة . استطيع ان اسمى جميع اقربائى بأسمائهم . .

ـ وكيف نعرف انكما لستما شقيقين فرقتهما الظروف ؟

ـ يا اختى الصغيرة ، انا من مواليد سنة ١٩٥٣ ، وفى ذلك الوقت كانت الحياة الجديدة قد بدأت لتوها ، وكان كل الناس مسرورين سعداء ، وجميع العائلات يسودها جو الوئام والمودة ، والناس يحبون بعضهم بعضا . كما كانت الحكومة تشجع على الأكثار من الانجاب ، وكانت النساء يتسابقن لنيل لقب " الام البطلة " ، ولم تعد تقع ابدا حوادث اغراق الرضع او التخلى عنهم .

ومددت يدى ، وربتت بها فوق وجنتها ، وقلت :

ـ اننا مجرد صديقين ، فكيف تعرفين اننى سأتزوجه حتما ؟

لاذت بالصمت . ومرت فترة غير قصيرة ، ثم اخرجت سيجارة من علبة السجائر واشعلتها ، ونفثت الدخان فى مهارة .

تم ذلك فى سرعة خاطفة . فسألت فى دهشة :

ـ تدخنين ؟ كيف سوغت لك نفسك ذلك ؟

فسألت وكأنها من اهل الخبرة :

ـ هل تؤمنين بوجود شيء اسمه الحب ؟

فقلت بجدية وحزم :

ـ لينغ كاي ، ارحب جدا بزيارتك ، واعجب بسرعة انسجامك مع الغرباء ، ولكن كان من المفروض على الاقل ان تستأذني بالتدخين داخل غرفتي .

اطفأت السيجارة على الفور وقالت :

ـ انت لديك حبيب ، هل تؤمنين حقا بوجود شيء اسمه الحب ؟

اجبت بلا ادنى تردد :

ـ اؤمن بوجوده .

ـ امر غريب ، كل العجائز لا يؤمنون بوجود الحب ، وامي هي الاخرى لا تؤمن بذلك .

وهكذا وضعتني في جيل امها ، فغضبت غضبا شديدا وقلت :

ـ امك ؟ امك عجزت ، بلغت من العمر سبعين او ثمانين عاما . فكيف تؤمن بالحب ؟ الحب شيء يخص الشباب . ان الفتاة في مثل سنك عندما تقع في الحب ، تجده في منتهى اللذة والروعة .

فابتسمت . وقالت :

ـ لكني لا اؤمن بوجود الحب .

قلت :

ـ ان الحب مثل فقاقيع الصابون ، عندما تنفخ فيها تتطاير في انحاء السماء متلألئة .ان الحب موجود كحقيقة واقعة ، ويتطاير

فى انحاء السماء . وعندما تختفى فقاقيعه ، يتلاشى كل شىء . انت لا تؤمنين بذلك . ان غباوة املك وامثالها تكمن اساسا فى انهن لا يؤمن بشىء كان موجودا ثم اندثر . ليتهن يفهمن فكرة فقاقيع الصابون .

قلت :

— انى انفخ فى فقاقيع الصابون الآن ، بل منذ فترة طويلة ، لذلك ، اؤمن بوجود الحب .

— يتطاير فى انحاء السماء ؟

— يتطاير فى انحاء السماء ، وعندما تختفى الفقاقيع ، لا ألوم احدا ، بل ألقى اللوم على نفسى بأنى لست ماهرة فى نفخ الفقاقيع . لماذا سألتنى عن هذا ؟ لا يليق ذلك بك .

شرعت تنظر الى فى شغف كبير ، وتتأملنى بدقة كأنها تفكر فى شىء ما .

— عندما كنت فى مثل سنك ، كنت متمسكة بالتقاليد ومنصرفة الى الدراسة . حتى اذا اردت الذهاب الى بيوت زميلاتى ، كنت استأذن والدى . واذا وعدتهما بالعودة فى الساعة التاسعة ، فلن اجرؤ على التأخر حتى الساعة التاسعة والربع . لم اكن مثل بنات جيلك ، تذهبن الى المدرسة بالدراجة وتلبسن الساعات اليدوية ، وتضعن الاحمر فوق الشفاه ، وتكوين شعركن .

— ليس فى هذا ما يعيب ، ثم انى لا افعل شيئا سيئا . لا تتمسكى بالشكليات كل هذا التمسك .

— اتمسك بالشكليات ؟ وهل تعرفين ما هى الشكليات ؟

ممنوع زواج الشاب والشابة ما داما يحملان نفس الاسم العائلى ؟

وضحكنا بشدة . وبعد انتهائها من الضحك قالت :

ـ شخصيتك استثنائية . انا احبك .

كنت اضحك وانا اطبق فمي جاهدة ، غير معقول ! لقد تركت البنت التى لا يتجاوز عمرها ستة عشر عاما تصدر حكمها فى وكأنها خبيرة بكل شىء .

ـ انت رائعة ! انك تعرفين كيف تضحكين دون ان تنفرج شفتاك عن اسنانك .

فضحكت بصوت مسموع وقد انفرجت شفتاى عن جميع اسنانى .

ـ هل انا مكروهة جدا ، لأنى اسأل عن كل شىء ؟

ـ لا ، ابدا . انا اعرف انك قرأت « مائة ألف سؤال وجواب» حينما ترعرعت . انى لا اكرهك يا لينغ كاى ، ان البنت التى تعشق الدراسة منذ الصغر ، مثل الشمس التى تطلع عند الفجر .

ودعتها الى الباب ، وهناك وقفت وقالت :

ـ من فضلك اوصلينى الى الدور الارضى .

ـ لم يسبق لى ان ودعت الضيف الى الدور الارضى . تعالى زورينى دائما .

قالت فى شىء من الخيبة :

ـ انت متمسكة بالشكليات جدا .

ـ هذا ليس تمسكا بالشكليات ، انظرى ، ماذا ارتدى الآن ؟ لا استطيع ان اخرج بالبيجاما . انا انسانة متحضرة .

ادارت وجهها نحوى ، ثم حركت رأسها ، وقالت كاليائسة من ان تحررنى من عقدتى :

– آه ، ألا تفهمين ان تصرفك هذا هو عينه التمسك بالشكليات !

امسكت يدها ، تلك اليد الدافئة الملساء ، وقلت وقد شعرت بارتياح كبير :

– احبك ايضا ، زورينى دائما .

– حاضر . بماذا تطالبيننى ايضا ؟ يجب ان تصارحينى .

فكرت برهة ، ثم قلت :

– عليك ان تذاكرى دروسك جيدا . اذا كنت انسانة عاقلة ، فعليك ان تجتهدى فى الدراسة ، ثم اطيلى شعرك ، ولا تجعلى من نفسك مخلوقا لا هو انثى ولا هو ذكر . انا شخصيا تعجبنى البنت حين يكون شعرها طويلا مسترسلا .

هزت رأسها موافقة ، وقد اتسعت عيناها .

– واقلعى ايضا عن التدخين .

احسست فجأة بأنى املك الحق فى مطالبتها بطلبات كثيرة ، لقد احببتها فعلا ، وتمنيت ان اكون ولية امرها او وكيلتها القانونية ، او ما شابه ذلك .

– لا اسمح لك بالتدخين ...

قاطعتنى بصوت خفيض :

– لست مدمنة ، ادخن فى بعض الحالات النادرة فقط ، ثم ان السيجارة تهدئ الاعصاب .

وقلت بلهجة حازمة :

ـ هذا لا يعنيني على اية حال . لا اسمح لك بالتدخين . منظرك سيئ جدا عندما تدخنين ، ثم ان الاذاعات فى العالم كله تقول " التدخين يضر بالصحة ! "

قبيل انتهاء الدوام بعد ظهر يوم السبت اتصلت بى لينغ كاى هاتفيا الى المستشفى الذى اعمل فيه .

كنت قد انتهيت لتوى من تركيب عقار صينى معقد التركيب حين استدعونى للرد على الهاتف . لم اهتم ، بل راجعت عناصر العقار حسب الوصفة ، وغلفته ، ثم ذهبت لأرد على الهاتف .

قالت لينغ كاى فى شىء من عدم الارتياح :

ـ هل انت مشغولة جدا ؟ ما رأيك فى ان نخرج غدا لنشرب شاى الصباح ؟

فكرت لحظة ، ثم قلت :

ـ غدا لا يمكن ، عندى شغل . اجلى ذلك للمرة القادمة . سأدعوك فى المرة القادمة .

ـ لا حاجة للدعوة ، يمكن ان نذهب الى المطعم الدوار ، وكل منا على حسابه نفسه .

ـ وكل واحد يدفع حسابه ؟ لا يمكن ، انت تلميذة ، من اين تأتيك النقود ؟ انا ادعوك ولكن غدا لا يمكن .

ـ عندى نقود ! لماذا غدا لا يمكن ؟

ـ اسمعينى يا لينغ كاى ، اذا كان لديك كلام تقولينه

لى ، تعالى الى فى غرفتى . انت مجرد تلميذة ، لماذا تجرين وراء المظاهر ، فتفكرى فى ان تذهبى الى المطعم الدوار ؟ اذا كان لديك وقت فراغ ، فاقضيه فى مذاكرة دروسك ، واذا كان عندك نقود ، فاشترى بها كتبا للمطالعة .

– اجيبينى ستذهبين غدا ام لا ؟

– لن اذهب ، قلت لك عندى شغل غدا .

– سيزورك ليو يى دونغ ؟

– لا ، ليس كذلك .

– انا متأكدة ان الامر كذلك ، انسى الموضوع اذا كنت لا ترغبين فى الذهاب ، انت جامدة حقا !

– اخرسى ! انك تتحدثين الى دون احترام . عندى امتحانات فى الشهر القادم ، وهناك كومة من الكتب يجب ان اقرأها . فليس من المعقول ان اظل صيدلانية من الدرجة الثالثة حينما ابلغ من العمر خمسين عاما واتقاعد .

وساد الصمت برهة طويلة .

عدت احادثها :

– آلو ، من اين تتصلين ؟ هل انتهى دوامك فى المدرسة ؟ لا تتصلى من المدرسة ، المعلمون يكرهون التلاميذ الذين يكثرون من المكالمات الهاتفية . اعرف ان كثرة المكالمات الهاتفية تعتبر دليلا على انعدام الرغبة لدى التلميذ فى الدراسة .

وألقت سماعة الهاتف بصوت مسموع .

لم تأت لينغ كاى يوم الاحد ، فقد انتظرتها طول اليوم .
ولم تأت يوم الاثنين كذلك . ولم تأت فى الايام التالية .
وانتهيت من الامتحانات ، ولم تأت لينغ كاى لزيارتى .
بدأت اتضجر وافكر فيها طول اليوم . لم يكن معى عنوانها ، كما انى لا اريد ان ابحث عنها فى المدرسة . ماذا تفعل هذه البنت العفريتة ؟ وفى وقت الفراغ ، اخذت املأ الورقة امامى بكلمتين صينيتين لينغ كاى ، لينغ كاى ، لينغ كاى .

سأسافر لألتحق بدورة الدراسة التكميلية لمدة نصف عام .
وجاء يى دونغ بعد الظهر ليساعدنى فى حزم الامتعة .
قرفص يى دونغ ، وشرع يقفل لى حقيبتى .
— راسلينى اذا احتجت الى شيء ، فأنا مشغول جدا ، واعمالى لا تنتهى حتى ولو وضعت برنامج عمل حافلا الى نهاية العام ...
لم يكد ينتهى من كلامه ، حتى اقتحمت علينا لينغ كاى .
وسررت بهذه المفاجأة :
— لينغ كاى !
لقد نما شعرها كثيرا ، وانسدل منتفخا من حول رأسها الى خدها يحميه .
ضممتها الى صدرى وانا اطوق رقبتها بذراعى . وقلت :
— لماذا اختفيت ؟ اى لعبة تلعبينها ؟ كدت اسافر دون ان اراك .
فردت على وهى تنظر الى يى دونغ :
— انا مشغولة .

مشغول ، مشغول ، مشغول . كل واحد يقول بأنه مشغول ، بل مشغول جدا بحيث لا يجد اى وقت فراغ ، باستثنائى انا ، انا الوحيدة لست مشغولة ، انا تافهة !

نهض يى دونغ ، ونفض التراب عن يديه وقال :

— انها كونغ لينغ كاى . كونغ لينغ كاى ، انت مشهورة جدا . يعرفك مثل هذا العدد الكبير من الناس .

قال لى يى دونغ :

— ألا تعرفين ؟ صاحبتك هذه هى الموديل الدائم لغرفة الرسم رقم ثلاثة بقصر الشباب ...

فوجئت كثيرا . موديل ؟

وقاطعته لينغ كاى بصوت مرتفع :

— انا اعرفك ايضا انت تعمل فى شركة الاعلانات بالدور السادس فى قصر الشباب . تنقل السلم المتحرك بنفسك ، وتصعد السقف حاملا بيدك لوحة الاعلان كعامل بسيط تماما . لم يخطر لى ان يكون ليو يى دونغ هو انت .

ورمقتنى بنظرة معناها : لم اكن اعرف ان ليو يى دونغ وضيع لهذه الدرجة ، وضيع لأنه يعمل فى هذه الوظيفة الحقيرة .

فضحك يى دونغ ، وقال :

— كم انت سليطة ! عرفت الآن لماذا يشكو صاحب العمل منك فى كل مكان . أ تختلفين معهم طول اليوم ؟

ولم تكن لدى رغبة فى ان اشاركهما الضحك . لينغ كاى تعمل موديلا فى غرفة للرسم !

وقال يى دونغ :

ـ أما زلت تدخنين ؟ عندى سجائر .

فقلت بغضب :

ـ لينغ كاى ! لم تسمعى كلامى ، وبقيت تدخنين ؟

فقالت لينغ كاى غير مبالية ودون ان تنظر الى :

ـ انى اجلس وقتا طويلا دون ادنى حركة ، وعندما انهض تكاد دمائى تتجمد ، حتى اننى لا استطيع ان امشى الى البيت ، اذا لم ادخن . لكن كلما اردت التدخين ، ذهبت الى دورة المياه .

فانتابنى غضب شديد وقلت :

ـ أ تريدين ان تسمعى كلامى ام لا ؟ من سمح لك بأن تعملى موديلا ؟ ألا تنوين ان تجتهدى فى الدراسة وتكونى انسانة شريفة ؟

ـ اختى ليو الكبيرة ، حصلت على درجة الامتياز فى كل مادة من المواد المقررة ، ودخلت دورة التصفية الثالثة فى مسابقة الفيزياء الكبيرة التى جرت فى شهر يونيو . وعندى اوقات فراغ ، فلماذا لا تسمحين لى بأن اعمل موديلا ؟ ان عملى هذا لا يعوقنى فى شىء ...

ـ عندك اوقات فراغ كثيرة ، وعندك نقود كثيرة كسبتها من عمل الموديل ، يمكن ان تنفقيها فى الذهاب الى المطعم الدوار ، أ ليس كذلك ؟ هل تعرفين اننى لا احب لك ان تعملى فى وظيفة الموديل ؟ لماذا لا تذهبين لجر عربة البضائع ؟ لماذا

لا تذهبين لبيع الخوخ فى الشارع ؟

كنت اشتعل غضبا ، فلم ارغب فى ان اتساهل معها .

دق يى دونغ المائدة باصبعه وقال :

ـ تمهلى قليلا ، سأذهب اولا .

انه سيحمل امتعتى الى محطة القطار .

وقفنا انا ولينغ كاى فى الشرفة ، ننظر الى يى دونغ وهو يربط الامتعة على مؤخر الدراجة .

رفع يى دونغ رأسه ، وقال لى :

ـ سأبعث واحدا يحمل لك وصل النقل لأنى لن اجد وقتا للحضور مرة اخرى .

فقلت :

ـ كما تشاء .

وقفت لينغ كاى ورائى ، وقد اسندت يديها على خصرها ، وعيناها تنظران الى الاسفل ، فبدت كأنها نجمة غناء كبيرة تطل من الاعلى على حشد غفير .

ـ لقد رأيت يى دونغ منذ فترة طويلة . كنت اعتقدت ان هذا الرجل قد تجاوز الاربعين على الاقل .

ـ لا تكونى قاسية ، انه يكبرنى قليلا .

ـ لكنك تبدين اصغر من سنك كثيرا .

واخذت تتأمل فى وجهى بدقة . فتملكتنى حيرة .

ـ لأننى كسول واكول .

ـ اراه دائما يقوم بأعمال شاقة . ذات مرة ، كان يركب

مصابيح الزينة لساعة يابوه فى برج الساعة الكبير ، وكان ملتصقا فوق سطح الدور الثامن كالطيارة الورقية ، انها خطورة ما بعدها خطورة .

فتأثرت كثيرا . ان يى دونغ يقدم دائما على الاعمال المعقدة المرهقة او الاعمال المحفوفة بالمخاطر . ان هذه الميزات فى شخصيته تؤثر فى اشد التأثير .

ثم قلت :

ــ لينغ كاى ، حدثينى عن نفسك ! ما اخبارك ؟

لم ترد على كلامى ، بل قالت :

ــ تعرفين لماذا احبك ؟ ذلك لأنك لم تعاملينى كطفلة . انك تعاملينى معاملة صديقة فى مثل سنك . انك تعرفين كيف تحترمين الانسان .

احسست بأنها تجاملنى مجاملة شديدة . فقلت فى حياء :

ــ طبعا . ان الصداقة لا بد ان تقوم على اساس الاحترام المتبادل . ويمكننى ان احترم جميع الناس ، انى استطيع ذلك .

خرجنا الى الشارع . السماء تغص بنجوم باهتة ، والقمر باهت ايضا .

كنت ، وانا طفلة ، انظر الى القمر فأجده دائما مضيئا . وكنت امشى فى الزقاق الضيق الطويل ، من بدايته الى نهايته ، والقمر يتبعنى . قرأت فيما بعد قصيدة بعنوان " القمر يتبعنى فى السير " ، وقد تعرضت تلك القصيدة لشتائم كثيرة .

تذكرت انني وبي دونغ قضينا فترة عصيبة ، فقد كنا ايامها نعيش على سلطانيتين من شعيرية فول الصويا مع لحم البقر وصحن من حساء رأس السمك الفاسد الذى تفوح منه رائحة كريهة .
شيء يبعث على الملل .
ـ ليس هناك شيء ممتع ، دعنا نرجع .
درنا انا ولينغ كاى الى الوراء .
كانت شاردة طوال الطريق . ثم وقفت فقلت للينغ كاى :
ـ انا متأكدة ان لديك شيئا تريدين ان تقوليه لى .
كانت نظراتها مترددة .
ـ ابدا ، ليس هناك شيء .
ـ لا ، بل هناك شيء بالتأكيد .
وحثثتها قائلة :
ـ اعتبرك من بنات جيلى ، قولى ما عندك . احترمك حقا ، الثقة بالذات هامة جدا يا ابنتى ...
ولم اكد انتهى من كلامى حتى قالت :
ـ سأذهب لألتحق بالعمل موديلا .
وقفت برهة . ثم قلت على مضض :
ـ أ لم تبدئى هذا العمل ؟
ـ قررت اعتزال المدرسة ، سأذهب لأعمل فى فرقة عرض الازياء لشركة ويمى .
اوقفتها :
ـ لا اعرف كيف فكرت فى الامر ، تعملين موديلا ؟

وماذا ستعملين بعد سن الثلاثين ؟ هل تعرفين ان الموديلات عقولهن فارغة ؟ انت ممتازة فى الفيزياء ، ويجب ان تلتحقى بكلية العلوم الفلكية بجامعة فودان ، يجب ان يكون لديك طموح مشرف .

نظرت لينغ كاى الى ، وقالت فى ضجر شديد :

ـ لقد عقدت العزم ، ولا مجال للتراجع . انا صارحتك بهذا الامر ، لأنى احترمك ، ولن تستطيعى ان تغيرينى .

اسندت جسمها الى الدرابزين ، وهى ترتعش فى شبه انفعال .

ـ لينغ كاى ، اعدك ان اهديك عشر علب من سجائر مارلبورو كل شهر ، اذا طردت من رأسك هذه الافكار السخيفة ، وركزت على التحضير لامتحان القبول بالجامعة . . .

قلت كل هذا كأنى اتوسل اليها .

ـ اقلعت عن التدخين منذ فترة طويلة ، كنت استخدم السيجارة وسيلة لتهدئة اعصابى فقط ، انك متخلفة جدا .

دفعت عامود الكهرباء بكلتا يديها ، ثم خطت نحو الامام وهى ترفس برجلها علبة ايس كريم ورقية على طول الطريق .

مشيت وراءها وقلت :

ـ هذا جيد ، لا تجعلى نفسك من الصبيان غير الصالحين . فأنت ما زلت شابة ، وكل الاعمال وضيعة الا الدراسة . . .

وقفت ، وقد ادارت وجهها نحوى ، وقالت فى غطرسة :

ـ امى وافقت ، والامر الذى توافق عليه امى لا داعى للآخرين ان يشغلوا بالهم به على ما اعتقد . . .

لقد اعلن معهد الفنون الجميلة عن حاجته الى عشر موديلات

لرسم جسم الانسان . بينما زاد عدد اللاتى حضرن للتسجيل عن الالف ، ومن بين الحاضرات اللاتى جئن لحضور امتحان القبول ، بنات برفقة امهاتهن ، وزوجات بصحبة ازواجهن . لقد اختلف الوضع اليوم عن الماضى اختلافا كبيرا . ولم تعد لينغ كاى تبالى باعتراضى لها ، ثم لوت شفتيها وقالت :

– تنظرين الى كل شيء بعقلية قديمة ، شيء يبعث على الملل .

فانفجرت غاضبة :

– اغربى عن وجهى انت يا عديمة العقل ، ارجعى بيتك .

ودرت فى اتجاه آخر ، ومشيت .

لففت لفة حول قارعة الطريق ، وسرعان ما ندمت . مهما كان ، فأنا كبيرة وهى بنت صغيرة ، ثم انى وعدتها ان احترمها ، لماذا تصرفت هكذا دون وجه حق ، وبمنتهى القسوة والشراسة ؟

ثم استدرت ، فلم اجدها بجانب عمود الكهرباء ذاك .

لكن ، ما كان ينبغى لها ان تذهب لتعمل عارضة ازياء . ان هذا العمل لا يناسبها ابدا ، فنظراتها ينقصها التركيز والاستقرار ، ووجهها ذو معان كثيرة كأنه كتاب غزير المواد . خلاصة القول ، انها انسانة ذات تعابير غنية ، وعارضة الازياء لا تحتاج ابدا الى مثل هذه التعابير الغنية . لماذا ارادت ان تؤدى التمثيل فى عرض الازياء ؟ انى افضل لها ان تمثل على المسرح وتصبح نجمة كبيرة .

وفى تلك الليلة ، لم اتصل بأحد ، فقد نمت مبكرا .

ان لينغ كاى كلؤلؤة احملها بيدى ، واحرص عليها كل الحرص . وهى الآن تريد ان تنفلت . اشعر بانقباض فى صدرى .

ثابرت على الدراسة فصلا دراسيا واحدا . وتضايقت كثيرا . وفى وقت الفراغ ، كنت افكر فى كونغ لينغ كاى .

وكما هو متوقع لم يبعث الى يى دونغ بأى رسالة ولا اى خبر . انه رجل ذو شخصية خاصة . انه لا يخضع لى ، لا باللين ولا بالقوة . ولكنى لن ابادر الى تركه حتى ولو استمر فى تجاهله اياى . اننا نعرف بعضنا بعضا خير المعرفة ، وعندما يحين الوقت الذى يجب ان يهدينى فيه هدايا عيد الميلاد ، يأتى فى الميعاد ويطرق بابى .

ولكن لينغ كاى . . ان لينغ كاى تهمنى كثيرا ايضا .

عندما انتهت دورة الدراسة التكميلية ، كان البطيخ و" الليتشى" قد نزلا الى السوق . فالشمس تلقى اشعتها الحارة اثنتى عشرة ساعة فى اليوم ، ويتلون الهواء باللون الاصفر الذهبى فى الساعة الثالثة بعد الظهيرة . نزلت من القطار وانا احمل بيدى حقيبة كتب كبيرة . لم اختف وسط التيار البشرى المتدفق ولم اخرج ، بل اتكأت على عربة الامتعة على الرصيف استريح . لن يأتى يى دونغ لاستقبالى ، انه لا يعرف خبر وصولى ، ولكنه حبيبى الدائم ، ومن واجبه ان يستقبلنى فى محطة القطار . اخذت اروح بمنديل ، وانظر الى الحقيبة الكبيرة الثقيلة وانا غاضبة ، وكدت اجرى الى

زوجين كهلين قويى البنيان فى الامام واقول : " يا مدام ، هل يمكن ان تعيرينى سيدك لأستخدمه قليلا ؟ "

رجعت الى غرفتى ، لأجدها فى فوضى كبيرة كما تركتها . اعطيت يى دونغ مفتاح الغرفة ، بيد انه لم يحضر ليرتبها ولو مرة ، يا للصفاقة !

الكراسى تعلوها طبقة كثيفة من الغبار ، ولا يمكن الجلوس عليها .

رفعت ذراعى ، واكتسحت بها من فوق المائدة بضعة عشر عرائس طينية اهداها الى يى دونغ .

طرحت هذه العفاريت على الارض فى وقاحة ، ثم رقدت دون ان ينكسر واحد منها .

جلست على الارض موهنة العزيمة . ووضعت ساقى فوق درابزين السرير ليجرى الدم فى عكس الاتجاه الطبيعى . ثم فتحت علبة عصير مثلج ، وجرعت منها جرعة كبيرة ، فانتقل الاحساس ببرودتها من الحنجرة الى القلب والرئة ، وشعرت بارتياح عجيب .

ظهرت لينغ كاى عند الباب .

كيف ادركت انى قد عدت ؟ انها تكاد تكون روحى .

احسست بجسمى يسخن ويبرد ، شعرت برأسى يدور ونظراتى تهيم . ظهرت لينغ كاى امامى فى تنورة من القماش الاحمر ، وبأسفلها ثلاث ثنيات . وقد بدا وجهها متوردا ، وشعرها الطويل يتطاير .

لوحت لها بيدى لتقترب ، وكأنى ألعب كاراتيه السكران .

تعانقنا فى حرارة ، منتهى الحرارة .

– مررت من امام بيتك ، ورأيت الباب والشبابيك مفتوحة ، فجريت اليك .

وضحكت حتى اتسعت عيناها ، وانفرج فمها عن اسنان متلألئة ناصعة البياض .

مررت اصابعى بين خصلات شعرها المسترسل الطويل وانا ابتسم .

اخذت تبحث فى كل مكان بالغرفة ، تريد ان تغلى لى ماء وتوصل المروحة بالكهرباء . فنهضت عن الارض ، اريد ان اعمل ذلك بنفسى .

صارت الغرفة نظيفة ومرتبة فى لحظات . واخرجت صحنا من بذور البطيخ للتسلية .

– ليو يى دونغ لا يعرف انك عائدة ؟

– انه كسول جدا ، حتى لا يكتب الى .

– انتم مساكين ، ما عندكم بيت ، ولا غرفة تملكونها معا . هل يتناول ليو يى دونغ المكرونة الجاهزة كل يوم ؟ انتم لا تملكون شيئا .

لم استوعب كلامها فورا ، وعندما ادركت قصدها ، لم اتمالك نفسى عن الضحك ، وقلت :

– نملك الثقة المتبادلة .

– فى الحقيقة كلامك كله مجرد احلام . لا داعى لأن تختلقى الحجج عندما تحادثيننى .

هذه البنت عفريتة حقا ، لا يمكن ان استصغرها .

ربما لا يعتقد يى دونغ بأن ما نملكه هو الثقة المتبادلة . فهو من جانبه لا يثق بى ثقة كبيرة . انه يضعنى احيانا فى منزلة المرأة السوقية التى تخوض الزحام فى قسم الملابس النسائية داخل المحل التجارى لتشترى التنورة المخفضة السعر . انه بمثابة هدف حى فى ساحة الرماية يقفز يسارا او يمينا ، متخذا ذاته محورا اساسيا ، ولا تخضع ارادته لتأثير صادر عن اى جهة ، ومن الاستحالة بمكان ان اغيره . ومن اجل هذه الصفة الكامنة فيه ، ما زلت احبه الحب العميق ، فأنا حمقاء بكل معنى الكلمة .

ان لينغ كاى ذات مهارة فائقة ، ففمها آلة لتقشير بذور البطيخ . لقد تكدس امامها فى غمضة عين كومة كبيرة من القشور .

فقلت ، وقد غطيت الصحن بأصابع يدى الخمس :

– ابقى لى قليلا ، لم يبق كثير .

اخذت اطيل نظرى فى السقف ، ان كلام لينغ كاى صحيح جدا ، لكن ما كان ينبغى لها ان تتفوه بمثل هذا الكلام ، فأنا اكاد اماثل امها فى السن . وانتابنى شعور بعدم الارتياح ازاء يى دونغ وازاء لينغ كاى ايضا .

ضحكت لينغ كاى عابثة ، وقالت :

– صحيح ؟

– ماذا صحيح ؟ ليس صحيحا .

انى احافظ على ماء وجهى ، واتحمل كل شىء فى سبيل ذلك . ان عقليتى قديمة حقا .



وضحكت لينغ كاى فى مكر وقالت :

– كل ما عند الرجال ليس جميلا ما عدا شيئا واحدا . وانت كل شيء فيك جميل ما عدا شيئا واحدا .

– اى شيء فى ليس جميلا ؟

– معنويتك جيدة . ويشع وجهك بنور الشباب والحيوية دائما . ما رأيت الكابوس فى المنام ابدا ؟

انها تغير مجرى الحديث على هواها دائما .

– بالعكس ، انى احلم دائما ، احلم فى الليل وكذلك فى النهار . وسبب ارتفاع معنويتى هو انى اجبر نفسى دائما على الترفيه مهما كانت الظروف .

– هل تحلمين احلاما مخيفة ايضا ؟ اى نوع من الاحلام المخيفة ؟

– طبعا ، ليس النوع الذى تعتقدينه .

لم يعد يخيفنى ذلك النوع من الحلم منذ خمسة عشر عاما ، الحلم الذى يطاردنى فيه النمر الشرس ، او يدوسنى الفيل المتثاقل . فأنا استطيع ان اصرخ بلهجة آمرة " افسح الطريق ! " ثم اطير فورا . ولا ينتابنى ادنى خوف .

ان اكثر ما يخوفنى هو ذاك الحلم : يتسلل يى دونغ الى غرفتى فى منتصف الليل ، ويفتح ناموسيتى ويقول لى : " لا تستطيعين ان تغيرينى يا آيوان : ان قدرتك محدودة ، ولا تستطيعين ان تغيرينى ." ثم يبتسم لى فى حنان ، وفى لمح البصر يختفى من امامى .

فأصبحت كالمصعوقة ، ان آ يوان ليس اسمى ! انه ينادينى باسم امرأة اخرى ، وهو يقول لى بأنى لا استطيع ان اغيره !

استيقظت فجأة . بحثت فى الشرفة ودورة المياه ، فلم اجد يى دونغ .

اضأت جميع المصابيح .

اخذت الدموع تغسل وجهى .

عندما قابلت يى دونغ بعدها ، لم اجرؤ على ذكر كلمة من هذا الحلم . والا فسأسقط من عينه .

كما لا يمكن ان اذكر ذلك الحلم امام لينغ كاى .

اخذت اهز رجلى وقد انتابنى الفتور ، وقلت :

ـ الشيء السيئ فى هو انك تعتقدين انى اريد ان اغيرك ، أ ليس كذلك ؟

واضفت قائلة :

ـ كل واحد يدعى العلم ، ويتصور الامر تصورا ذاتيا ، ويتهم الآخر جزافا .

ان لينغ كاى انسانة ذكية ، ولا داعى ان اعاملها معاملة طفلة ، فقلت :

ـ لا يصح ابدا ان يكون الصديقان حصانين جامحين ، اذا رغبا فى ابقاء الصداقة . واذا كان هناك نوع من التنازل يسعد الطرفين ، فمن الاولى اتخاذه ، واذا كان هناك نوع من التأثير لا يمكن تجنبه ، فأرى ضرورة التسليم به ، وما دام هذا التأثير المتبادل شيئا باطنيا وحتميا ، فلماذا الخوف من التسليم به ؟

واذا كنت استطيع حقا ان اسعد غيرى واجعله يتذكرنى دائما ، فانى اعتبر ذلك سعادة لى ، سعادة غير متوقعة .

اخذت اتحسس يد لينغ كاى وقلت :

ــ هل ترغبين فى سعادة سارة غير متوقعة ، كأن يفاجئك شخص بالهدايا مثلا ؟ أ تحبين ؟ الشوكولاته ؟

قهقهت فى فرح عظيم ، وهزت رأسها فى حركة مستمرة كحركة الفرخ وهو ينقر حبات الارز من فوق الارض ، وقالت :

ــ احب ، احب ، لكن لا احب الشوكولاته المعبأة بالخمر ، طعمها مثل طعم الدواء ، كشراب "بيبا" المضاد للسعال .

نزلت من الدور العلوى ، واشتريت الطعاطم والفجل الاحمر والبقدونس والفطر الشتوى وقنديل البحر والسفرجل . وطبخت طبقا كبيرا من الخضار الطازجة المشكلة ، لأضيف به لينغ كاى ، وضعت النبيذ الوردى اللون فوق المائدة الى جانب طبق الخضار المشكلة ، فبدت الوجبة فى ألوان غاية فى الجمال .

شمرت لينغ كاى كمها ، وجلست الى المائدة . قالت وهى تمضغ الطعام :

ــ سيغضب يى دونغ ، لأننا لم ندعه لمشاركتنا فى هذا الطعام الفاخر .

فقلت :

ــ لن يغضب . انه لا يغضب دون سبب وجيه .

اشتقت الى يى دونغ .

صحيح ان لديه عيوبا كثيرة ، ولكننى الآن احبه اعظم الحب ،

ما رأيه في ، ربما لا اعرف حقيقة رأيه فى معرفة جيدة ، الا انني لن اسأله . وعندما يقع بيننا خلاف ، ابادر الى الابتعاد عنه عادة ، واذهب اتجول فى الحدائق هائمة على وجهى ، او اخرج الى الطبيعة الساحرة ابحث عن مكان هادئ قرب المياه او التلال حيث ارقد طوال النهار ، وعندما اعود الى غرفتى ، ابدأ فى ركل الهدايا التى اهدانى اياها ، اننى لم ولن اكسر الحاجات امامه ابدا ، غير انه ذكي ، وكأنه على علم مسبق بما سأفعله وقت الغضب ، فلم يهدنى الا عرائس "آر تونغ مو" صاحب الذراع الحديدى او ما شابهها والتى لا تنكسر ابدا . كنت افكر احيانا فى احتمال ان يأتى يوم يطلب فيه تركى ، فانى اتعهد بأنى سأتخلى عنه وانا ابتسم . انى افهم نظرية : ان القلب لا يمكن ربطه بالحبل . انه يملك مزايا كثيرة فى ملامحه ، واذا لم يصبه مكروه ينتزع روحه ، فانه سيعيش حياة اطول من حياتى بعشرين عاما على الاقل . انى اريده ان يشتاق الى كل يوم وهو ينكمش فى ركن منزو فى دار المسرح ابتداء من سن الستين ، اريده ان يتذكر تلك الحبيبة التى احبها ايام شبابه ، تلك الحبيبة المستقلة الرقيقة المتسامحة المتواضعة . اريده ان يعترف من اعماق قلبه بأنى انا الوحيدة التى استوعبته الاستيعاب الاعظم ومنحته الثقة الاعظم من بين العدد الضخم من اصدقائه وصديقاته ، اريده ان يشتاق الى فى كآبة وحزن ، وهو فى ثياب رثة ، اشتياقا ملؤه المرارة والعذاب .

صارحت يى دونغ بكل هذا ، فأخذ يضحك ضحكات جنونية لا تكاد تنتهى . وقال :

– يا لك من انسانة مخيفة !

ثم تقدم نحوى ، واشار بيده الى رأسى قائلا :

– لا تتعالى على كثيرا .

انه لا يبالى . لا يبالى فى الوقت الحاضر على الاقل ، الامر الذى جعلنى استحى .

ولكن عندما اواجه لينغ كاى ، اعيش واقعا نفسيا آخر ، كأنى امام جدول صاف او ماء جار ، يجرى نحو البحر العظيم .

لا ادرى من يستطيع ان يخطف الماضى ، ولا ادرى من يستطيع ان يهرب من المستقبل .

– لينغ كاى ، قولى لى ، هل اشبه البائع المتجول فى فيلم الرسوم الكرتونية المتحركة ؟ ذلك المجرم المحرض الذى ينادى " الحلوى حلوة ، الحلوى لذيذة " .

ضحكنا مرة اخرى ، وتفتحت شهيتنا .

دعتنى لينغ كاى لحضور حفلة العرض كى اشجعها ، وقالت :

– اللون الشائع للحرائر عام ١٩٨٧ ، سيقدمون عرضا فى قصر هوالى .

جمعت ادوات الاكل ، وذهبت بها الى المطبخ ، ثم خرجت ، وقلت وانا اتمطى :

– لا احضر .

فوجئت ، واخذت تنظر الى فى استياء ، فقلت :

– قلما احضر حفلات العشاء او الديسكو ، لا املك ملابس تليق بهذه المناسبات .

— يمكن ان تلبسي ملابس عادية ، ثم اني قد رأيتك تلبسين رداء فرو في الشتاء ، قيمته ثلاثمائة يوان .

— انه لا يعتبر شيئا ، فهو موضوع في الدولاب دائما : قدمته الى امي يوم عيد ميلادي ، ولم ألبسه الا مرة واحدة : رداء الفرو لا يليق بي الا اذا ملكت سيارة خصوصية : واذا اسعدني الحظ ، وجاء اليوم الذي املك فيه سيارة مرسيدس ، فاني سألبس الفرو من تلقاء نفسي ، وآخذك بالسيارة في غدوك ورواحك .

— لن تستطيعي امتلاك سيارة مرسيدس طول عمرك .

فكرت : ربما ذلك صحيح : فحتى منظر يي دونغ يوحي بأنه خلق ليزاول العمل العضلي ، انه حتى لا يستطيع ان يسمن بطنه ولو قليلا ، حتى ولو شرب البيرة واللبن كما يشرب الماء . ليس لدي اية ثقة في ان يتمكن من تحقيق مستقبل باهر : ثم انني قررت منذ فترة طويلة ان اعتمد على نفسي في الحياة ، واعتمد على يدي طول عمري ، فاني صيدلانية لها مستقبل مشرق ، ورفوف الادوية تثير حماستي الآن ، ويمكنني ان اطور نفسي وارتقي بين كومة كتب الادوية طول حياتي هذه ، واذا نحوني عن هذا العمل ، واعطوني لقاء ذلك سيارة مرسيدس او اي سيارة فاخرة اخرى ، فاني سأجف واذوي رويدا رويدا ، ثم اموت : اني لا اشك في هذا .

ولكني الآن رفعت راحة يدي رأسيا وقلت :

— كيف تعرفين الغيب ؟ احيانا ، عندما ننظر الى الحياة من زاوية اخرى نجدها طويلة جدا ، اني لم اكن قد عرفت

امور الدنيا حتى اعرف امور الغيب ! كل شيء واى شيء ، ربما اقدر ان املكه .

واستطاعت ان تقنعني اخيرا . فقررت ان اذهب الى قصر هوالى لأشجعها .

جلس يى دونغ بجانبى . وقد حضر بوصفه مصمم المسرح لهذا العرض . وعندما قاربت الساعة الثامنة ، صعد الى خشبة المسرح ، ليوصى المسؤول عن هندسة الضوء ببعض الامور ، ثم عاد وجلس بجانبى .

لم اكد اصدق عينى عندما رأيت لينغ كاى تظهر على خشبة المسرح ، لا اذكر بوضوح أكانت نمرتها الخامسة ام السادسة . لقد خرجت من الباب الجانبى فى الجهة اليمنى مندفعة كالاعاصير ، والموسيقى المصاحبة صاخبة ذات ايقاع سريع ، وهى تبدو كغراب جميل .

شركة ويمى للازياء متعاقدة مع يى دونغ قديما ، ورجال الشركة يشكون الى يى دونغ ان لينغ كاى تريد ان تستقيل من الشركة ، لتلتحق بمركز الموديلات حيث تعمل موديلا للتصوير الفوتوغرافى .

وسألت يى دونغ :

ـ لقد لمع نجمها كثيرا ، أ ليس كذلك ؟

ـ لقد كسبت شهرة واسعة ، واصبحت نجمة من الطراز الاول . انها اغنى عارضات الفرقة موهبة وقدرة . لكن ما باليد

حيلة ، فشركة ويمى ليست قادرة على تحقيق بعض شروطها ، فاضطرت الى السماح لها بمغادرة الشركة والعمل فى وظيفة افضل .

— بعض شروطها ؟ هل صارت عظيمة ؟ لينغ كاى لم تذكر كل هذا امامى ، وانا لا اعرف ، ولكن ، لا يصح ابدا ان تكون انسانة مغرورة .

— ليس الامر هكذا ، شركة ويمى امكاناتها محدودة . ومن حق كونغ لينغ كاى ان تطير عاليا ، انها لم تتجاوز حدها .

بدأت الموسيقى تعزف لحنا آخر . خرجت لينغ كاى ثانية ، تلبس هذه المرة ثوبا واسع الصدر . شعرها ملفوف نحو الاعلى فى استقامة ، وبضع خصلاته تتدلى فوق اذنيها . بدأت احملق فيها ، وكل شىء اخذ يدور فى غموض امام عينى ، عينى السكران ، كأنى اعيش فى دنيا اخرى .

انها آية فى الجمال والصحة والشباب .

ووسط الظلام والفوضى تحت خشبة المسرح انظر مشرئبة الى ما فوق المسرح حيث جنة السماء فى دنيا الانسان ، فاخرة براقة ، فى غاية الجمال والروعة .

سبق ان قلت ان وجه كونغ لينغ كاى غنى بالمعانى ، اغنى من ان نقرأها كلها ، الاحمق وحده الذى ينجذب اليها انبهارا بالملابس التى ترتديها فوق جسدها ، انها تغلب بسيمائها جميع الحسناوات ، انها ذات روح قهارة .

اضطرب الناس فى القاعة . نهضوا تباعا ، واندفعوا نحو الامام ، وانوار الفلاش تلمع .

اغتنمت فرصة الفوضى هذه ، ورفعت ذراعى ، وعملت اشارة " V " تجاه لينغ كاى .

رأتنى لينغ كاى ، ومشت الى الخلف وهى تلقى الى بنظرة من طرف عينها ، ثم التفتت الى فى ابتسامة ، وعادت تبتسم فى ذكاء ، وتدور ثم تقف فى تشكيلة فنية ، وتدور مرة اخرى ، خطت نحوى خطوتين وهى تهز ردفيها فى دلال ، ثم عملت بأصابعها علامة " ok " .

مال يى دونغ الى برأسه وقال :

– اضطربت حركتها . لا تقومى بأية اشارات فى السر .

– لينغ كاى رائعة جدا ، حتى ولو بقيت اداعبها بالحركات الخفية .

– يعنى انها اعجبتك ، هل انت الاخرى مغرورة ؟ كونغ لينغ كاى تعجبك حتى لو تركت المدرسة ؟

– لا تسخر منى ، فأنا لست جاهلة . بعد عشرة او عشرين عاما سيفيض هذا العالم بحملة الماجستير او الدكتوراه ، ولكن الموديل الكبير من الطراز الاول عبقرى بالولادة ، وليس اى انسان يصلح ليكون موديلا . والافضل ان نمنح الموديلات ألقابا وظيفية حتى نرفع عنهن الهموم بعد التقاعد .

ضحك يى دونغ .

وفى فترة الاستراحة نزلت لينغ كاى عن خشبة المسرح ، واندفعت نحوى . اشرت لها الى كرسى لتجلس ، فامتنعت ، وقالت بأنها تلبس الحرير المطرز باليد ، وان جلست ، فسيشتمها

المشرف على الحفلة ، ثم سألتنى :

ـ هل تستطيعين ان تميزى الرموش المستعارة التى اضعها فوق عينى ؟

فقلت لها بأنى لا استطيع ذلك ، وان احدا لم ينتبه الى رموشها المستعارة .

ـ ما شعورك ؟ لقد عرضت ستين ملبسا ، فما شعورك انت ؟

انها ترتدى الآن فستان سهرة مفتوح الصدر تماما مثل الصدرية من دون اكمام .

انزلقت يدى فوق البشرة الملساء من رقبتها الى كتفها وذراعها . انها تضع ماكياجا كثيفا والماكياج يسيح فوق اى وجه فى مثل هذا الجو الحار ، ولكن لينغ كاى تمتاز ببشرة ملساء باردة كالثلج نقية كاليشب . لقد اعجبت بها حقا ، وقلت :

ـ اشعر ببرودة شديدة تشرح صدرى .

مالت قرب وجهى وانحنت ، ثم ضحكت وعيناها واسنانها تلتمع التماعا شديدا .

لو استمرت تقرأ فى المدرسة ، ربما تخفق فى الالتحاق بالجامعة ، ناهيك عن نيل الدرجات العلمية ، فهى لا تملك الرغبة فى الدراسة . اما الآن فعندها وظيفتها ، بل قضيتها ، وقد شرعت تحقق فيها نجاحات باهرة .

الانسان يجب ان يغتنم اول فرصة سانحة ليعرض كفاءته ويظهرها . والجمال هو كفاءة لينغ كاى .

قابلت لينغ كاى مرة اخرى عندما ذهبنا يوما الى مركز الموديلات . كنا انا ويى دونغ نتناول البوظة ونحن نجلس تحت مظلة فى البوفيه ، فحضرت جماعة من الناس الى المظلة المجاورة ، واخذوا يتحدثون فى ضجيج كبير . اتجه يى دونغ اليهم ليحييهم ، ورأيت بينهم لينغ كاى . لقد التحقت لينغ كاى بالعمل فى مركز الموديلات حديثا ، وكانت تتحدث مع المسؤول فى بعض شؤون العمل عندما رأيتها .

اسرعت الى مظلتى . وقالت لى :

– اصبحت استطيع ان احسم الامور برأى قاطع ، ولم اعد احتاج الى ازعاجك بشؤونى كل مرة ، لن تلومينى بأنى عديمة الضمير ، صحيح ؟

– ماذا ؟ ألومك ؟ هل اصبح لديك رأى قاطع جديد ؟

– طلبوا اسمى الفنى ، فاخترت اسما " مى مى " .

واخذت تهز رأسها .

فصرخت بصوت حاد :

– مى مى ! لماذا لا تسمين نفسك القطة البرية الكبيرة ! انت يا ذكية ، يا كونغ لينغ كاى ، أ تجرأت وسميت نفسك بهذا الاسم الشنيع القبيح ؟

شعرت برهبة .

قالت وكأنها مظلومة :

– يطالبوننى بالاسم الفنى للدعاية ، قولى لى ، اى اسم استطيع ان اختار ؟ قد تسافر فرقتنا الى اليابان فى شهر اكتوبر القادم .

وبصقت احتقارا لأولئك الناس الذين يقفون خلفى ، ثم قلت :

– هراء ! أهم على هذا المستوى من الدناءة والحقارة ؟ ! اخبريهم بأنه ليس لديك اسم غير كونغ لينغ كاى .

ثم لذت بالصمت . وعادت لينغ كاى اليهم . وبعد وقت طويل حضرت الى وقالت :

– انهم يريدون الاسم الفنى حقا . لكل واحد منهم اسم بالانجليزية ، فيمكنك ان تختارى لى اسما باليابانية ، فقد درست اللغة اليابانية .

درست اليابانية ؟ كان ذلك فى العام الذى وقع فيه الفيضان الكبير . نظرت الى يى دونغ الذى كان يتناول البرتقال دون ان يبالى بما يسمع ، ويقطعه بالسكين دون ادنى لباقة ، فقلت لها :

– لينغ كاى ، انت بلا عقل ابدا .

نظرت الى يى دونغ وهو يأكل البرتقال وعصير البرتقال يتقاطر من يده ، وقلت :

– عنده اسم باليابانية : "الذئب مفترس الحيوانات البرية" .

ثم اشرت الى نفسى وقلت :

– وانا اسمى "الورقة الفضية المفضلة" او "الخاتم الذهبى المفضل" .

فلوت شفتيها فى استياء .

قطع يى دونغ قطعة من لفة الورق اللين وجفف بها يده .

ثم اشعل سيجارة ، وشرع يدخنها وهو يغطى بيده نصف وجهه دون ان يلتفت الى . عندما يستهين بى ويستصغرنى يبدو دائما بهذا المنظر ، وعندما يبدو كذلك ، فانه يضعنى فى منزلة المرأة السوقية فى المحل التجارى .

ابتلعت غضبى ، ولذت بالصمت .

شىء يقبض الصدر .

وما يقبض صدرى حقا هو ان لينغ كاى لم تعد تزورنى الا نادرا ، ولم اعد احظى بمقابلة منها الا على شاشة التلفزيون ، او اخرج الى مكان وجودها حيث تقوم بالتمثيل فى بعض الاعلانات .

وفى آخر مرة ذهبت مع يى دونغ الى شاطئ البحر . وعند الظهر اخذت امواج البحر تتلاطم بلا انقطاع . كانت لينغ كاى ومرافقوها قد احتلوا مكانا كبيرا . ألقى يى دونغ اليهم نظرة ، وعرف انهم من اصحابه ، جذبنى من يدى وجرينا الى هناك . وادعى بأن نموذج الاعلان الجديد قد وصل قبل ظهر اليوم فقط ، وانه يريد ان يعاينه . وعندما رأتنى لينغ كاى ، مالت برأسها وألقت الى تحية عابرة ، ثم انشغلت بالعمل .

انهم يصورون اعلان حليب البقر ماركة " ضوء الشمس " .

التف حول لينغ كاى ثلاثة او اربعة صبيان وصبايا ، وقفزوا الى السيارة . فألقت شعرها الطويل الى الوراء فى قوة ، واخذت تلوح بعلبة الحليب التى فى يدها فى عظمة وافتخار ، وفجأة ، انطلقت سيارة الجيب المكشوفة فوق الشاطئ الرملى فى سرعة جنونية ،

منتهى الموضة ! وبجانبى وقف رجل من شركة الاعلانات يلقى بلهجته المحلية كلمات الاعلان فى صراخ : " ما اجمل الشباب تحت ضوء الشمس ! ما احلى الغناء تحت ضوء الشمس ! ما افضل الحليب ماركة ' ضوء الشمس ' ! "

انغلقت الآذان امام ثرثرة ذلك الرجل ، وانفتحت العيون تلاحق سيارة الجيب تلك التى تندفع بسرعة عالية بمحاذاة شاطئ البحر ، وعلى متنها الشبان الوسيمون والشابات الحسناوات .

جذبت يى دونغ وقلت :

— يى دونغ ، هل الشباب سماؤهم عالية ، وارضهم واسعة ورياحهم قوية ، وحياتهم ملؤها الفرح والسعادة ؟

بعدها شاركت لينغ كاى وجماعتها فى شرب شاى الليمون .

وجاءت لينغ كاى ، وجلست بجانبى ، وقالت :

— ايتها الاخت الكبيرة ليو ، انت شىء آخر غيرنا ، نحن لا نملك شيئا الا شبابنا .

انها كعادتها تقول كلاما بلا مقدمة ولا تتمة ، لكنها لا تخاف الا افهمها .

هراء ، اذا امتلكت الشباب ، امتلكت كل شىء ،

اثر الانتهاء من الكلام شعرت بحيرة وعدم ارتياح ،

نهضت وناديت يى دونغ لننصرف اولا ، فاذا بشخص ينادى :

— يى دونغ ، انك لم تعاين نموذج الاعلان بعد !

رأيت لينغ كاى تهمس فى اذن ذلك الرجل وهى تمص شفتيها ، وقالت :

— اترك ليو يى دونغ يذهب ، فصاحبته من ذوى العقلية القديمة .

اتجهت اليها ، وقرصتها من اذنها ، وقلت :

— ان لسانك لاذع حقا !

لم نركب انا ويى دونغ السيارة ، مشينا طول الطريق .

يى دونغ يعرفنى جيدا ، ويعرف اننى انسانة محافظة ، صاحبة عقلية قديمة .

ويعرف ايضا اننى لا احب ان ارتدى لباس الشاطئ ، ولا احب ان ارتدى الملابس المكشوفة الظهر . كما يعرف اننى مقترة كالمنحدرة من عائلة غير ميسورة الحال . انه يعرف ويعرف ويعرف .

مشينا حتى حل الظلام . وسألته :

— يى دونغ ، صحيح انه اذا امتلكنا الشباب ، امتلكنا كل شيء ، واذا فقدنا الشباب ، فقدنا كل شيء ؟

فأجاب دون ان يلتفت الى :

— طبعا .

فسألت مرة اخرى ، وقد اعترانى شعور بالكآبة :

— هل الامر كذلك حقا ؟

وقفنا تحت مصباح الشارع ، رأيت عينيه تشع منهما نظرات رقيقة كرقة الماء . وصحت :

— آه ، كيف يكون ذلك !

قال :

ـ لا بد ان نملك الذكاء ، واذا ملكنا الذكاء ، ملكنا كل شيء . ان الاله يتوقع من الانسان ان يلتمس الطفولة من الذكاء .
تاغورى .

كرر بيت الشعر هذا فى سرعة ، ثم ربت فوق ظهرى وقال :
ـ انك تريدين ان تكسبى شيئا فى حين تخافين ان تفقدى شيئا آخر . فلا استطيع ان اتحملك .

قال بأنى حائرة بين كسب شيء وفقدان آخر . انه يقول ذلك لأنه يعيش واقعا غير واقعى . يا اخى ، مهما اكسب او افقد ، فانى لن ابالى ، اذا ملكت الآن كل شيء ، او اذا ملكت كل ما فى "كهف على بابا" من المجوهرات والنفائس .

ولكنى الآن خالية اليدين .

واذا سألنى الآن سائل ، ماذا اريد بالضبط ؟ فسوف لا اجد كلاما ارد به عليه . يى دونغ عبقرى ، يى دونغ يستطيع ان يفهم مقاصدى بدهاء ، يى دونغ لن يسألنى عن هذا .

ورغب فى ان يكرمنى بوجبة طعام فى منتصف الليل ، فهززت رأسى رافضة . اريد ان اعود لأقرأ كتب الادوية . اريد ان امسك بيدى اشياء ملموسة . والا حينما يبلغ غيرى سن الخمسين او الستين ، ويعرف عندها كيف يربى السمنة ، وهو يضع حفيده فى حضنه ، ويعرف كيف يتفنن فى اعداد الطعام ، فيطبخ كعكة الفجل مع القلقاس بينما ابقى عديمة الفائدة ، لا اعرف غير ان ارقد فوق السرير ، واقرأ فى روايات تشانغ آى لينغ .

قلت اننى سأعود ، فقال :

ـ حسنا ، عودى ونامى نوما لا تحلمين فيه احلاما مزعجة .

اخذ يواسينى بطبعه الطيب وقال :

ـ لا تفكرى فى الاوهام ، عندما تستيقظين غدا ، ستجدين الشمس ما زالت تشرق عليك .

هززت رأسى موافقة ، وابتسمت له ، ثم استدرت وانصرفت وحدى .

كلمة عن المؤلفة



ليو شى هونغ .. من ابناء مقاطعة قوانغدونغ ، ولدت فى نوفمبر ١٩٦١ . تخرجت فى المدرسة الثانوية عام ١٩٧٨ . وفى عام ١٩٨٠ عملت فى مصلحة الجمارك فى ونجيندو بمدينة شنتشن .

نشرت روايتها الأولى «القمر يسير الى الامام مترنحا» فى عام ١٩٨٤ ، وفازت روايتها هذه بجائزة ادبية لمدينة قوانغتشو وجائزة للاعمال الادبية الجديدة للادباء الجدد فى مقاطعة قوانغدونغ . وفى عام ١٩٨٦ فازت روايتها الاخرى «سماؤنا» بجائزة ادبية لمدينة قوانغتشو . وكانت قد اكملت دراستها فى كلية اللغة الصينية بجامعة ووهان .

وفى السنوات الاخيرة نشرت عددا من الروايات ، معظم محتوياتها تتناول حياة الشباب المعاصرين . وقصتها «لا تستطيع ان تغيرنى» فازت بجائزة وطنية للقصص القصيرة الممتازة فى عامى ١٩٨٥ و١٩٨٦ .

مايو ـ موسم حصاد القمح

تيان تشونغ خه

دخلت القرية عند الغسق .

بدت الطريق الريفية ضيقة وعرة على عكس ما اذكرها :
اما هى فكانت تلعب مع صويحباتها تحت نور القمر ايام طفولتها ؛
الطريق تظللها اشجار كثيفة ، وتنتشر بها اخاديد ضحلة
بفعل سيول الامطار ، وتملؤها اعشاب الهلب (ذيل الكلب) .
وداخل آثار الدواليب تتناثر قشات القمح اللامعة ، فبعض القرويين
قد بدأ حصاد القمح .

كان الوقت اكثر اوقات اليوم هدوءا ، فلا تسمع جلبة
الناس ولا نباح الكلاب ، بل حتى قوقأة الدجاج بدت كأنها
تأتى من بعيد .

اقتربت من بيتها ، فوجدت جدران الفناء الطينية قد اصبحت
اكواما من التراب الاصفر بفعل الرياح والامطار .

افزعت وقعات قدميها العصافير ، فطارت من داخل الفناء .
وفى ركن مظلل منه جلست عجوز شمطاء على كرسى خشبى
كسر مسنده .

صاحت العجوز نحو البوابة وهى تستشرف القادم :

ـ من ؟ من هناك ؟

لم تكن البوابة الا فتحة بين كومتين من التراب ، فلا قنطرة فوق المدخل ولا اطار ولا باب . وعند هذه الفتحة وقفت فتاة ، وهى شيانغ يوى ، يداها مسترخيتان امام صدرها ممسكتان بحقيبة كبيرة تستند الى ركبتيها .

اخذت العجوز عكازها ، وكان قطعة من الخيزران المكسر ، وحاولت النهوض . فصاحت شيانغ يوى ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

ـ جدتى ...

دهشت العجوز ، وتملكتها الحيرة لحظة ، ثم ما لبثت ان استندت الى عكازها بقوة ووقفت مرتعشة ، وحركت قدميها الى الامام خطوات وسألت قائلة :

ـ أ انت شيانغ يوى يا كبدى ؟

اجابت شيانغ يوى بصوت مرتعش تخنقه العبرات :

ـ جدتى ...

ـ يا كبدى ، لماذا عدت فى هذا الوقت ؟

ـ آه .

ـ قيل انك ذهبت الى بكين ، أ ليس كذلك ؟

ـ لم اذهب .

ـ يا كبدى ، لست راغبة فى ذهابك . انى فى الرابعة والثمانين ، وقد مرضت عدة مرات فى الربيع الماضى . فخشيت ألا اراك

يا شيانغ يوى .

— جدتى . . .

مسحت شيانغ يوى وجهها بذراعها البيضاء ، الا ان عواطفها ما تزال تجيش . انها تريد ان تبكى فى احضان جدتها .

لقد تراءت شيانغ يوى لجدتها ظلا رماديا طويلا ، ولو لا شعرها الاسود ووجهها الابيض وذراعاها الطويلتان ، لما عرفت انها حفيدتها الواقفة امامها .

اخذت الجدة ذراع حفيدتها بيدها النحيفة المجعدة البشرة ، ومسحت عينيها الغائرتين بكمها الوسخ ، وتمتمت قائلة فى حزن :

— انك نحيفة ! لقد اتعبتك اكوام الكتب .

اخذ خطان من الدموع يسيلان على خدى شيانغ يوى وخنقتها العبرات ، فعجزت عن الكلام . فكرت فى ان تخبر جدتها بأنها نجحت فى امتحان القبول لمتابعة الدراسات العليا ، وان الناس حسدوها على نجاحها هذا فمنعوها من ذلك . ولكن الجدة لا تفهم شيئا من هذا مطلقا ، وما من سبيل الى افهامها . لقد تعودت شيانغ يوى منذ الطفولة حب جدتها لها وتدليلها اياها . وكان ذلك يبدد كل ما تعانيه من الحزن والكآبة . اما فى هذه المرة فهى موقنة بأنه ما من احد يستطيع مواساتها .

كانت شيانغ يوى ذكية هادئة . ولعلها ادركت منذ صغرها ان بقاء المرء فى العالم ليس امرا هينا ، بل بحاجة الى النضال الدؤوب . وكانت فى اعين الناس بنتا هيفاء القد ، تكتم مشاعرها الحقيقية . فسواء امتدحها الناس ام عنفوها تنظر اليهم بعينين طارفتين ،

وقد خلا وجهها من ملامح السرور او الاكتئاب . ومنذ التحاقها بالمدرسة الابتدائية احبها مدرسوها . ولم يهتم والداها بعد ذلك بدراستها لكثرة الاعمال فى المنزل والحقول . واعتقدا ان الجدة قد دللتها كثيرا ، فأصبحت كسولة متبلدة الحس . ذلك انها لم تكن تسهم فى الاعمال المنزلية لدى عودتها من المدرسة ، بل تطلب من اختها الصغرى تنظيف ادوات الطبخ واطعام الدواجين والاعتناء بأخيهما الصغير . وذات يوم قالت شيانغ يوى لوالدها :

— لقد التحق المدرس تشون فنغ من القرية الامامية بالجامعة .

فأجابها والدها وهو يأكل الخبز مع الفلفل :

— ما فائدة الجامعة بالنسبة للقروى ؟

— وفى المستقبل يمكن للشبان القرويين ان يلتحقوا بالجامعة مثل ابناء المدينة . وبعد تخرجهم سيحصلون على وظائف مثلهم فى الدوائر الحكومية .

— وهل انت قادرة على ذلك ؟ هذا حلم !

صمتت شيانغ يوى ، بينما صاحت الجدة فى غضب :

— انت تحط من قدرتها ! من فى القرية لا يمدح شيانغ يوى ؟ انها طالبة ممتازة قد تفوقت كل سنة ، أ ليس كذلك يا شيانغ يوى ؟

ظلت شيانغ يوى صامتة ، واستمر والدها فى الاكل دون كلام ، الا انه ألقى على ابنته نظرة ذات معنى . ومنذ ذلك الوقت اصبح يطلب من ابنته الصغرى القيام بالاعمال المنزلية بدلا من اختها الكبرى شيانغ يوى .

وفى تلك السنة بالذات اختيرت لتلتحق بالمدرسة المتوسطة فى المحافظة ، وكانت الوحيدة بين طالبات اربع قرى مجاورة . وغمر الفرح والديها ، فأنفقا على دراستها بسخاء على الرغم من فقرهما . ولكن هذا الانفاق لم يذهب سدى . فقد تخرجت شيانغ يوى الآن فى الجامعة ، وستذهب للعمل فى مقاطعة اخرى . وهذا ما اكسب اسرتها الفخر ، وجعل والدها المحدودب الظهر لا يقل عن غيره مكانة ، ووالدتها المعوقة نتيجة لاصابتها بالشلل تصبح اكثر نساء القرية فضيلة واستقامة . كما جعل شيانغ يوى نفسها موضع فخر جميع القرويين .

ولكن الناس لم يعرفوا ما عانته فتاة قروية عادية ، ليس معها والداها يدبران امورها ولا اقارب تعتمد عليهم فى كفاحها الشاق .

حركت شيانغ يوى المقبض الخشن الغليظ لمضخة مياه البئر كى تضخ بعض الماء الصافى البارد ، فشعرت بأنه اثقل مما كان عليه ، فضخ قدر من الماء يتطلب جهدا كبيرا .

وشعرت كذلك بأنها لم تستطع اشعال الموقد بنفس السهولة السابقة ، ففى هذه المرة استخدمت خمسة اعواد كبريت لاشعال سيقان القطن الجافة . ووجدت ايضا ان الخضار المخللة التى احتفظت بها الجدة لها خصيصا ليست لذيذة ولا مستساغة .

وحين نظرت الى امها التى عادت من الحقول مع غروب الشمس ، وجدتها اقصر قامة من ذى قبل ، فساورها شعور بالحزن والكآبة .

وارادت شيانغ يوى ان تأخذ عن امها حزمة الاعشاب التى تأبطتها ، الا ان الام مالت بجسمها لمنع ابنتها من ذلك وقالت :

ـ لا . انها وسخة جدا .

ولكن شيانغ يوى صممت على اخذ الحزمة . وما ان تناولتها حتى انزلقت من بين يديها ، وتناثرت على الارض .

فجلست الام القرفصاء تجمعها ، مبعدة ابنتها بيدها وهى تقول :

ـ لا ! لا ! لست قادرة على ذلك .

وحينذاك لمحت شيانغ يوى اختها الصغرى واقفة عند البوابة ، تحمل سيقان الشلجم بواسطة عصا الحمل وترسل نظرها اليهما صامتة . فخاطبتها ، وهى تفرك يديها ، لا تدرى كيف تساعدها :

ـ كيف ؟ هل انت حصدت الشلجم ؟

ظلت الاخت ساكتة . ثم مرت بالمدخل ، ووضعت سيقان الشلجم على الارض ، وابعدت امها جانبا ، وانحنت تحزم الاعشاب بسرعة . ثم رفعت الحزمة ، ورمت بها الى ركن الفناء .

نفضت الام التراب عن ثوبها وقالت لابنتها الصغرى :

ـ يا قاى وا ، هل سمعت سؤال اختك ؟

ـ سمعت .

ثم كدست سيقان الشلجم فوق بعضها بعضا ، وكنست الارض . واخيرا اخذت فوطة ، وشرعت تضخ الماء من البئر .

وتمتمت الجدة لشيانغ يوى ضاربة الارض بعكازها :

ـ لا تبالى بها . اذا ادت شيئا ما فخرت به كأنما قدمت خدمة تستحق المكافأة !

رفعت قاى وا صوتها فجأة وقالت فى غيظ شديد :

ـ ماذا لو قدمت خدمة تستحق المكافأة ؟ من يستطيع تقليل صياحى ؟ ان المرء الذى لا فائدة منه لا يسمح له بكثرة التكلم ، فلماذا يلام على تقليل كلامه ؟ !

قالت ذلك وضفيرتاها تتحركان يمنة ويسرة والزبد الابيض يتطاير من فمها .

ولكن الجدة لم تظهر ادنى درجة من الضعف ، بل ضربت الارض بعكازها قائلة :

ـ يا لك من شريرة ! انت قادرة قديرة حتى على منع غيرك من التكلم . انا قلت انك قدمت خدمة تستحق المكافأة ، هل تجرئين على خنقى ؟ !

لم تجد الام بدا من التدخل قائلة ، وهى تتابع نفض التراب عن ثوبها :

ـ يا قاى وا ، انت لست طفلة . أتريدين ان يضحك الناس عليك ؟

اما شيانغ يوى فقد كانت عاجزة عن مصالحة المتشاجرين . واحتارت فى امرها ماذا تفعل ، فراحت تنادى :

ـ يا اختاه ! يا جدتى ! . . .

ومن حسن الحظ ان قاى وا لم تواصل المشاجرة ، بل نظفت وجهها بالفوطة فى غضب ، ثم دخلت غرفتها ، واغلقت الباب على نفسها .

وتنهدت الام تقول :

ـ آه ، لا بد انها جادلت والدك فى البيدر !

عندما طلع القمر عاد الوالد من البيدر ، وجلس القرفصاء على مقعد صغير يدخن . وبعد لحظة سأل زوجته قائلا :

ـ هل سلقت البيض لشيانغ يوى ؟

وفى وقت العشاء تذكرت شيانغ يوى اخاها الصغير ، فسألت :

ـ يا ابى ، اين جين تشنغ ؟

ـ ذهب الى المدينة .

ـ ماذا يعمل فى المدينة فى هذا الوقت المتأخر ؟

ـ لا ادرى . لقد اخفق فى الالتحاق بالمدرسة الثانوية ، ولكنه لا يعمل فى الحقول ، بل يتسكع طيلة اليوم .

وحين جهز العشاء اتجهت شيانغ يوى الى الغرفة الغربية ، وطرقت بابها ، ونادت اختها لتناول العشاء . لكن اختها ادعت انها غير جائعة . تابع الوالد تدخين غليونه وقتا غير قصير ، واخيرا نفضه وقال :

ـ لنأكل !

ثم استطرد قائلا :

ـ لقد زرعنا بعض الخضار ، ولكنها سرقت . والآن لا نجد ما نأكله من الخضار فى موسم حصاد القمح .

لاحظت شيانغ يوى اباها يحرك عودى الاكل فى الطاسة ، فأدركت انه غضبان وقلق على اختها التى رفضت تناول العشاء ، فلم يجد لذة فى الطعام ، فساورها شعور بالندم والقلق . لقد تخرجت فى الجامعة منذ سنة ، ولكنها لم ترسل لأسرتها اية نقود . وكان

والدها يقول لها دائما ان حالتهم قد تحسنت ولا يحتاجون الى مساعدتها ، كما نصحها ان تدخر لشراء ساعة ودراجة ، فهما ضروريتان فى المدينة . اما هى فقد انهمكت فى اعداد اطروحتها ، ولم تتذكر اسرتها قبل عودتها الى البيت هذه المرة ، فاشترت مجموعة من المواد الدراسية لتذاكرها اختها الصغرى حتى تلتحق بالمدرسة . وفى الطريق راحت تفكر كيف تقنعها ببذل جهودها فى ذلك . لكنها لا تجد الآن فائدة من فكرتها هذه .

وقبل النوم اعلن الوالد قائلا :

ـ اعتقد ان القمح فى الحقل الجنوبى ناضج . فلنبدأ حصاده صباح غد .

وخيم السكون على الجميع ، وهب النسيم ، فسقطت حبة مشمش من شجرة قديمة فى الفناء .

فى وقت حصاد القمح كانت شيانغ يوى تحب الاصغاء الى تغريد الطيور عند الصبح . وكان تغريدها عذبا وهى تطير الى الاعلى حينا والى الاسفل حينا آخر ، ثم تندفع محركة اجنحتها قريبا من الناس . ولكنها اليوم لم تسمع هذا التغريد . فعندما استيقظت من النوم ألفت النوافذ منيرة بأشعة الشمس الذهبية ، والبيت خاليا . وترامى الى مسمعها صياح الدواجن فى الفناء وصوت تكسير الحطب وطقطقته فى الموقد داخل المطبخ .

قضت شيانغ يوى الليلة السابقة مع جدتها ، ولكن نومها كان مضطربا لأنها لم تنم معها منذ وقت طويل ، فراحت تتقلب على

الفراش يمنة ويسرة الى ان غلبها التعب الناتج عن يوم وليلة من السفر ، فنامت .

غسلت وجهها بجانب مضخة المياه ، ونادت جدتها بلهجة تعودت استخدامها من قبل :

— جدتى ، لماذا لم توقظينى وتركتنى انام حتى الآن ؟

اكبت الجدة على الموقد تشعله ، وقد انعكس اللهب الاحمر على شعرها الشائب ، وبدت عيناها نصف مغمضتين . ان من عادتها اعداد وجبات الاسرة كلها منذ كانت شيانغ يوى طفلة صغيرة . وعلى الرغم من ان امها معوقة الاطراف لكنها لم تنقطع قط عن القيام بالاعمال فى الحقول . وقد اعتنى بها مسؤول فرقة الانتاج فى الماضى ، فخصها بعمل خفيف كرعاية الدواجن عند مدخل القرية . وفى السنوات الاخيرة اصبحت تذهب الى الحقول للعمل مثل السالمين .

وقفت الجدة لترفع غطاء القدر بيديها ، وحاولت ذلك مرات حتى رفعته قليلا فى كثير من الجهد . وحينئذ اندفع من فوهة الموقد دخان كثيف داهم وجهها . رأت شيانغ يوى ذلك فهرولت اليها ، وساعدتها على رفع الغطاء . فتمتمت الجدة قائلة :

— الغطاء الخشبى ثقيل جدا !

غلت المياه فى القدر لتسخين الخبز . والقدر كبيرة مثل القدر التى تستخدم فى مطبخ المدرسين فى مدرستها . ان الجدة ضعيفة الجسم ، فكيف تقوم بهذا العمل الثقيل ! ؟ ولكنها تواصل القيام به على الرغم من انها فى الرابعة والثمانين من عمرها ،

وفى ايام الشتاء المثلجة كانت الجدة تضم شيانغ يوى فى حضنها تحت اللحاف . واذا بكت ناولتها قطعة خبز من دقيق البطاط او رغيفا من الذرة ، وقالت :

– هذا حلو . من يأكله ؟

– انا آكله . شيانغ يوى تأكله .

– واذا اكلته ، فمن تقبلين ؟

– اقبل جدتى .

– واذا كبرت ، فمن تعيلين ؟

– اعيل جدتى .

وكان ذلك الخبز دافئا دائما بدفء قلب الجدة . والآن كبرت شيانغ يوى ، وحصلت على راتب شهرى يبلغ ٥٣ يوانا ، ولكنها لم تشتر لها ولو قطعة من القماش او حفنة من الحلويات . امس عندما ناولتها شيانغ يوى الكعك الذى اشترته لها خصيصا ، اخضلت عيناها بالدموع ولمست العلبة الكرتونية المستديرة بخفة ، وسألتها فى اضطراب :

– هذا يكلفك مبلغا كبيرا ، أ ليس كذلك ؟ لقد بدأت العمل منذ وقت قصير ، ولم تتمى بعد عملا عظيم الشأن ، فاهتمى بذلك . اننا فى هذين العامين نأكل خبزا من دقيق القمح فى كل وجبة ، فكونى مطمئنة وانت بعيدة عنا ، واهتمى بنفسك لتقوية جسمك .

حين انهمكت فى اعداد اطروحتها « نشوء الفلاحين فى الصين ومكانتهم فى التاريخ » ، او فى شكواها المتتابعة الى مسؤولى

الجامعة لتصحيح تقييمها غير العادل ، لم يبق لديها اى مجال للتفكير فى جدتها الحنون وفى ذكريات الماضى . ونسيت جدتها تماما حتى انها لم تعد تحلم بها . لذلك اخذت توبخ نفسها الآن، وخفت لمساعدتها بكل وسيلة . فقامت بعجن الدقيق وطهى الحساء واطعام الدواجن ورعى الاغنام وغير ذلك .

جلست الجدة على الكرسى البالى ، ودمدمت قائلة :

— يا كبدى ، انت مجتهدة تعرفين كيف تعتنين بغيرك ؛ اما قاى وا فهى غريبة شاذة لا تطيعنى . وتظل عابسة متجهمة فى البيت . ودا قو الساكن خارج البوابة الغربية انسان حقير ، ولكنها تفضل التودد اليه !

وسعت شيانغ يوى عينيها وسألت فى عجب :

— ماذا ؟ هى ودا قو ؟

— القرية كلها تثرثر فى ذلك . ولكن املك لا تريـــد ازعاجها ! . . .

لم تصدق شيانغ يوى كلام جدتها لشعورها بأن الجدة لا تحب قاى وا منذ صغرها ، فقد كانت قاى وا مولعة باللعب مهملة الدراسة فأخفقت فى الالتحاق بالمدرسة ، واصبحت موضع احتقار الاسرة كلها . وهى الآن فى الثانية والعشرين من عمرها . اما دا قو ففى الثلاثين ، وله سمعة غير جيدة . أ هى حمقاء الى هذه الدرجة ؟

— يا جدتى ، سآخذ الوجبة الى الحقول .

فكرت الجدة قليلا ، وقالت مبتسمة :

ـ أ تستطيعين ذلك ؟

ـ نعم ، أستطيع .

نظفت الجدة ببطء دلوين خشبيين ، ووضعت الحساء فى الدلو الاول والخبز فى الثانى ، وفوق الخبز وضعت صحنا من البصل الاخضر المخلوط بالتوابل ، وقالت لحفيدتها :

ـ سيرى على مهل .

وقفت الجدة متكئة على الجدار الطينى قرب البوابة تنظر . وبدا لها شبح حفيدتها يبتعد على الرغم من الضباب الرمادى الذى يحجب نظرها .

اضاءت الشمس عند الافق ، وهبت الرياح عبر السهول المتناهية ، وتلألأ الندى على اوراق الاعشاب وسرعان ما اختفى تماما . انقسمت البحار الذهبية من القمح الناضج الى مربعات كثيرة : وفى الحقول المحصودة نامت صفوف من القمح المقطوع ، ودب فى الناس النشاط . فاذا نظرت من خلال امواج القمح رأيت رؤوس الناس او ظهورهم المقوسة تتحرك بلا انقطاع .

عندما انتصبت قاى وا استعدادا لحزم القمح المحصود ، رأت اختها شيانغ يوى تقترب حاملة دلوين على عصا الحمل ، فهرولت اليها بخطى كبيرة ، وتناولت الحمل منها . شعرت شيانغ يوى ان اختها ليست فى حالة نفسية سيئة على الرغم من انها لم تلاحظ البسمة على محياها .

وكان جين تشنغ يعمل هناك ايضا . فحين رأته اخته شيانغ يوى ، اعتاض عن التحية بالتبسم . انها لم تره منذ سنة واحدة

فقط ، ولكنه صار شابا وسيما طويل الشعر حديث الزى . فقالت له باسمة :

ــ ما اجمل هذا الزى ، يا جين تشنغ !

نظر جين تشنغ الى اخته فى حياء ولم يدر ماذا يقول ، فاستطردت سائلة :

ــ متى عدت ليلة امس ؟

ــ بين الحادية عشرة والثانية عشرة .

قال ذلك مطأطئا رأسه خافضا بصره كمن يبحث عن شىء فى الارض .

ــ الساعة الثانية عشرة ؟

خلع الوالد حذاءه ، وجلس عليه ، وقال عابس الوجه :

ــ الساعة الثانية والنصف صباح اليوم !

تفرست شيانغ يوى فى وجه اخيها وهى تسأله :

ــ ما الذى يشغلك حتى هذا الوقت ؟

عاد جين تشنغ الى التبسم واجاب قائلا :

ــ ذهبت لأشاهد المسلسل التلفزيونى « هوه يوان جيا » ، فأمس عرضت آخر حلقاته .

فقالت شيانغ يوى فى سخرية :

ــ آه ، ظننت انك ذهبت الى الجامعة الليلية . . .

وعند ذلك تدخلت قاى وا التى مسحت عرقها وهى تكركر بضحكاتها الرنانة الصافية ، فقالت :

ــ لقد اخفق فى الالتحاق بالمدرسة الثانوية ، ولكنه سينجح

بالتأكيد لو كانت هناك دورة تدريب لألعاب الووشو !

احمر وجه جين تشنغ ، لكنه لم يغضب فى الحقيقة . وقال عابسا :

ـ اشترى انت مرآة لتعرف حقيقة نفسك ! ليس لك الحق فى هذا الكلام !

ـ ماذا تقول ؟

اكفهر وجه قاى وا فى الحال ، وانعقد حاجباها ، واخذ انفها وزاويتا فمها فى الارتعاش ، وتابعت تقول بصوت عال :

ـ انت شاب فى السادسة عشرة ، ومتبطل . ولكنك لا تترك غيرك يتكلم . واذا لم يجرؤ احد على التكلم معك ، فانى خلاف ذلك ! فى المستقبل يجب ان تتحمل المسؤولية عن زراعة نصف هذه الحقول !

قبل ان يرد جين تشنغ أتت الوالدة من داخل الحقل ، وقاطعتهما قائلة :

ـ يكفى ! لقد جاءتنا شيانغ يوى بالوجبة ، فلنأكل ونستأنف العمل بعد الاكل .

حرك جين تشنغ حاجبيه ولمح تعابير وجه قاى وا . ولكنه لم يدر اين ذهبت جرأته فى مواصلة الشجار . فرمى بمنجله على الارض بقوة ، وانحنى على الدلو ليأخذ الطعام .

وقفت قاى وا مواجهة لأشعة الشمس ، فوجدتها شيانغ يوى اكثر نضوجا وامتلاء . كانت اطرافها قوية ، وكتفاها واسعتين ، وتلبس ، شأنها شأن كل فتاة قروية ، لباسا داخليا صغيرا يضيق

صدرها ، لكن نهديها كانا بارزين على نحو واضح . وكان فخذاها ممتلئتين فبدا سروالها اللازوردى ملفوفا عليهما . وقد اكتسى اسفل ساقيه والحذاء بطبقة من الطين الاصفر . وتبين لشيانغ يوى ان قاى وا قد اصبحت شابة عاملة ، فمن المستحيل ان تطلب منها الانكباب على الدراسة .

ناولت شيانغ يوى اختها طاسة من الحساء قائلة :

ــ اشربى يا اختاه .

ــ لم العجلة ؟

لم تأخذ قاى وا الطاسة ، بل قصدت وحدها طرف الحقل متمهلة ، وانحنت وغرفت بيديها بعض الماء من القناة هناك لتغسل به وجهها ، واخذت قطرات الماء المتلألئة تتساقط من ذراعيها .

نظر الوالد اليها شزرا ، وقال لشيانغ يوى فى غلظة :

ــ كلى انت !

ثم تناول طاسة ، وراح يمضغ البصل الاخضر بقوة كأنه يصب جام غضبه عليه .

وكان دا قو واقفا على الجانب الآخر للقناة مقابل قاى وا ، يلقى نظره نحوهم . لقد تم حصاد القمح فى حقول اسرة دا قو . وتوقف جرار صغير وسط الحقول ، واخذ عدة اشخاص يملؤونه بالقمح بواسطة المذارى ، فتطير منها حزمة من القمح بعد اخرى . كانوا يعملون بجد ونشاط ، ويصيحون بأصوات عالية . فشدوا اليهم انظار جميع الذين يعملون فى الحقول المجاورة .

وعندما رأى دا قو ان شيانغ يوى تنظر اليه ، مشى نحوها فى

خجل ، وقال لها :

— هالو ، يا جامعية . أ عدت لحصاد القمح ؟ ماذا اعد لك العم لاو دوى من الاطعمة اللذيذة ؟

مدت شيانغ يوى الطاسة اليه مجاملة ، وقالت :

— تفضل بالاكل !

— تناولت الطعام . تفضلوا انتم !

قال هذا لشيانغ يوى بينما عيناه ترمقان قاى وا . اما قاى وا فوضعت منديلها المبلل على شعرها الحالك السواد ، ومرت بجانب دا قو ، واخذت طاسة واستدارت لتأكل .

فتابع دا قو قوله :

— يا عم لاو دوى ، هذا القمح جيد .

لم يجبه الاب ، بل شخر واستمر فى الاكل . فاقترب دا قو منه ، وقال له بصوت خفيض ذى معنى :

— يا عم لاو دوى ، عليك ان تسرع . ان بيع القمح هذه السنة امر صعب جدا . لا بد ان تنتهز اقرب فرصة .

ظل الاب يأكل دون أن يرفع رأسه ، ولكن الام لم تصبر فسألت :

— ما الخبر ؟

قرعت قاى وا طاستها ، وقالت بصوت عال :

— لا داعى لسؤاله . لقد قلت لكم ذلك منذ وقت ، لكنكم لم تصدقونى .

فاستطرد دا قو قائلا فى لهجة جادة :

ــ ان المخزن الغربى سيملأ بعد ثلاثة ايام . اما المخزن الشرقى فيتسع لأربعين الف كيلوغرام من الحبوب . فاليوم وغدا سيقبل كل ما يعرض . وفى اليوم الثالث لن يقبل الا بتصريح كتابى . واذا تأخرتم فسيكون بيع القمح امرا عسيرا .

فقال جين تشنغ ، وهو ينظر اليه شزرا :

ــ لقد اذيع ليلة امس ان مشكلة بيع الفلاحين للحبوب ستحل . لا اصدق ان الحبوب المحصودة لن تباع .

وضع الوالد طاسته على الارض ، وقال فى صوت مكتوم :

ــ انك ثرثار ! كل بسرعة واذهب الى العمل !

وعلى الرغم من ان دا قو ادرك ان هذا الكلام موجه اليه ، الا انه ظل يثرثر قائلا :

ــ يا عم لاو دوى ، لا تتردد ! سننهى درس قمحنا اليوم . وبعد الاكل سأطلب من اخى شياو وو ان يسوق الجرار الى حقولكم ليساعدكم على حصاد القمح . وعند الظهر يمكن نقله الى البيدر لدرسه فى الليل . وغدا يشمس طيلة اليوم ، فيمكن بذلك بيعه بعد غد .

ــ ألا نحتاج حسب قولك لتصريح كتابى بعد غد ؟ فمن اين يمكننى ان احصل على ذلك التصريح ؟

ــ ليس هناك مشكلة . سأحاول الحصول عليه .

ــ لا داعى لذلك . لن استطيع رد جميلك .

قال ذلك ، واخذ منجله وانحنى يحصد القمح .

ارتفعت الشمس الى كبد السماء . وتصاعد الغبار من تحت

منجل الاب ، واخذ يتطاير من حوله . وقف دا قو محرجا ، فأخرج سيجارة وراح يدخنها ببطء ، وبعد لحظات ترامى اليه من بعيد نداء اخيه :

– يا اخى ، لنبدأ العمل !

فقال للام بابتسامة :

– يا عمتى ، متى احتجتم الى الجرار ، كلمينى !

فأجابت الام بنعم ، الا ان قاى وا قالت دون كلفة :

– لا تسمعنا كلمات حلوة . اذا اردت مساعدتنا حقا ، فاحضر اذن بعد الظهر . لن نستخدم جراركم مجانا . سندفع التكلفة . واذا لم ترد مساعدتنا ، فاذهب بعيدا . لن نكون نحن الايدى العاملة الضعيفة اضحوكة لكم .

فأسرع دا قو الى القول :

– يا اختى العزيزة ، لم هذا القول ؟

ثم تراجع .

غربت الشمس ، واخذ الجو يعتدل ويرطب تدريجيا بعد ان كان جافا حارا فى النهار . ولم يطلع القمر ، فالسماء مظلمة . وتوقفت الريح ، فسكنت الاشجار . وكان الحباحب يطير فى الحقول متمهلا ، وبضعة احزمة ضوئية تتحرك هنا وهناك ، صادرة عن الجرارات المتنقلة .

وكان بيدر القمح ساكنا هادئا دون كهرباء . وقد جلس على طرفه عدد من المزارعين متفرقين . فبعضهم يجلس القرفصاء ،

وآخر يفترش الغبراء ، ومنهم من ذهب بعيدا يدخن .

استلقت شيانغ يوى على حزم القمح ، وراحت تمضغ احد سيقانه . وكان بجانبها مدحاة حجرية مهجورة من مدة طويلة . كانت فى غاية التعب ، فشعرت بفتور فى كل مفاصلها وبألم شديد فى خصرها لا يكاد يطاق ، كما شعرت بسخونة وألم فى بشرة ذراعيها ووجهها . وعندئذ ادركت ان الاسترخاء دون لعب او دردشة او مطالعة او حتى تفكير فى اى شىء هو نوع من متعة الحياة . ولذلك رجت ان تظل الكهرباء مقطوعة طوال الليل .

ونقل القمح الى البيدر عند المساء . وكرم الاب جيرانه بوجبة لا بأس بها وخمس علب من السجائر . لو لم تنقطع الكهرباء كالعادة لانتهى درس القمح خلال ساعتين . ان آلة الدراسة موديل ٥٠ جيدة ، الا انها بحاجة الى بضع عشرة يدا عاملة لنقل حزم القمح وفك الحزم والدرس وغيرها .

وبعد ظهر ذلك اليوم كاد الوالد يتشاجر مع ابنته قاى وا . فان شياو وو قد ساق الجرار الى حقول اسرة قاى وا ، الا ان الاب لم يعره ادنى التفاتة ، مما جعله يضيق صدرا ، وهو الشاب النشيط المفعم بالحيوية . ونقل الجرار حزم القمح عدة مرات ، وقاى وا لم تنقطع خلال ذلك عن تقديم الشراب والسجائر اكراما لشياو وو ، لكن شياو وو لم يشرب ولم يدخن . واثار هذا سخط الاب على حماسة ابنته المفرطة ، فضرب مقبض منجله وصاح فيها :

— يا للعار ! انت مجنونة فى فعل ذلك . أتجدين وقتا للعمل ؟

لم تصبر قاو وا على قول ابيها ، بل اسرعت الى امام الجرار لمنعه من التقدم ، وقالت للشاب :

– لا بد ان تشرب هذه الطاسة من الماء . وان لم تشرب فاذهب انت وجرارك !

فرمل شياو وو الجرار مشدوها ، واحمر وجهه كقميصه الاحمر . وبعد مدة غير قصيرة ابتسم ابتسامة متكلفة ، ونظر شزرا الى ذلك العجوز الغضبان ، وخفض رأسه ، ثم شرب طاسة الشراب الحلو دفعة واحدة . وظل خافض الرأس حتى انتهى العمل . اما قاى وا فقد بدت منتصرة لا تعير احدا التفاتة ، بل تعمل بسرعة مدهشة . وفى لمحة بصر حزمت صفا من القمح المحصود ، وتركت اباها الذى كان يعمل معها بعيدا وراءها . وعند طرف الحقل وقفت منتصبة ، تمسح العرق ، وتلوح بمنديلها كمروحة ، وتترنم بصوت خفيف . وحينما انتصب ابوها واقفا يحملق فيها ، تظاهرت بعدم حدوث اى شىء ، وانحنت لحزم صف آخر من القمح . ولكن ما ظهر على وجهها من التعابير العجيبة جعل قلب شيانغ يوى يتنزى ألما .

اخذت شيانغ يوى تفكر بهدوء : لقد شبت قاى وا حقا . ولم تتذكر متى اصبحت اختها تتصف بمثل هذا المزاج الغريب . فقد ظلت تحتفظ قاى وا فى ذاكرتها بصورة فتاة صغيرة فى لباس اكبر مما يناسبها وحذاء بال ، تتدلى من جانبى رأسها ضفيرتان قصيرتان خشنتان ، وتحمل بيديها طاسة كبيرة ، وتحدق الى الاطعمة على المائدة . وعندما ترعرعت قليلا اصبحت تجرى

دائما فى الطريق الريفية كالمجنونة ، وتلوح بحقيبة كتبها على نحو دائرى كالطاحونة الهوائية . واذا ما باشرت ايا من الاعمال المنزلية ، قامت به فى طيش .

بعد الانتهاء من نقل حزم القمح المحصود ، طرأ شجار بين قاى وا ووالدها . فقد الح الاب على درس القمح باستخدام الكهرباء لتشغيل آلة الدراسة ، بينما واظبت البنت على استخدام الجرار لتحريك الآلة . اما شياو وو فتمتم قائلا :

ـــ سنستخدم نحن انفسنا الجرار لدرس القمح هذه الليلة .

فقاطعته قاى وا برفع قبعته القشية قائلة :

ـــ قل لأخيك دا قو انى سأستخدم الجرار اولا . سنستخدمها ساعة واحدة تقريبا ، لن نؤخركم كثيرا .

ولكن الاب لم يوافق على ذلك وتشاجر مع ابنته . ولم يتراجع اى منهما قط .

واخيرا التفتت قاى وا نحو شياو وو ، وسألته بحدة :

ـــ قل ! ألن تأتى هذه الليلة ؟

وتملك الخوف شياو وو ، فأجاب فى تردد :

ـــ قال لى اخى انه سيأتى بعد منتصف هذه الليلة .

ظلت قاى وا صامتة ساكنة لحظة ، تنظر الى شياو وو شزرا ، ثم قالت فى غضب :

ـــ يا للتفاهة ! لا شأن لى بذلك . وان اهتم به .

وبعد العشاء استحمت ، ثم اغلقت الباب على نفسها ونامت ؛ لم يدر احد متى انسل جين تشنغ خارجا فعندما بحث عنه

الوالدان لم يعثرا له على اثر . فقالت الجدة فى غيظ :

— انتم تسيئون الى الضعيف وتخافون من القوى . لو ماتت شيانغ يوى تعبا ، فلن تأسفوا عليها . لقد عملت طول اليوم . هل باشرت عملا ثقيلا مثل هذا من قبل ؟ اذا تنفطت يدها فكيف تمسك بالقلم فى المستقبل ؟ اما القوية فقد نامت فى الغرفة . هل انتم بكم ؟ لماذا لم توقظوها ؟ . . .

قاطعت شيانغ يوى جدتها خوفا من ان تسمع قاى وا كلامها ويحدث شجار بين جدتها وابيها . فى مثل هذا الظرف يصعب على اى رجل قدير ان يكون ربا صالحا للاسرة الفلاحية . لقد اصبح الوالد فى وضع حرج . ان معظم الاسر فى هذه القرية الصغيرة تحمل اسم ليو . اما اسرة شيانغ يوى فكانت من الاقلية . لذلك لم يكن لها اقارب كثيرون وايد عاملة قوية . وقد حاول الوالد بكل وسيلة ممكنة جمع بضع عشرة يدا عاملة للعمل فى البيدر بعد ان شربوا الخمر ، ولكنهم اضطروا الى الانتظار لعدم وجود الكهرباء . وهذا ما جعل الوالد قلقا ينتظر على احر من الجمر .

وفى الظلام شتم احد الناس قائلا :

— الويل لبان ، "الرأس الكبير" . انه لم يحصل على ما اراد من النقود ، فخلق مشكلة .

كان "الرأس الكبير" عاملا كهربائيا فى الفيلق الانتاجى ، وله اقارب فى هذه القرية — قرية ليو الصغيرة . لذلك لم يجرؤ احد على استجابة هذه الشتيمة . فعادت الليلة الى سكونها . ولم تنقطع الضفادع عن النقيق فى البركة بجانب البيدر ، فبدا هذا الصوت

المزعج كأنه سلك معدني يحز قلوب الناس .

كان هذا الوقت فى المدرسة وقت قرع الجرس استعدادا للنوم . وكانت المدرسة مدرسة ثانوية حديثة العهد فى المحافظة النائية . ولا احد من زملاء شيانغ يوى يعمل فى مثل هذا المكان . كانت شيانغ يوى طالبة بارزة فى قسم التاريخ بالجامعة ولكن بعض زملائها من ذوى المستوى المتوسط بقى فى الجامعة مدرسا ، وذهب آخرون للعمل فى اكاديمية العلوم الاجتماعية ، واصبح البقية محررين فى هيئات التحرير . اما هى فقد حضرت لتعمل فى مثل هذا المكان النائى بشكوى مكبوتة . ان اول ظلم تلقته فى حياتها جعلها تدرس بجد واجتهاد . ما كان لها من تعتمد عليه ، فاعتمدت على نفسها . عقدت العزم على ان تصبح طالبة فى الدراسات العليا . واعتقدت ان من له القدرة والكفاءة ، فلا بد ان يكون افضل من غيره عاجلا او آجلا . اما الآن فقد شعرت بالتعب ينهكها جسديا وعقليا . واستبدت بها كآبة جعلت إرادتها تنهار . واخذت تتقلب ثم استلقت على ظهرها . لم يطلع القمر بعد ، ولم تظهر النجوم ، وبدت القبة السماوية كبحيرة مظلمة عميقة الغور تطبق على صدرها . لمست ذراعها المدحاة الحجرية بجانبها ، فشعرت ببرودة . اعتذرت متهورة هذه المرة لتعود الى بيتها . فعندما كلمت مدير المدرسة بشأن اعتذارها قال لها فى ابتسامة :

— اذا اعتذرت ، فلا بد ان نطلب من غيرك ان يحل محلك فى التدريس . واذا تجاوزت مدة عشرة ايام ، فسنخصم من راتبك .

فأجابت بخشونة :

ــ اخصم ما تشاء !

استطرد المدير قائلا ، والابتسامة لم تفارق شفتيه :

ــ عليك ان تعودى فى المدة المحددة .

ــ واذا لم اعد فى الوقت المحدد ، فماذا افعل ؟

ــ اكتبى لى رسالة .

كان المدير متسامحا رحب الصدر ، لم يبال قط بما دار بينه وبينها من شجار امس . لقد كانت عنيفة فى شجارها معه ، تبكى وتحكى مثل اختها قاى وا .

كان الجو غائما ، وكأن الغيوم تتحرك . هل من المحتمل ان تمطر السماء ؟ لم يسمعوا ما اذاعته محطة الاذاعة بالمحافظة من التنبؤ الجوى . وقد ينقطع السلك الكهربائى المرتبط بالمحطة ، لأن مكبر الصوت صامت . لقد زارت محطة الاذاعة هذه فى المحافظة . انها محطة صغيرة ، تتكون من صفين من الغرف الطينية المسقوفة بالقرميد . كان المحرر يسكن فى الطرف الغربى ، وهو خريج فى قسم اللغة الصينية ، وقد تخرج قبلها بسنة . وكان انسانا طيبا متوسط المقدرة ، يعتبر عمله محررا متواضعا فى محطة الاذاعة الصغيرة امرا عظيما . وقفت شيانغ يوى منه موقفا فاترا خاليا من اية مودة ، اذ اعتقدت انها ستنقل عاجلا ام آجلا الى مكان آخر فى حاضرة المقاطعة او غيرها . وعند ذاك سيكون هو عرقلة فى طريقها . ان فشلها هذه المرة فى ان تصبح طالبة فى الدراسات العليا قد يبعث فى نفسه شيئا من السرور الخفى .

كانت المدحاة الحجرية باردة ، فسحبت يدها عنها الى صدرها . وداهمها فجأة شعور بأنها وحيدة فى هذا العالم ، ولم تدر ما سبب هذا الشعور . لم يكن لها صديق حميم ، لا فى المدرسة المغلقة ولا فى القرية النائية . لقد قضت ستا وعشرين سنة لم تهتم خلالها بأحد ، وهى تجتاز بحارا من الناس . كانت مثل المدحاة الحجرية ، باردة صلبة ، تصر على تعبيد كل ما امامها . لقد عرفت انه سيكتب اليها . وهى فى هذا الوقت ترغب فى استلام رسالة من اى شخص ، الا انها لا تتوقع من اى شخص ان يخلصها من الاسى والكآبة . لقد سئمت وملت البيئة البعيدة حيث تعمل وتعيش ، ففضلت الاسترخاء على بيدر القمح بسكون وهدوء . ازداد الجو تلبدا بالغيوم ، وصار الهواء البارد نسيما ، وحفت الاوراق الذابلة بأكوام القمح المحصود . ليت السماء لا تمطر ، لا الليلة ولا غدا . ادامت النظر الى السماء ، والسماء ترتفع شيئا فشيئا ، فلا تبدو لها نهاية .

لم تدر كم نامت : دقيقة او ساعتين . ولكنها استيقظت على صيحة خشنة تقول :

ــ ماذا ؟ لم تأت الكهرباء بعد ؟

انها صيحة دا قو الذى استطرد يقول :

ــ هذا "الرأس الكبير" قد فعل بنا هذا حقا !

ولكن لم يستجب له احد فى البيدر ، فصاح بصوت اعلى :

ــ هيا يا عم لاو دوى ! هذا العمل يتطلب ساعة تقريبا . قد ينزل المطر بعد منتصف الليل . واذا امطرت السماء ، فالعاقبة وخيمة .

وقال احد الناس جملة ذات مغزى :

— ان العم لاو دوى ينتظرك لتتوسط له عند " الرأس الكبير" .

فقال دا قو منتهزا هذه الفرصة :

— هذا امر هين . اذا لم يأت دورنا فى استخدام الكهرباء ، فسأحاول ذلك . انا ذاهب اليه .

وحينئذ قال الوالد :

— هات السجائر ، خذها معك .

— لا داعى . عندى سجائر .

وغادر مسرعا .

اثار ذهاب دا قو مناقشة بين المتجمعين على البيدر : ترى هل سينجح فى مهمته ؟ وعاد دا قو ومعه " الرأس الكبير" . واخذه من ذراعه وشتمه ، ثم ربت على رأسه قائلا :

— اذا لم توصل الكهرباء ، فسأذبحك وابيع لحمك كما يباع لحم الحمار !

بحضور " الرأس الكبير" انيرت المصابيح المعلقة على الاعمدة المائلة ، فعلت صيحات الناس المتعاقبة فى البيدر ، كأن العالم قد تخلص من الجحيم ، واصبح فجأة يتدفق بالنشاط والحيوية . واتسعت الابتسامة على محيا الوالد ، وناول " الرأس الكبير" سيجارة فى تملق .

اخذ " الرأس الكبير" السيجارة ، ووضعها وراء اذنه ، ولوح بيده يقول فى صرامة :

— لو علمت محطة تحويل التيار بذلك ، فسأتعرض للنقد .

ثم رفع اصبعه فى وجه دا فو صائحا :

ـ ساعة واحدة فقط ! اسرعوا !

ـ ساعة واحدة ؟ عندما استعملت جرارى لم تعد ذلك بالساعة . اذا جاء احد من محطة تحويل التيار ، فسأضيفه انا ، وابتعد انت !

دوت آلة الدراسة . واصبح الناس مفعمين بالحيوية. بعد فترة من الراحة ، واخذوا يهرولون على البيدر ذهابا وايابا ، متصادمين متصايحين وسط الضباب الترابى الاصفر الكثيف وتحت انوار المصابيح الخافتة ، كأنهم يسبحون فى فيضان عكر .

هذا الاهتياج غير العادى جعل شيانغ يوى تنسى إعياءها . فوضعت فوطة بيضاء على رأسها ، وهرعت لجر حزم القمح من بعيد . وخلا ذهنها من اى تفكير ، واصبحت جزءا من الآلة ، تتراكض مع دويها الذى كان يرتفع تارة وينخفض تارة اخرى ، وهى لا تدرى ماذا تفعل احيانا .

وبعد فترة شعرت بأن حشرات تدب على وجهها ، فمسحته بكمها فألفته مبللا . وعندئذ اكتشفت ان العرق يتصبب من جسمها ، حتى ان خصر بنطالها اضحى كفوطة مبتلة تلتف على وسطها .

وبعد فترة وجدت قطرات ماء باردة تسقط من شعرها فظنت انها من العرق . ثم اخذت قطرات اخرى تضرب وجهها وذراعيها ، فأدركت انه المطر . وقفت تحدق الى السماء . وفى ظل الانوار الخافتة بدا كل شيء مظلما ، فلم تستطع التمييز بين صفاء السماء

وتكدرها ، الا ان قطرات الماء الباردة ضربت وجهها حقا .

ـ آه ، لماذا انت هنا ؟!

اصطدمت شيانغ يوى بشخص يركض ، فوقعت على الارض وتدحرجت . ثم وجدت نفسها ترفع وتجر الى ركن جانبى ، فاذا بقاى وا هى التى رفعتها وجرتها . فقالت لها شيانغ يوى فى هلع :

ـ يا قاى وا ! ان المطر ينزل !

ـ اعرف .

قالت ذلك وهى تنفض التراب عن ثوبها . لقد عملت هناك مدة ، ولكن شيانغ يوى لم تكشف ذلك .

ـ ما العمل ؟

ـ لا شىء .

ـ يا قاى وا . . .

لم تجد شيانغ يوى ما تقوله . وفى وقت مثل هذا بدا كل شىء غير مسوغ . واستطردت تقول ، وقد شرعت تبكى على حين غرة :

ـ لقد شاخ ابونا وهو يواجه الصعوبات .

ـ لم البكاء ؟ ان السماء لن تنهار .

لم تنظر اليها قاى وا ، بل استدارت لتعمل .

توقفت الآلة فجأة . ومع اختفاء الضوضاء فقد الناس بغتة سمعهم . وفى لمح البصر بدأت قطرات المطر تسقط ، فتفرق الناس يهرولون الى اكوام قمحهم .

عندها ادركت شيانغ يوى قيمة دا قو . انه لم ينصرف



كغيره ، بل ظل يعمل بجد ونشاط ، ونصفه الاعلى عار ، وقد بدا مفعما بالقوة على الرغم من نحفه . حرك المذراة الثقيلة بخفة ، وكوم سيقان القمح بسرعة . كان يعمل مصدرا فى الوقت نفسه اوامره :

ــ يا قاى وا ، انقلى القمح الى الطرف الشرقى . نعم ، هناك مرتفع . وانقلى القمح الوسخ الى الطرف الجنوبى . يا شيانغ يوى ، اسرعى الى بيدرنا ، وخذى حزمة من الاغطية البلاستيكية !

لا تعرف شيانغ يوى اين يقع بيدر دا قو . وبعد جهد وجدته ، واخذت منه حزمة من الاغطية البلاستيكية ، وعادت بها . وكثفت قطرات المطر ، وانقطعت الكهرباء ، فلف البيدر ظلام داكن . وهبت الرياح الرطبة على الحقول وصفرت ، وتكاثف السديم الضبابى اللامتناهى ، وعلت ضوضاء الناس ونباح الكلاب فى كل مكان .

وفى الظلام ظل اناس يعملون ، الا انها شعرت بوجود شىء غير عادى ، كأن حدثا قد وقع . وتراءى لها شبحان بجانب كومة سيقان القمح وعندما اقتربت منهما ، وجدت انهما امها واخوها جين تشنغ ، فسألت امها :

ــ يا اماه ، لماذا جئت الى هنا ؟

لم تجب الوالدة .

ــ اين دا قو ؟

ــ غادر .

ــ اين كنت يا جين تشنغ ؟

ثرثرت الام قائلة :

ــ يلعب الشطرنج فى بيت أر دان .

فقال جين تشنغ ببطء ملتمسا لنفسه عذرا :

ــ ظننت اننا سندرس القمح غدا .

عندها صاح الوالد فى نبرة صارمة :

ــ تعالوا لنذرى القمح الوسخ ، وتعالى انت ايضا يا قاى وا .

فقالت قاى وا بنفس النبرة الصارمة دون ادنى تردد :

ــ ايهما اهم ، هذه الكومة الكبيرة من القمح ام القمح الوسخ ؟ تعالوا انتم جميعا لنجمع هذا القمح .

فأصر الوالد قائلا :

ــ آمرك ان تأتى !

لم تتفوه قاى وا ، بل استدارت لتجمع القمح وهى تقول :

ــ ابسطوا الاغطية البلاستيكية !

وضع الوالد المذراة ، وصاح بصوت اكثر صرامة :

ــ ستأتين ام لا ؟

لم تلتفت قط ، بل اجابت بعزم :

ــ لا !

اجتاحته موجة غضب مفاجئ ، فتناول المذراة ، وهجم على قاى وا : وفيما الدهشة تعقد لسان جين تشنغ نزلت المذراة على ظهر قاى وا بشدة . فوقعت على كومة القمح ، ثم تدحرجت الى الارض ، وهى تحرك قدميها وتبكى وتصيح :

ــ اضربنى ! اذا لم تقتلنى بالضرب ، فلن تكون والدى !

ضربها الوالد بالمذراة مرة الى اليسار واخرى الى اليمين . وكانت كل ضربة شديدة وسريعة ، الا انها لم تصب قاى وا الا نادرا ، ولكن تفرقت كومة القمح وتطايرت حباته . وبغتة نهضت قاى وا واخذت المذراة بيديها ، وشدت والدها من يده وهى تقول له :

— اضربنى ! ليس امامك من عمل الا ان تضربنى . لو كنت بقرة او حصانا او كلبا ، لكان عليك ان ترحمنى .

— انت . . . انت تلحقين العار بنفسك !

— هل هذا ذنبى ؟

امسك الوالد مقبض المذراة بكلتا يديه ، ورأسه لاصق بذراعه ، وقال لاهثا :

— انت جريئة ! جريئة جدا ! لقد اهان غيره حقا !

خطفت الوالدة المذراة من بين يديه ، وقالت :

— يكفى ، يكفى ! يا للحماقة ! ما ذنب قاى وا ؟ هيا الى العمل !

جلست قاى وا على طرف البيدر تبكى ، وتمسح الدموع بذراعها ، وعنقها يرتعش .

خفت الرياح ، وقلت قطرات المطر ، وسارت الغيوم الدكناء الى الشمال الشرقى . والتمع البرق فى مكان بعيد ، ثم تلاه صوت رعد تناهى اليهم من الافق البعيد .

خارت قوى الاسرة بعد هذا الذعر غير الحقيقى ، فجلسوا القرفصاء يستريحون . وخيم السكون على الجميع ما عدا قاى

وا التى استمرت تنشج .

وعندما لمح الوالد حزمة الاغطية البلاستيكية بجانب قدم شيانغ يوى ، ثار ثائره مرة اخرى وصاح :

ــ ارموها ! من يجرؤ على الاتصال بأسرته فانى سأكسر رجله !

لم تعرف شيانغ يوى ما حدث خلال غيابها لاحضار الاغطية البلاستيكية ، الا انها استشفت بأن الامر متعلق بدا قو . فانحنت على قاى وا ، وسألتها هامسة :

ــ ماذا حدث يا قاى وا ؟

اشتد بكاء قاى وا حتى اخذ جسدها كله يرتعش . فوضعت شيانغ يوى يدها تحت ابط اختها لتأخذها ، ولكن قاى وا ادارت جسمها بشدة ، ودفعت يد اختها عنها ، واشاحت برجهها .

فقالت الوالدة لها :

ــ يا قاى وا ، عودى مع اختك . لقد اصبح الصبح ، فاذهبى للنوم .

اخذت شيانغ يوى اختها رغم مقاومتها ، وعادت بها نحو القرية وهى تواسيها .

توقف الرعد والبرق ، وساد السكون الحقول . واخذت الريح تحرك اغصان الشجر ، فتتساقط عنها قطرات الماء . وفى مكان غير بعيد بدأت آلة دراسة تدوى مرة اخرى . هدأ بكاء قاى وا تدريجيا ، ولم يبق الا شهيق صادر عن صدرها .

ــ يا اختاه ، اخبرينى بما حدث ؟

ــ ... عندما انقطعت الكهرباء ، وقعت على الارض ، فهو ...

ــ ماذا فعل ؟

ــ اسندنى بيده ، وحدث ان تلمسنى هنا ... ورأى ذلك والدى .

سارت الاختان مدة صامتتين ، ثم استأنفت شيانغ يوى سؤالها :

ــ يا اختاه ، أ حقا انت وهو ...

ــ هراء !

ــ على كل حال لا تكونى عجولة !

ــ فيما اعتقد ان اسرته لا بأس بها .

ــ اختاه ، لا تكونى قصيرة النظر ؟؟؟

ــ انت جامعية على اية حال ، فكيف لك ان تنزلى الى مستوانا !

ادركت شيانغ يوى فورا ما فصل بينهما ، فضمت اختها اليها ، وهزتها قائلة :

ــ كيف تقولين ذلك ؟ ! لقد عدت منذ يومين ، ولكنك لم تناديني بكلمة (يا اختى) ولو مرة واحدة . ألهذا الحد تكرهيننى ؟!

تحدرت من مآقى قاى وا عبرات ، اسندت رأسها على شيانغ يوى كما كانت تفعل عندما تتعرض لظلم فى المدرسة . فرفعت شيانغ يوى رأس اختها ، وقبلت وجهها المخضل بالدموع قائلة :

ــ يا اختاه ، عرفت ان حياتك لم تكن على ما يرام ،

وانى لم اهتم بك . . .

كانت قاى وا صامتة ساكنة ، لكن عينيها تسحان دمعا مدرارا ، يتحدر على صفحة خديها اللذين اصبحا خشنين لكثرة ما لفحتهما الرياح والامطار واشعة الشمس . فذاب قلب شيانغ يوى مع دموع اختها . لقد قرأت عن الفلاحين فى التاريخ . لماذا لا تأتى الى الحقول لتعايشهم عن كثب ، ولا سيما الشباب منهم ، لتتعرف احوال معيشتهم واسلوب تفكيرهم وطريقتهم فى الحياة ؟

وسمعتا بغتة زقزقة العصافير . وارتفع من القرية والغابة والحقول ضباب كثيف ، لفعهما وادخلهما الى عالم غامض . لقد انبلج الصبح .

وكان من غير المتوقع ان تنام قاى وا دون ان تغلق الباب على نفسها هذه المرة . لقد تناولت الطعام ، وقامت بالشؤون المنزلية كالعادة باستثناء العمل فى الحقول والتحدث مع غيرها . وارتسم على محياها سيماء الجمود : وبدت كأنها منعزلة عن العالم . وارتفع مرة اخرى سور عال فصل بين الاختين ، فألم بشيانغ يوى الحزن والكآبة . لم يعد بوسعها الآن لوم اختها الصغرى ، فالبون بين مكانتيهما فى الاسرة واسع جدا ، والمعاملة المميزة التى تلقتها من افراد الاسرة جعلتها تشعر بالخجل ، فعقدت العزم على بذل اقصى جهدها فى العمل تعويضا عما تحس به من وخز الضمير .

ولكن قدرتها على العمل اقل من قدرة اخيها جين تشنغ وغيره بكثير . فمنذ يومين شديدى الحر وهو يعمل فى البيدر لتشميس

القمح وجمعه وشحنه ونقله الى البيت بالعربة كرجل مكتمل الرجولة .

فى المساء لم يعد الوالدان ، فقد رأت شيانغ يوى باب الغرفة الغربية نصف مفتوح ، وجين تشنغ واقفا عند الباب ، احدى قدميه داخل الغرفة ، والاخرى خارجها ، يكلم قاى وا بصوت خفيض . وسمعت قاى وا تقول :

ـ كم تريد ؟

ـ سبعة يوانات .

ـ هل ستستمر فى معاشرتهم ؟!

دهشت شيانغ يوى مما رأت . فبعد خروج جين تشنغ من البوابة قصدت قاى وا سائلة :

ـ أطلب منك نقودا ؟

ـ نعم ، ليرد ديون المقامرة .

ـ أويلعب القمار ؟

ـ امثاله فى القرية كلهم هكذا !

الآن ادركت شيانغ يوى الحقيقة . فليلة امس لم يكن فى بيدر القمح ، بل ذهب الى القمار . ولكن الام وارت الامر بحجة انه كان يلعب الشطرنج . فقالت فى حنق :

ـ لم دللتموه هكذا ؟

لم تنبس قاى وا ببنت شفة ، بل ألقت نظرة عليها ، ثم اغلقت الباب . مكثت شيانغ يوى فى الفناء مدة غير قصيرة ، تعتصر قلبها الحيرة والحسرة . لماذا لم تستطع فهم ما عبرت

عنه نظرات قاى وا من المعانى . ولماذا صارت قاى وا وجين تشنغ على هذه الدرجة من الالفة ، ولم يكونا متقاربى المزاج فى الماضى . بينما اصبحت هى دخيلة عليهما .

اعتلجت هذه الافكار والخواطر فى ذهنها فازدادت حزنا وكآبة ، وألفت قلبها يرزح تحت وطأة الهموم . كان بيتهم الضيق مملوءا بالغرائر الكتانية المنتفخة والاكياس القماشية الممتلئة، فلا مجال لوضع القدم . وكانت الفئران تختال على كومة الحبوب ، ويتبختر الدجاج والبط فى كل مكان ، وقد انتفخت حويصلاتهما . كان الحصاد وافرا والحبوب اكثر من المتوقع . ولكن ذلك كله لم يخفف من الحزن والقلق المخيمين على وجوه افراد الاسرة .

لم يكن سير حصاد القمح ودراسته بطيئا فى اسرتهم . ولكن بعد تشميس القمح مدة يومين وجدوا ان الاسر " خارج بوابة شجرة الاكاسيا " قد باعت حبوبها . كان قو شنغ ، امين فرع الحرب فى فيلق الانتاج ، يسكن تحت شجرة اكاسيا ، لذلك سمى الناس الاسر الثلاث التى تربطها به صلة قرابة " الاسر خارج بوابة شجرة الاكاسيا " . واعتادت الاسر الفلاحية ان تتصرف كهذه الاسر . وقيل ان قو شنغ وحده قد باع ٢٥٠٠ كيلوغرام من حبوب الدرجة الاولى والفئة الاولى . وهذا ما اقلق الوالدين وسرهما كذلك . اذ انهما طلبا من قو شنغ ان يغير لهم بذور القمح فى السنة الماضية . وعلى الرغم من انهما لا يتوقعان ان يكون قمحهم من نفس الدرجة ونفس الفئة كقمح قو شنغ ، الا انهما واثقان من انه سيكون من الدرجة الثانية والفئة الثانية ،

وهذه درجة وسطى من بين الدرجات التسع للفئات الثلاث .

كان الوالدان فى غاية الدقة . وعند تشميس القمح بسطاه على نحو متساو لتشكيل طبقة رقيقة ، وراحا يقلبانه بين حين وآخر بالمساحى الخشبية . وبعد ظهر اليوم الثانى دعى خمسة خبراء لفحص القمح . فبسطوا حبات القمح فى اكفهم ، وحركوها باهتمام مثل مختبرى الحبوب . ووضعوا حبة تلو حبة فى افواههم ، ومضغوها باهتمام وهم يطرفون اعينهم . ثم فتحوا اكفهم وضربوا كفا بكف وقالوا :

ــ مقبول .

اما الوالد فقد ظل غير مطمئن لأنه خشى ألا يمر القمح بالفحص . ولو حدث هذا اضطر الى اعادته . وفى وقت مثل هذا كان هناك اعمال كثيرة مثل بذر بذور الدخن واللوبيا والسمسم وفول الصويا والعناية بشتلات القطن . لذا ذهب الى قو شنغ ، بعد ان اخذ معه علبة سجائر ، يطلب منه ان يفحص القمح على سبيل الحيطة .

كان قو شنغ انيسا لطيفا ميالا لمساعدة غيره . فأخذ حبات القمح ووضعها فى فمه ، ومضغها ثم قال مبتسما :

ــ انه جاف جدا ، وانه مقبول فى رأيى .

وعندما جمعوا القمح سأل قو شنغ بلا مبالاة :

ــ كم كيلوغراما يحق لكم ان تبيعوا ؟

ــ هل هناك كمية مقررة ؟

ــ يا عم لاو دوى ، ألا تعرف ان بيع الحبوب منذ اليوم

بالتصريح الكتابى ، والتصريحات قد وزعت على الفرق . فاطلبها بسرعة .

– ألا تعرف كم كيلوغرام يسمح لفرقتنا ان تبيع ؟

– ما مجمله ثلاثة آلاف كيلوغرام .

ما ان سمع جين تشنغ ذلك حتى صرخ :

– ثلاثة آلاف كيلوغرام فقط ، وفى فرقتنا اكثر من عشرين اسرة !

فقال قو شنغ متأسفا :

– آه ، كان من الافضل ان تبيعوه مبكرين . الدولة الآن تعانى من صعوبة . فالمخازن مملوءة ، ولا حول ولا قوة .

وعندما رأى القلق يرتسم على وجوههم نصحهم بصوت خافت :

– اطلبوا المساعدة من دا قو ، فابن خالته مختبر الحبوب . قد يكون عنده حل .

ومن اجل الحصول على التصريح الكتابى تجول الوالدان هنا وهناك من المساء حتى منتصف الليل . وشاورا رئيس الفرقة اولا ، فأعطاهما تصريحا ببيع ١٢٥ كيلوغراما ، وذلك حسب مساحة الاراضى المزروعة . وكان الرئيس طيب القلب ، فأخبرهما اشفاقا على وضعهما بأن بعض الاسر الساكنة خارج البوابة الشمالية لا تهتم بهذه التصريحات ، اذ ان لها طرقا خاصة لبيع الحبوب . فقصدا هذه الاسر يشاورانها ، وحصلا اخيرا على تصريحات ببيع ٤٠٠ كيلوغرام من الحبوب . وتجاوز الوقت الحادية عشرة ليلا ، ولم يتناولا الطعام بعد .

وعندما اخذ الوالد الطاسة لتناول الطعام اشرقت ابتسامة على وجهه لأول مرة منذ يومين ، كأنه قد انتهى من قيادة معركة متفاوتة القوى . وقد رضى بالنتائج على الرغم من انها لم تكن عظيمة .

ولكن الجدة ضربت الارض بعكازها ونظرت شزرا الى ابنها وزوجته ، وهى تتمتم قائلة :

ـ لا ادرى لماذا تحاولون بكل وسيلة بيع الحبوب . لو بعتم كل الحبوب ، فماذا ستأكلون فى سنة المجاعة ؟

اثار كلام الجدة غضب ابنها فقال :

ـ هل تعرفين كم عندنا من الحبوب ؟ فى المخزن ٥ر٢ طن ما عدا القمح الفائض من السنة الماضية . اذا لم نبعها ، فهل تأكلينها كلها دفعة واحدة ؟

واخذ المغرفة ليغرف الطعام ، ثم ضرب بها جانب القدر واضاف يقول :

ـ اذا لم نبعها ، فمن اين نحصل على النقود لندفع حصتنا من رواتب الكوادر وادارة مكتبهم وحرس الغابة ومدرسى المدرسة وحصتنا من تكلفة ترميم الطرق وادارة المدرسة والرسوم . . . وفى السنة المنصرمة لم نقدم حصتنا من المواشى والبيض .

فقالت شيانغ يوى مذهولة :

ـ سندفع كل ذلك ؟

ـ اذا لم نقدم حصتنا من المواشى والبيض ، اشتراها الفيلق بدلا منا . واذا لم ندفع ، فمن سيدفع بدلا منا ؟

واسترسل الوالد فى حديثه قائلا :

— وهناك نوع آخر من تقسيم الحصص على مستوى الناحية ، مثل مبيدات الفئران والاغطية البلاستيكية وغير ذلك ، وكلها بأسعار غالية ! ...

ضربت الوالدة الطاسة بعود الاكل بخفة وقالت :

— يكفى ! اذا انهارت السماء ، فلن تكسر اسرتنا وحدها . لا داعى للغضب . اذا بعنا ٣٥٠ كيلوغراما من الحبوب ، فسنحصل على ما يكفى من النقود لدفع الرسوم الزراعية والحصص الاخرى الموزعة علينا . من الخير ان نعتبر اننا لم نحصد هذه الحبوب . فى السنوات السابقة لم نجد ما نأكله ، ومع ذلك اجتزناها ، فينبغى لنا ان نكون راضين . ارجو ان نستطيع بيع بعض الحبوب بأسعار اعلى قليلا من الاسعار الرسمية . بعض الناس يشترى الحبوب من السوق ، ثم يبيعها للدولة . آه ! لم نحصل الا على تصريح ببيع ٤٠٠ كيلوغرام .

وعندئذ اقتحمت قاى وا الغرفة ، ووضعت ورقة صغيرة على الموقد ، وقالت وظهرها للجميع :

— بعد بيع الحبوب اشتروا للجدة كفنا ، واعطوا جين تشنغ ثلاثين يوانا تكلفة دراسة ليذاكر دروسه .

وخرجت دون التفاتة .

تناولت شيانغ يوى تلك الورقة ، فاذا بها تصريحات ببيع الحبوب مضروبة على الآلة الكاتبة . وهى اربعة تصريحات متصلة ، وكل منها من فئة ٢٥٠ كيلوغراما . تناول جين تشنغ التصريحات ، وقلبها فى يده ، ونظر الى ابويه نظرة ذات معنى وقال :

ـ نحتاج غدا الى ثلاث عربات .

انكب الوالد على الاكل ، واعتقدت شيانغ يوى ان هذه التصريحات قد ارسلها دا قو . ولكن ما من احد يرغب فى ذكر اسمه فى هذا الوقت .

امرت الوالدة قائلة :

ـ اشبعوا ، وخذوا معكم بعض الخبز . هيا انستعير العربات ونشحنها !

حدق جين تشنغ اليها ، وقال :

ـ أنشحنها الآن ؟

وضع الوالد طاسته على الموقد ، وزمجر قائلا :

ـ أتعتبر الوقت مبكرا ؟ امامنا اكثر من خمسة كيلومترات . اخشى ان يكون فى محطة شراء الحبوب الآن كثير من العربات .

لم يتم شحن العربات بثلاثين كيسا الا بعد منتصف الليل . ولكن قاى وا لم تظهر بعد . فتقرر ان يقود كل من الوالد والابن عربة واحدة وتقود شيانغ يوى وامها معا عربة اخرى . ولم تكن القرية بعيدة عن الطريق العام ، فيصل بينهما طريق ترابى يمتد ثلاثة كيلومترات ، ويجتاز خندقا واحدا .

حين بدأت العربات تتحرك خرجت قاى وا من الغرفة ، واخذت مقبضى العربة من يد شيانغ يوى ، وقالت لأمها بحزم :

ـ ارجعى انت !

بقيت الام لحظة لا تتحرك . ثم بحثت فى وسطها ، واخرجت

شيئا ، وقالت لقاى وا :

ـ هذه نقود ! انك لم تتناولى الطعام . اشترى ما تحبينه فى البلدة :

لكن قاى وا لم تتناول النقود ، بل جرت العربة وقالت لأمها :

ـ ارجعى انت !

تخبطت العربات فى الطريق القروية الوعرة ، وترامى من مخرج القرية صوت الوالدة الضعيف :

ـ يا قاى وا ، اطلبى من ابيك الا يشاجر مختبر الحبوب .

ارتفع السديم الابيض الليلى امامهم . كان القمر باهتا ينير الحقول الواسعة بنوره الشاحب . واهتزت الاشجار والاعشاب ، فاهتزت ظلالها ايضا . وسار الجميع صامتين . وادركت شيانغ يوى ان قلوبهم جميعا مفعمة بالسرور . تنسمت الريح الليلية فابتردت وجنتاها ، وتدريجيا جف العرق المتصبب من جراء شحن العربات ، وانشرح صدرها ، واختفى قلقها ومللها .

لم تكن تتصور قط ان وريقة مضروبة على الآلة الكاتبة ستجلب لأسرة فلاحية كل هذا السرور العظيم . ولكنها ادركت الآن ان هذه الوريقة اثمن من الاشعار بقبول طالبة فى الدراسات العليا ، اذ انها اعادت العزة النفسية لهذه الاسرة ، وخلصتها من الشعور بالذل نتيجة اخفاقها فى بيع الحبوب . وعندها احست بأنه من غير المناسب ان تتظلم امام اهلها من الجور فى توزيع العمل والقبول فى الدراسات العليا . كانت الارض فى مسقط رأسها خضراء خصبة ، فراحت تخاطب نفسها : يا شيانغ يوى ، لقد ربتك

هذه الارض بحب وتسامح ، ووهبتك كل ما لديها ، بينما لم تطلب منك شيئا مطلقا . نظرت اليك بصمت ، وتوددت اليك ، واحبتك ، بينما لم تبد ما تنتظره من الآمال والامانى . انكببت على الدراسة ليلا ، ولكن هل فكرت فى الهدف من ذلك ؟ اذا كان ذلك من اجل " المستقبل " الشخصى ، فان اطروحتك قد نبذت الارض تحت قدميك .

– الحبل !

مع صيحة قاى وا هذه سقط الحبل عن كتفها الى تحت عجلة العربة ، والتف بسرعة حول المحور ، فانزلقت العربة على المنحدر الطويل ، ولم تتوقف الا عند اسفل المنحدر .

اخرجت قاى وا الحبل من تحت العربة ، ورمت به الى شيانغ يوى ، وقالت فى غضب :

– شدى الحبل ! لماذا ارخيته ؟

وعندما اجتازوا الخندق الموحل ، ساعد الاربعة بعضهم بعضا على دفع العربات عربة عربة . كان الحبل مشدودا ، فتقوس ظهر قاى وا حتى كاد يلامس رأسها الارض . وشبرا بعد شبر دفعوا العربات واحدة تلو الاخرى من اسفل المنحدر الى اعلاه عن طريق شد الحبل ودفع العجلة والحاجز الجانبى ، وما من احد شعر بصعوبة السير . ثم استراحوا بضع دقائق فى الطريق العام ، يمسحون عرقهم ويتحدثون . وحفت اشجار الحور المنتصبة على جانبى الطريق . ومزقت اضواء القمر ، فسقطت على الاكياس الملأى بالحبوب بقعا . وكان الشىء الوحيد الذى افسد بدويه ذلك

الهدوء هو صوت الجرارات وجلبة العربات فى الطريق .

ـ هيا بنا ، فالوقت لا يتسع .

سعل الوالد ووضع الحبل على كتفه ، ومد عنقه ، وتقدم بخطى واسعة مع عربته على الطريق العام المستوى المفروش بالاحجار والرمال .

اشتد الظلام ، وانتقل القمر الى الغرب ، وبدأ الديك يصيح فى القرى قرب الطريق العام .

فى الساعة الرابعة والنصف صباحا وصلوا الى محطة شراء الحبوب . وهناك روعهم المشهد . صحيح انهم تصوروا المحطة مزدحمة ، لكن لم يخطر ببالهم ان يجدوا صفوف الجرارات وعربات الخيل وعربات اليد قد ملأت الطريق امام المحطة ، ثم انعطفت لتمتد الى الطريق العام مسافة نصف كيلومتر . لقد انعدم النظام هناك ، فالناس حاولوا التقدم الى الامام بعرباتهم بكل وسيلة ممكنة . وقد اختفى القمر وكذلك النجوم . وفى ظلام الفجر ومضت نقط حمراء هنا وهنالك . كان الناس يدخنون ويثرثرون ويشتمون ويتذمرون ويبصقون بصوت عال . وشعروا بشىء من البرودة بعد ان جف العرق وهبت الريح . وثقلت اجفانهم ، وانحنت رؤوسهم بعد ان توقفت اقدامهم عن الحركة . وكان التعب قد نال من شيانغ يوى وجين تشنغ كل منال ، فاستبد بهما النعاس وهما مستندان على العربة .

نشط الناس فى الحديث فور وصولهم ، ولكن بعد برهة لاذوا بالصمت ، ولبثوا ينتظرون فى هدوء . الا ان القلق كان يداهمهم

بين حين وآخر ، كأنهم ينتظرون على جمر . فلا غرو ان ينشب شجار حام لمجرد اصطدام محور عربة بشعاع عجلة لعربة اخرى .

سار الوقت بطيئا كأنه النمل يدب على قلوب الناس . وانبلج الصبح ، الا ان الشمس تأخرت عن الطلوع . وارتفع دخان المواقد فى القرى شيئا فشيئا ، ثم اختفى تدريجيا . وظلت صفوف العربات ساكنة دون حراك ، وبقى الناس متكئين على عرباتهم . وكان الشيء الذى يواسيهم هو ازدياد العربات وامتداد الصفوف وراءهم .

احست شيانغ يوى كأنها فى حلم ، فلم تعرف متى طلعت الشمس . ان كافة العربات والمواشى والناس يستحمون فى اضواء الشمس ، ويشكلون مشهدا رائعا . اللون باهر واضح ، لكن شعورا مشوبا بالغموض ما زال يغالبها .

— ويل له ! حل الضحى ، والباب لم يفتح بعد ؟

عندما سمعت شيانغ يوى تذمر غيرها ، نظرت الى ساعة يدها واجابت قائلة :

— الساعة التاسعة الآن . لم لم تتحرك الصفوف بعد ؟

سرى السخط فى نفوس الجميع ، ولكن تعابير وجوههم ظلت جامدة ، اذ ان الصفوف فى غاية الطول والازدحام ، فما من احد حاول ان يستطلع ماذا يجرى فى الامام . وكثرت الاسئلة التى تطرح بين حين وحين ، الا انها لم تجد اجوبة قط . وهذا اثار الانزعاج والاضطراب لدى المزيد من الناس .

اسندت قاى وا جنبها الى كيس الحبوب ساكنة صامتة ،

وكان شعرها مشعثا ، ووجهها يغطيه التراب .

شعرت شيانغ يوى بحمو اشعة الشمس ، وتحملت تطاير الغبار والضوضاء ورائحة فضلات المواشى وكذلك العطش والجوع ، ولكن ما اقلقها هو النظرات التى راح الناس يرمقونها بها عمدا ومن غير عمد . لقد ادركت ان لبسها وتصرفها لا يناسب اذواقهم ، فساورها شعور قوى بالوحدة . كان الذين يتحركون امامها هم الفلاحون الشباع المعافون ، الذين يتركون ملابسهم غير مزررة . اما الشباب منهم فقد اندفعوا هنا وهنالك فى غير لباقة ، يطلقون النكات فى صوت مرتفع ، او يرسلون الشتائم الوقحة عن قصد . فاشتاقت على حين غرة الى مدرستها ، الى حديقتها الخضراء الهادئة حيث كانت تقضى الصباح الهادئ والمساء الساكن ، وتأخذ راتبها فى اليوم الخامس من كل شهر . واذا بذلت اقصى جهودها فى التدريس ، فلا بد ان تجيده ، وتتلقى احترام الطلاب واعجاب المدير . واكتشفت فجأة انها هى الاخرى قد سلكت فلسفة الحياة نفسها التى يتبعها ذلك المحرر المتواضع فى محطة الاذاعة الصغيرة . وعندما لم تبد اهتمامها بفلسفة الوسط ، اجابها بقوله : " ان عمل التحرير المتواضع بحاجة الى من يقوم به . وان اجادته من متطلبات المجتمع . "

— هيا ! هيا !

ولعب هذا النداء دور الريح فى بحر الناس ، فأثار تموجا جياشا وتدافعا من الوراء الى الامام . لقد هاج الناس ، وحركوا عرباتهم ، ومدوا اعناقهم بتشوق يرسلون انظارهم الى الامام .

لم تتحرك العربات بعد هذا الاضطراب ، الا ان الامل قد شجع الناس فافعموا بالحيوية . وما ان تنشطت اعصابهم الخدرة حتى شعروا بالاضطراب والقلق لهذا التوقف عن السير . فتلفتوا يمنة ويسرة وتطلعوا الى عنان السماء . كانت الشمس ثابتة فوق رؤوسهم ، يقدح قرصها نارا تلظى ، وترسل اشعتها المتأججة فتبخر العرق عن اجسام الناس الذين اصبحوا من فرط اعيائهم كالسكارى .

ثم مالت الشمس الى الغرب ، واخذت تغرب تدريجيا . وارتفع القمر ، وخيم على الحقول سديم خفيف . وقد محا الغسق علائم التعب عن وجوه الناس ، ثم اختفى آخر بصيص من الضوء، وازدادت الظلمة ، وجن الليل الطويل . كيف قاوم الناس التعب بعد منتصف الليل ، وكيف مروا بالفجر البارد ، لا احد يدرى . وقبل انبلاج الصبح نكس الناس رؤوسهم يقاومون آخر نعاس فى الليل .

طلعت الشمس مرة اخرى ، وارتفعت تدريجيا عن سطح مخزن الحبوب ، وثبتت فى السماء كاليوم السابق مرسلة اشعتها المتأججة .

لم تعد شيانغ يوى تنظر الى ساعة يدها ، فالساعة لا قيمة لها الآن ، بل خلال يومين لم تشعر بحاجة الى التوقيت . لقد بدأ التوقيت فى مخيلة شيانغ يوى منذ ظهر مختبر الحبوب امام عربات اسرتها .

ادخل قضيب حديدى طويل رقيق الى احد الاكياس ، والسكون يخيم على ما حول العربة . حدق الوالد الى وجه المختبر ذى الجبين البارز والحاجبين المرتفعى الطرف والفم المفتوح قليلا ،

وراقبه يخرج حبات القمح بالقضيب ويضعها على راحة يده ويحركها ويرمى بعضها الى فمه . صمت المختبر دون ان تظهر على وجهه اية علامة من علامات الحكم على السرور او الشؤم . مضغ الحبات قليلا ، ثم بصقها ، واخرج من جيبه قطعة من الطبشور الاحمر ورسم بها عدة صلبان على الكيس فى شكل جميل وهيئة طبيعية .

ارتبك الوالد وفقد السيطرة على نفسه ، وهرول اليه ، ولكن قدمه اصطدمت بمؤخر العربة وكاد يقع . وحين استدار المختبر اخذ الوالد بذراعه سائلا :

ـ يا رفيق ! أهذا القمح رطب ؟

رمق المختبر الوالد ، ودفع يده دون ان يتفوه بكلمة ، ثم استدار ثانية .

ـ يا رفيق ! افحص القمح مرة اخرى ! لقد شمسناه يومين كاملين ، وفرشناه فى طبقة رقيقة جدا .

لم يعره المختبر ادنى التفاتة ، بل ادخل القضيب الحديدى فى كيس لأسرة اخرى .

وقف الوالد دون حراك ، وبدا وجهه شديد الشحوب بعد ان كان شديد الحمرة . اخذ طرف الكيس بيد ، ومد اليد الاخرى الى الامام . والعرق يقطر من جبينه المجعد .

غضبت شيانغ يوى من موقف المختبر ، فذهبت اليه ، وقالت فى غضب :

ـ يا رفيق ! ما رأيك فى هذا القمح ؟

— فى حاجة الى التشميس !

— يا رفيق ! ...

نوت شيانغ يوى ان توضح له ، ولكنها لم تجد ما تقوله .

وفى ذلك الوقت صاح احد الناس فى العربة وراءهم :

— ما دام القمح غير مقبول ، فخذوه للتشميس . ان الرفيق لن يظلمكم .

ثم ضحك وهو ينظر الى المختبر .

وتلفت الوالد حوله فى ارتباك راجيا ان يحصل على العطف من الناس ، لكنه اكتشف ان العطف قد مات عندهم ، فالجميع يصيحون :

— ما دام غير مقبول فعد به . لا تؤخر غيرك !

لم يتشاجر الوالد السيئ المزاج مع احد ، بل ربط فتحة الكيس فى صمت ، وثبت الاكياس فى العربة بالحبل مطأطئ الرأس كامرأة خجلة ، واعتذر لمن بجانبه قائلا :

— افسحوا الطريق من فضلكم لأخرج العربة .

مضى وقت غير قصير قبل مغادرتهم هذه الصفوف المزدحمة . وقد اعتذروا لمن حولهم ، ولكن ظلوا يعاملون بازدراء . وامام هذا الجموع من الناس اعادوا عرباتهم المحمولة ناكسى الرؤوس خجلين مكتئبين .

حل الغسق مرة اخرى وترامى من الحقول الضبابية رنين اجراس المحاريث . اوقف الوالد عربته وجلس القرفصاء قبالة الجانب الخارجى للطريق العام . وضع يده اليسرى على صدره ، واخرج

بيده اليمنى سيجارة ، وراح يدخن . سحب منها نفسا طويلا ، وسعل بعد ذلك سعالا شديدا متتاليا .

اوقف الجميع عرباتهم . واخذ جين تشنغ يتجول بجانب الطريق . ووقفت قاى وا فى هدوء بين مقبضى العربة واضعة ذراعيها عليهما وحبل الجر يتدلى من على كتفها وقدماها متشابكتان . ما كان هناك تأوه ولا كلام . لقد كان بقاؤهم فى العراء يومين كاملين بمثابة سنة كاملة ، يقضونها متجولين خارج البيت . فصاروا مشعثى الشعر متسخى الوجوه مكتئبى النفوس .

وجلست شيانغ يوى على كومة من الرمال والاحجار ، ترسل نظراتها الى الاراضى الممتدة امامها . كانت القرى والاشجار تبدو كأنها مغمورة بستار السماء الرمادى الفاتح . اما الطيور العائدة فقد بدت كأنها نقاط سوداء غامضة تنتشر فى القبة الفسيحة . منذ يومين كانت ذاكرتها مثل شاشة التلفزيون الخالية من اى شيء . ولكن النسيم الليلى انعش ذاكرتها ، فعدت بأصابع يدها الايام التى مضت على تركها المدرسة . واكتشفت فى عجب ان الغد سيكون اليوم الثامن . لقد اشتاقت الى مدرستها اشتياقا شديدا ، وفكرت فى عملها وكيف ستلقى خطابا مفعما بالعواطف الحارة للطلاب . ان لها مجالها الخاص ، شأنها فى ذلك شأن السمك الذى له مياهه الخاصة . فى المدرسة لن تكون شخصا ثانويا لا قيمة له . وفجأة ظهر فى مخيلتها ذلك المحرر المتواضع ، واعتلجت فى جوانحها عواطف لم يسبق لها مثيل . " لقد قضيت ستا وعشرين سنة ! انى بحاجة الى حب شديد من

رجل مخلص . "

وبينما هم كذلك قصدهم جرار من جهة البلدة . كان النور المنبعث من المصباحين فى مقدمه يشق السديم المسائى مما جعل الليل دامسا ثقيل الوطأة . خفض الجرار سرعته قريبا منهم ، وتوقف بجانب الطريق العام ، ولكن المحرك ظل يدوى .

رأت شيانغ يوى دا قو وشياو وو يثبان من الجرار . تردد شياو وو قليلا ، ثم وقف فى ظل الجرار ، وارسل نظره اليهم فى صمت . اما دا قو فقد قصدهم يحث الخطى ، وهو يصيح فى غير اكتراث :

ـ ماذا بكم ؟ أ لم يكن القمح مقبولا ؟

ولم يجبه احد ، فاستمر يصيح :

ـ لماذا لم تذهبوا الى المخزن الشرقى ؟ لقد اخبرت الاخت قاى وا بذلك ! تعالوا واشحنوا الجرار . سأبيع انا بدلا منكم . يا شياو وو ادر الجرار !

ادار شياو وو اتجاه الجرار كما طلب اخوه .

بقى الوالد جالسا القرفصاء دون حراك ، ولم تتحرك قاى وا ، لكن جين تشنغ نادى :

ـ يا ابى ...

عندئذ وقف شياو وو وقاى وا متواجهين ومقدم الجرار بينهما . وعلى الرغم من انهما كانا واقفين فى الظل ، الا ان شيانغ يوى رأت بريقا فى عينى اختها ، وهى تنظر الى وجه شياو وو فى شوق شديد . كانت عيناها تقطران حزنا وتذمرا . لم تكن شيانغ يوى

تدرى ان عينى اختها مثيرتان كل هذه الاثارة . وتحت تأثير نظراتها ارتبك شياو وو . وحاول رفع رأسه مرتين ، لكنه اخفق ، فطأطأ رأسه كأنما يفحص عجلات الجرار .

نهض الوالد ببطء وقال متمهلا :

— لن نبيع هذا القمح !

فقال دا قو مأخوذا :

— لن تبيعوه ؟

— هناك فرق بسيط وهو بضعة فنات فى الكيلوغرام الواحد . اذن سأبيعه فى السوق .

فقد جين تشنغ صبره ، وقال :

— يا ابى ! ان فى خمسمائة كيلوغرام فرقا يصل الى عشرات اليوانات !

— هناك اعمال كثيرة فى الحقول ، والوقت لا ينتظرنا . لو تأخرنا عن بذر بذور الدخن واللوبيا ، فذلك سيؤثر فى الحصاد .

لم يرض جين تشنغ بما قاله ابوه فصاح :

— يا ابى !

فكت قاى وا الحبال التى ثبتت اكياس الحبوب دون ان تنبس بكلمة ، ثم نادت شياو وو قائلة :

— تعال وساعدنى !

هرول دا قو اليها ، وانحنى وحمل الكيس على ظهره ، ووضعه على الجرار .

فوثب الوالد على حين غرة ، وامسك بزاوية الكيس ، وزمجر

قائلا :

– ضعه ! لقد قلت لن نبيع القمح !

ازداد الوالد ثباتا فى موقفه ، بينما لم تتراجع ابنته قاى وا مطلقا . وبين الدفع والشد سقط الكيس على الارض وانشق ، فانتشرت حبات القمح الذهبية على الطريق العام .

لهث الوالد لهاثا شديدا ، ويداه تسندان خاصرتيه ، وزمجر فى وجه دا قو وشياو وو بأقصى ما يستطيع :

– اخرجا من هنا ! . . .

فقال له دا قو :

– يا عم لاو دوى ، ما هذا ؟ اننا نعمل لصالحكم ، وليس لاغضابكم . لا داعى لهذا كله .

ثم لوح بيده لأخيه قائلا :

– هيا ، هيا بنا !

وعندما تحول اتجاه الجرار صاحت قاى وا :

– يا شياو وو ، سأعود بجراركم !

لم ينبس شياو وو ببنت شفة . وحاولت قاى وا الصعود الى الجرار ، فجرها جين تشنغ بذراعها قائلا :

– يا اختاه ! يا اختاه !

وعندما رأت قاى وا دموع اخيها تسيل على وجنتيه ، ارخت يديها الممسكتين بالجرار تاركة اخيها يجرها . ووقفت وسط الطريق فى غضب شديد .

فتحرك الجرار .

اخذت قاى وا تهتز فى العربة مع اهتزاز الجرار ، وتدفع عن نفسها الاغصان التى تصدمها بينما الجرار منطلق فى الطريق الريفية . ثم ادارت رأسها الى الوراء ، ولوحت بيدها لشيانغ يوى ، وقالت فى سرور :

— يا اختاه ، لن اودعك عند مغادرتك !

وعاد السكون الى الفناء ، واعتقدت شيانغ يوى انه لا بد ان يكون هناك سبب ما وراء سرور اختها .

وفجأة رأت دا قو معتمدا فى تكاسل على شجرة الاكاسيا المنتصبة فى الجانب المواجه للطريق ، وقد اكفهر وجهه كأنه مصاب بالملاريا . فسألته فى عجب :

— يا اخى دا قو ، أ لم تخرج معهم ؟

فأجاب دا قو ، وآثار الدموع بادية على وجهه النحيف :

— انهما ذاهبان ، ذاهبان الى مقاطعة هوبى .

— أ تقصد شياو وو ؟

— بذلت اقصى جهودى فى العمل . وبلغت الآن الثلاثين . هل هذا امر هين ؟ . . .

تجول جين تشنغ عند البوابة واضعا يديه فى جيبيه ، وراح يصفر . فاعتقدت شيانغ يوى انه يعرف كل شىء ، فسألته فى صرامة :

— يا جين تشنغ ، هل اختك ذاهبة الى هوبى حقا ؟

— نعم .

— انهما . . .

— انهما ذاهبان لمزاولة التجارة .

— والقمح . . .

— القمح سيباع هناك ، وهنالك . . .

— هل تعرف اى نوع من التجارة سيزاولان ؟

— انهما يتاجران بفول الصويا والارز وغير ذلك .

— كيف تذهب وحدها مع شاب ؟

تأوه دا قو وقال :

— يا اختاه اقول لك الحقيقة : كانا على علاقة ودية ايام المدرسة . وكان شياو وو مترددا من اجلى . اما الآن . . .

اعتقدت شيانغ يوى ان اختها يجب ان تختار طريقا غير هذا الطريق . ولكن أليس هذا طريقا معقولا ؟ واعتملت فى نفسها ضروب متباينة من المشاعر والاحاسيس. ورأت ان الامر يجب ان يكون خلاف ذلك .

وقف دا قو هناك فى ذهول وشرود . وكان رجلا ذكيا رشيقا . ولكن وجهه قد اربد الآن ، وبدا مهزولا كأنه تقدم فى العمر عشر سنوات دفعة واحدة . وكشفت على حين غرة ان جبينه مغضن وعينيه غائرتان ، وكتفيه ما يزالان قويين . عندها فقط اكتشفت مكانة قاى وا من نفس هذا الرجل .

انطلق الجرار فى الطريق العام جهة الجنوب . ورقدت قاى وا على ظهرها فى ثغرة بين الاكياس . وارسلت الشمس اشعتها

الى وجهها النضر . وبدا شعرها كسحائب تتكدس على اكياس القمح ، وامتد جسمها القوى ، واخذت عضلاتها تهتز مع اهتزاز الجرار ، وهى مفعمة بحيوية الشباب .

كان الجو صافيا والنسيم دافئا فى الحقول . واوراق الاشجار تتراقص فوقها كطيور خضراء الاجنحة .

اغمضت قاى وا عينيها فى هدوء ، ورفت على شفتيها ابتسامة . لعل والدها الآن يبذر بذور اللوبيا . سيكون الحصاد الخريفى وافرا ، وسيكون بيع الحبوب والقطن اكثر صعوبة .

كلمة عن المؤلف



تيان تشونغ خه .. اسمه الاصلى تشانغ تشى هوا .. ولد عام ١٩٤١ من اسرة مدنية فى محافظة تاننغخه بمقاطعة خنان . وتخرج فى قسم اللغة الصينية بجامعة لانتشو .

شرع يعمل على ابداع الاعمال الادبية فى عام ١٩٥٦ ، ونشر اول قصيدة طويلة له عام ١٩٥٩ . وخلال " الثورة الثقافية " زج به فى السجن ظلما . ثم عمل فى بعض المصانع مؤقتا ، وتشرد فى الريف بحثا عن الرزق مدة طويلة . وبعد ان رد اليه الاعتبار قبل فى دار الثقافة بمحافظة تاننغخه ، حيث اخذ يكتب القصص .

منذ عام ١٩٨٣ راح ينشر قصصه وروايانه ، وبلغ عددها اكثر

من مائة . وقد فازت قصته « مايو – موسم حصاد القمح » بجائزة وطنية للقصص القصيرة الممتازة فى عامى ١٩٨٥ و١٩٨٦ ، كما فازت بجوائز متعددة من مجلة « آداب شانشى » ومجلة « السهل المعشوشب » ومجلة « التيار العارم » .

ويعمل اليوم كاتبا محترفا ونائبا لرئيس دائرة الابداع الادبى فى اتحاد الادباء بمقاطعة خنان .

صاحب الاصوات الكاملة

تشياو ديان يون

تحول الفيلق الى قرية . وعما قريب ، سيتحول رئيس الفيلق الى عمدة للقرية .

سيعقد الفيلق النموذجي خجيابينغ اجتماعا للناخبين ، ينتخبون فيه عمدة القرية . وكان رئيس الفيلق السابق خه لاو شي نموذجيا قديما ، ظل اكثر من ثلاثين سنة اول من يقدم على الاعمال الشاقة وآخر من يستمتع بالمكاسب . انه رجل نزيه كل النزاهة ، لم يمد يده الى شيء من املاك الفيلق ولو لعود من اعواد القمح . وعلى الرغم من تقدمه فى السن ، ظل يتحلى بالهمة العالية . وقد قطع على نفسه قبل الانتخاب عهدا بأن يحول الفيلق النموذجي الى قرية نموذجية . وعندما سمع الناخبون هذا الخبر ، وعددهم يزيد عن الالف ، فرحوا فرحا شديدا ، واتفقوا على ان ينتخبوا خه لاو شي لمنصب عمدة القرية . وبعد ان تم الانتخاب عن طريق التصويت السرى ، اعلن سكرتير فرع الحزب وانغ عدد الاصوات التى حصل عليها كل مرشح ، فلم يحصل خه لاو شي الا على صوتين اثنين . كان ذلك آخر ما يخطر على البال .

وبعد الاستماع الى الاعلان عن نتيجة التصويت ، اطرق الناخبون رؤوسهم وقد احمرت وجوههم خجلا كأنهم ارتكبوا خطيئة ، واخذ بعضهم يبكي بحرقة .

احتار خه لاو شي ، ومشى وراء السكرتير وانغ يترنح في خطوات متعثرة تعلو حينا وتهبط حينا آخر ، وهو يجر بقدميه حذاء قد بلى مؤخره من كثرة الاستعمال . أكان الوقت نهارا ام ليلا ؟ أ حدث ذلك في حلمه ام في يقظته ؟ لم يعد خه لاو شي يتبين كل هذا .

كان خه لاو شي فلاحا اجيرا في المجتمع القديم ، يستطيع اى انسان ان يأمره ، وهو يأتمر بأى انسان . لم يجرؤ على التفكير في نيل منصب ، حتى انه لم يحلم حلما رأى فيه نفسه قد اصبح صاحب منصب . ولكن ، ما لم يطمح فيه الانسان يأتيه من حيث لا يدرى . فالذى يرغب في المنصب لم ينله ، بينما ناله خه لاو شي ، وهو الذى لم يطمح فيه ابدا .

خلال حملة الاصلاح الزراعي اجتمع الاهالى ذات مرة يجرون القرعة ، ليتم عن طريقها توزيع ثمرات الاصلاح الزراعي . ولما كان خه لاو شي يدرك وضاعة مقامه ، فقد تراجع الى الوراء ذليلا ، وترك الآخرين يجرون القرعة قبله . وكانت القرعة الاخيرة المتبقية من نصيبه . ومن يدرى ان الرجل النبيل قد قدر له ان يحظى بنصيب الاسد . انه لم يزاحم او ينازع ، غير انه حصل بقرعته على بيت مبنى بالطوب وثور ممتاز . وعندما اخذ يبهج نفسه بالحظ الباسم في سره ، انفجرت حوله حرب : الذين نالوا

نصيبا سيئا طالبوا باعادة القرعة ، بينما الذين نالوا نصيبا ممتازا عارضوا ذلك بكل شدة . وكلا الطرفين لم يبد اى استعداد للتنازل ، فكاد يقع عراك كبير . لم يرض خه لاو شي عن الوضع الماثل امام عينيه ، فتنهد ، ثم قال كلمته التي هزت السماء والارض وابكت الملائكة والشياطين " اخلصوا ، لو ظللنا فى المجتمع القديم ، فلن نملك عودا من القش ، ناهيك عن البيت القشى ، ولن نملك شعرة من بقرة ، ناهيك عن العجل . لا تتنازعوا ، ابدلوا بحصتي بيتا قشيا وعجلا صغيرا . " ويا لها من كلمة اقر بها الوضع ، فبكلمته هذه اجهضت حرب اهلية كانت على وشك الوقوع . وبكلمته هذه صار خه لاو شي نموذجيا على مستوى المحافظة : وقد اصبحت كلمته هذه قولا مأثورا يحفظه كل انسان داخل المحافظة كلها عن ظهر قلب . وبكلمته هذه ، اسند اليه منصب رئيس جمعية الفلاحين . وبعد ذلك اخذ الوضع فى الريف يتغير باستمرار ، حيث تحولت جمعية الفلاحين الى "حي صغير" ، ثم تطور الى جمعية تعاونية واخيرا الى فيلق انتاجي تابع للكومونة الشعبية . وفى كل مرة يحدث فيها التغيير يجرى انتخاب ، وكل انتخاب يجرى قبله ترتيب مسبق . ولا يكاد يفهم خه لاو شي المغزى العظيم وراء تغيير اسم قديم الى اسم جديد كل مرة ، حتى تحول معها الى رئيس الحى فرئيس الجمعية فرئيس الفيلق . وقد صارت المناصب وكأنها مسبوكة فوق رأسه ، والتحمت برأسه كجسد واحد ، بحيث لن تسقط حتى ولو سقط رأسه . كما تغيرت ألقابه باستمرار . فقد كان لقبه فى اول الامر الاخ الكبير

خه شى ، ثم العم خه شى ، وصار اليوم الجد خه شى : صحيح انه اصبح شيخا الآن ، غير ان الشيخ اعظم قدرة ونفعا بخبرته الواسعة . اذ انه ليس من المعقول ان يعود الانسان ادراجه . ويعود من جديد ابنا او حفيدا لمجرد انه قد شاخ . كل الناس يقولون كذلك ، وهو يفكر كذلك ايضا . ولذلك لم يخطر بباله ابدا انه سيفقد منصبه يوما ، حتى انه لم يحلم ولو مرة حلما يرى فيه نفسه فاقدا منصبه . واليوم وقد حدث ما لم يره فى الحلم ، اذن فلا بد ان يكون حلما .

مشى خه لاو شى وراء السكرتير وانغ وكأنه يمشى فى حلمه . ووصل الى مقر الفيلق الذى تحول اليوم الى مقر حكومة القرية . المقر عبارة عن حجرة ذات صالة ، كانت تابعة لمالك ارض ، وقد صادرتها الحكومة خلال حملة الاصلاح الزراعى . الصالة كبيرة ، وضعت فى وسطها مائدة اجتماع بحجم طاولة " البينغ بونغ " . جلس الرجلان على جانبى المائدة وجها لوجه . اخذ السكرتير وانغ ينظر الى خه لاو شى ، وقد تملكه شعور غامض ، لا يستطيع ان يستبينه . لقد شاب شعر خه لاو شى كما شابت ذقنه ايضا ، وظهرت فوق وجهه تجاعيد كثيرة ، وامتلأت عيناه حيرة وألما . انه يرتدى معطفا قديما قذرا من القماش البلدى الاسود ، ويشد على خصره حبلا جلديا . لا يزال يتذكر السكرتير وانغ مذ كان صبيا فى المدرسة الابتدائية ان خه لاو شى كان يرتدى نفس المعطف ويشد على خصره نفس الحبل الجلدى . مرت سنوات طويلة ، الخمسينات ، فالستينات ، فالسبعينات ،

وظل خه لاو شي فى معطفه هذا ، لم يتغير فيه شيء سوى ازدياد عدد الرقع . نظر السكرتير وانغ الى وجهه ومعطفه ، وخطر بباله قول مأثور قديم " الشحاذ تعضه الكلاب ، والغنى يحترمه الناس "، هذا هو مقياس التعامل السائد بين الناس فى المجتمع القديم ، اما فى المجتمع الجديد ، فلا بد لنا ان نعارض ما يؤيده العدو ، فيتحول مقياس التعامل الى " الغنى تعضه الكلاب ، والشحاذ يحترمه الناس " . واذا لبس كادر رداء قذرا قديما وباليا ، فذلك دليل قاطع على انه يتحلى بالافكار الجيدة والاخلاق السامية . ومن ثم يحظى بالاولوية فى نيل عضوية الحزب والترقية . واذا لبس رداء جيدا او جديدا نسبيا ، فلا بد ان يكون قد تأثر بالافكار البرجوازية ، ان لم يكن من البرجوازيين انفسهم . واذا رغب فى الانضمام الى عضوية الحزب او الحصول على الترقية ، فلا بد ان يتمرغ فى الطين من خلال مزاولة الاعمال العضلية الشاقة ، والا فلن يجد الباب مفتوحا امامه . بيد ان خه لاو شي لم يكن يرتدى معطفه هذا لكى يحظى بالثناء او الترقية ، فهو يعتقد عن قناعة ان ملاك الاراضى والاغنياء هم وحدهم الذين يتأنقون فى ارتداء الملابس ، اما الفلاحون الاصلاء فقد خلقوا ليعيشوا حياة الفقر والشقاء ، ويجب ان يرتدوا ملابس بالية ، واذا ما ارتدوا ملابس جديدة ، فماذا يميزهم عن ملاك الاراضى والاغنياء ؟ ثم ، انه لا يملك حتى النقود التى يشترى بها ملح الطعام فى كثير من الاوقات . فلو اراد ان يتحول الى مالك ارض او غنى ، ويرتدى ملابس افضل قليلا ، فليس لديه ما يمكنه من هذا التحول .

وهو من جانبه لم يفكر ابدا فى التغيير . فى بداية الامر كان السكرتير وانغ يكن شعورا خاصا تجاه هذا المعطف الذى يرتديه خه لاو شى . ذلك لأنه قاسمه دفء هذا المعطف . ففى اوائل الخمسينات ، عندما كان السكرتير وانغ رضيعا ، كان اخوه الكبير يحمله فى حضنه خلال حضوره الاجتماعات ، وكان خه لاو شى يأخذه الى حضنه دائما ، ويلفه بهذا المعطف . مضت سنوات كثيرة وهو يعتبر خه لاو شى من جيل الثوار القديم ، ويبجل تصرفاته ، كما يبجل معطفه هذا ، ويعتبره رمزا للثورة . وبعد ان انهى دراسته الثانوية غادر القرية بضع سنوات لأداء الخدمة العسكرية . وبعد ان سرح من الجيش ، عاد وتولى منصب سكرتير فرع الحزب ، وصار زميل خه لاو شى فى العمل ، وكانت تقع بينهما دائما خلافات فى شؤون العمل . ثم حدثت حادثة غير متوقعة ، جعلت السكرتير وانغ يكن شعورا بالكره والمقت ازاء خه لاو شى ومعطفه .

ذات مرة اتفقا ان يذهبا معا لحضور اجتماع فى المحافظة ، فاتجه خه لاو شى الى بيته ينتظره حتى يذهب معه ، بينما ظل السكرتير وانغ يبدل الملابس النظيفة فى تمهل ، ثم اخذ يحلق ذقنه ويسرح شعره ، فى حين ظل خه لاو شى يكبت فى صدره غضبا عظيما ، ولم يستطع ان يتمالك نفسه فقال ممازحا وبشىء من اللوم :

— لست ذاهبا لتخطب امرأة !

ضحك السكرتير فى عدم مبالاة وقال

— على اية حال انا كادر فى الفيلق ، فلا يصح ان اسئ الى سمعة فيلقنا .

لم يقصد السكرتير شيئا معينا بكلامه ، لكن ذلك اغضب خه لاو شي . ذهب الرجلان معا ، وحضرا الاجتماع الذى استمر بضعة ايام . وذات يوم استدعى خه لاو شى ليلقى كلمة فى الاجتماع . وكان الموضوع المقرر "مواصلة الثورة" فلم يستطع ان يقول شيئا كثيرا فى هذا الموضوع ، بل راح يشكو كثيرا من شقاء المجتمع القديم وبؤسه ، وعندما اكتشف الجالسون خروجه عن الموضوع ، اخذوا يضحكون ويتبادلون احاديث شتى فى ضجيج كبير . فغضب مترئس الاجتماع ، وقال منتقدا :

— علام تضحكون ؟ حتى ولو لم ينبس الرفيق خه لاو شى ببنت شفة ، فانه بهذا المعطف الذى يرتديه قد وضح لنا جوهر الماركسية اللينينية بصورة حية . بينما نجد بين كوادرنا اناسا مثل محظيات ملاك الاراضى ، يزينون وجوههم ويرتدون الملابس الجديدة ، اذا قارن هؤلاء انفسهم بالرفيق خه لاو شى ، أ فلا يشعرون بالخجل ؟

احمرت وجوه الكثير من الحاضرين بعد هذا الانتقاد ، كما احمر وجه السكرتير وانغ ، وخفق قلبه بشدة .

وبعد منتصف ليلة ذلك اليوم ايقظ خه لاو شى السكرتير وانغ فجأة من نومة العميق ، وقال بأن لديه امرا هاما يريد ان يناقشه به . فتح السكرتير وانغ عينيه الناعستين ، فوجده يجلس داخل اللحاف مسندا ظهره الى الحائط ، وضباب كثيف من الدخان

يتصاعد فى انحاء الغرفة ، وقد تكومت امام السرير كومة من اعقاب السجائر تشير الى ان الرجل قد فكر فى الامر وقتا طويلا .
سأله السكرتير وانغ عما يريد فأجابه وهو يهز رأسه ويتنهد :
ـ ان شباب اليوم يثيرون الجنون حقا ، انهم لا يدركون طعم الفقر والبؤس ، اذا صاروا فى ظروف حسنة طالبوا بالاحسن . خذ الملابس على سبيل المثال ، اذا لبسوا القماش ، طلبوا الصوف ، اما الآن فلم يعودوا يرتضون بالصوف ، بل يطلبون الدكاون . كلما نالوا شيئا طلبوا المزيد ، واذا استمروا هكذا ، فكيف سيكون الامر ؟

ضجر السكرتير وانغ من سماع هذا الكلام ، وقال فى برودة :

ـ ماذا نعمل حسب رأيك ؟

التهبت حماسة خه لاو شى ، فنهض بجسمه ، وقال فى معنوية عالية :

ـ ما دامت بلدتنا خجيابينغ تعتبر الفيلق النموذجى القديم على مستوى المحافظة ، فلا بد ان نتخذ زمام المبادرة . وقد فكرت فى الامر ووجدت حلا . واقوله لك الآن لترى مدى صلاحيته .

تثاءب السكرتير وانغ ، ونظر اليه صامتا .

قال خه لاو شى فى كلمة ذات معنى عميق :

ـ لا يمكن ان نلقى اللوم كله على الشباب وحدهم فى هذا الامر ، ذلك لأنهم لم يذوقوا شقاء وبؤس المجتمع القديم ، يجب ان نهتدى الى طريقة نذيقهم بها مرارة الحياة فى المجتمع

القديم . اظن ان مجرد الكلام لم يعد ينفع شيئا ، ولا بد من عمل شيء ملموس . فبعد ان نعود ، وبروح هذا الاجتماع ، نكلف كل شخص فى الفيلق باعداد ثوب بال يرتديه ليتذكر به بؤس وشقاء المجتمع القديم . . .

فعارضه السكرتير وانغ بكلمة كادت تخرج على اللسان : " أ فليس الافضل بنا ان نعود الى المجتمع القديم ! " ثم تثاءب تثاؤبات متتالية ، واطبق عينيه بعد ان كانتا نصف مفتوحتين . وفجأة اخذ يشخر شخيرا عاليا طويلا ، ولم يعد يستيقظ لندائه .

" آه ، الرجل الشاب لا تشغله الهموم ! " اطلق خه لاو شي تنهيدة طويلة كأنه قد سامحه . ثم شرع يفكر فى الخطة العظيمة التى يصلح بها وضع الفيلق . وقد خرجت مبادرة خه لاو شي العظيمة الى حيز التنفيذ بموافقة من القيادة . وفى يوم عشية عيد رأس السنة القمرية الجديدة ، لبس الجميع ثوبا باليا قديما ، كما اكل الجميع طعاما خشنا سيئا . " لقد عاد الينا المجتمع القديم مرة اخرى ! " اخذ الناس يتناقلون هذا الخبر بلهجات مختلفة . عاصر الناس رجالا ونساء ، شيوخا وشبابا ، هذا الحدث بمشاعر مختلفة ، الشيوخ يبكون ، الشباب يضحكون . بعضهم غاضب ، وبعضهم يشتم ، وكل اسرة يسودها شجار ساخن . وتبدد جو العيد البهيج . حضر رفاق القيادة ، حضر رجال الصحافة ، كما حضر الكوادر ومندوبو الجماهير فى الفيالق الاخرى ايضا ، وعقد اجتماع ميدانى منقطع النظير . لا تستطيع بالطبع ان تدرك حقيقة تفكير الحاضرين ، غير ان تعابير الحزن والاسى ارتسمت

على وجوه الجميع بصورة موحدة . بكى خه لاو شى ، وبدا كأنه انسان من الدموع وهو يشكو شقاء المجتمع القديم ، ولكن الاكثر شقاء حقا هو السكرتير وانغ . كان يجاهد فى صبر وكتم فى نفسه مشاعره الخفية التى لا يمكن ان يبوح بها لأحد ، وكان عليه فى ذات الوقت ان يضع فوق وجهه تعابير الشقاء وهو يرافق هؤلاء الزوار . لم يلبث الاجتماع الميدانى ان انتهى ، بيد ان التراجيديا الهزلية الصاخبة التى اثارها هذا المعطف البالى الذى يرتديه خه لاو شى ما تزال فى بدايتها . فمنذ ذلك الوقت ، وفى الاجتماعات الكبيرة والصغيرة ، اخذ رفاق القيادة كبارا كانوا ام صغارا يمجدون معطفه هذا ، ويثنون عليه بأنه قد حافظ على اصالته فلاحا فقيرا ثوريا . كما استطاع رجال الصحافة الكبار والصغار ان يصوغوا مقالات منمقة من وحى هذا المعطف ايضا ، بينما اصبح السكرتير وانغ الشخص الوحيد الذى فقد آخر ما عنده من مشاعر تجاه هذا المعطف .

تولى خه لاو شى منصب الرئيس وهو يرتدى هذا المعطف ، وبعد ان ظل فى منصبه اكثر من ثلاثين عاما ، فقد منصبه وهو يرتدى نفس هذا المعطف . صحيح ان السكرتير وانغ توقع منذ وقت مبكر انه سيفقد منصبه ، غير انه لم يتوقع ابدا ان يفقده هكذا ، وبطريقة تثير الرثاء . . لم يحصل الا على صوتين اثنين ! ولما كان هو الآخر كادرا فى الفيلق ، فقد شعر بحزن شديد ازاء هذه النتيجة . انتابه فجأة شعور غامض بالحقد وهو ينظر الى معطف خه لاو شى : لقد عانى خه لاو شى ما يكفيه من

الشقاء والبؤس فى المجتمع القديم ، فلماذا لم يتركوه ينعم يوما بالهناء والسعادة فى المجتمع الجديد ؟ صحيح انه يعيش حياة الفقر والشقاء عن قناعة ورضى ، لكن اية قوة جعلته يرتضى بهذا الفقر وذاك الشقاء عن قناعة ؟ أفليس من حقه ان يلبس فى حياته معطفا جديدا ؟ أ قدر له ان يسلك طريق حياته حتى النهاية وهو يرتدى نفس هذا المعطف البالى ؟ مسكين خه لاو شى . ماذا عليه ان يقول له ، وقد صار الامر الواقع اليوم يغنى جميع النظريات . لم يستطع فى الواقع الا ان يواسيه وعلى وجهه طيف ابتسامة .

نظر خه لاو شى الى وجه السكرتير وانغ المبتسم والى فمه الذى يفتح ويغلق ، كأنما ينظر من خلال الضباب . ان اذنه لم تلتقط كلمة واضحة مما قاله السكرتير وانغ ، غير انه قد رأى بكل وضوح ما وراء السكرتير وانغ من شهادات تقدير ملصقة فوق الجدار . تلك الشهادات التقديرية التى جمعت تاريخ كفاح خه لاو شى ، كما سجلت مآثره . خلال جميع الحملات والانشطة ، ابتداء من حملة الاصلاح الزراعى ، وحملة قمع العناصر المعادية للثورة ، وتوحيد شراء وتسويق المحاصيل الزراعية ، وحركة التعاونيات الزراعية ، والقفزة الكبرى ، وحركة الكومونات الشعبية ، والحملة الكبيرة لصهر الفولاذ والحديد على نطاق واسع ، وانشاء المطاعم العامة على نطاق واسع ، وحملة دراسة مؤلفات الرئيس ماو ، وحملة تطهير الصفوف الطبقية ، وادارة الفلاحين الفقراء والادنى متوسطين للمدارس والجامعات ، وحملة نقد لين بياو وكونفوشيوس ، وتنظيم النسل وتخطيط القرى الجديدة ، وتعيين

حصص البيض ورؤوس الخنازير المبيعة للحكومة ، وانتهاء بحملة التشجير وزرع الغابات وبناء شبكة الرى ، وحملة الانتاج الزراعى الصيفى والخريفى وغيرها ، حظى خه لاو شى خلال ذلك كله بالثناء والتقدير ، ونال عددا لا يحصى من الشهادات والرايات التقديرية . فقد ألصق فوق الجدار تاريخه منذ اكثر من ثلاثين عاما . ماذا تعنى كل هذه الشهادات ؟ أتعنى الفرح ام الالم ؟ واى منها جلب الفرح لأبناء الشعب ، واى منها جلب الالم ؟ ربما تحتوى الشهادة الواحدة ابتسام اناس وبكاء آخرين . دع المبتسم يبتسم ، ودع الباكى يبكى ، فليس فى العالم شخص تظهر له عينان فى مؤخر رأسه ، على اية حال لقد حققت بلدة خجيابينغ المجد باستمرار ، وانفعلت باستمرار . نظر خه لاو شى الى كل هذه الشهادات ، واحس بأنه مظلوم ، وبأن كبرياءه قد جرح . لقد بذل النصف الاكبر من حياته من اجل هذه الشهادات ، وهو لم يحقق اى مكسب لحسابه الخاص . حتى اذا منح قدرا يسيرا من المكافأة المادية فى اوقات نادرة ، فقد سلمه الى الفيلق . وحتى المكافآت التى قدمت له باسمه لم يذهب بها الى البيت . فهو يقول دائما بأن شخصه كله ملك للفيلق ، فليس من المعقول ان يهتم بالمكافآت المادية اليسيرة . لقد بذل جهده وعرقه لكى يكسب لبلدته خجيابينغ المجد مرات عديدة ، ولم يخطر بباله ابدا ان ترد له بلدته خجيابينغ هذا الجميل بصوتين اثنين من اصوات الانتخاب . انه لا يستطيع ان يفهم سبب ذلك ابدا . واخذ يتمتم كأنه يحادث نفسه :

ـ اى خطأ اقترفت ؟ ماذا اخطأت بحق اهالى بلدتى ؟

كانت هذه اول كلمة نطق بها خه لاو شى منذ اعلان نتيجة التصويت . ادار السكرتير وانغ رأسه الى الوراء ، وتابع بعينه نظرات خه لاو شى ، فوجدها قد تسمرت فوق تلك الشهادات التى امتلأ بها الجدار . فأدرك ما بخاطره نصف ادراك ، واخذ يواسيه :

ـ لا تتجه بتفكيرك هذا الاتجاه ، لقد سجلت مآثر عديدة ، واراد الجميع ان يترفقوا بك ففضلوا لك ان تستريح .

ـ استريح ؟

اطلق خه لاو شى تنهيدة ، ثم هز رأسه مبديا رفضه .

ـ آن الآوان لأن تستريح ، لقد هزلت كثيرا فى السنوات الاخيرة ، الجماعة يعاتبون القيادة وينقدونها فى السر بأنها لا تحرص على صحتك ...

وفى كلام نصفه حقيقة ونصفه كذب ، ذكر له السكرتير وانغ الكثير من عناية الجماهير به والكثير من الامجاد التى حققها . كما تحدث كثيرا عن حياته النزيهة وعن اشادة الجماهير بمناقبه . ثم ذكر له ايضا بأن اعفاءه من تعب المنصب يهدف الى تحسين صحته . وقال بأنهم سيحتاجون دائما الى ارشاده وتوصيته فيما بعد . قال كل ذلك وكلامه يفيض بصدق يثير مشاعر المرء ويبكيه .

الكلمة الطيبة تدفئ القلوب . لقد شعر خه لاو شى بالدفء يتسرب الى قلبه بعد سماع كل هذا الكلام . يكفيه ان الناس لم ينسوه ، فماذا يطلب اكثر من هذا فى الحياة ؟ ارتجف من شدة الانفعال ،

واوقف السكرتير وانغ قبل ان يستطرد فى الحديث ، وقال :

— يكفى ، لقد اصبحت شيخا حقا ، ثم ان وظيفة الكادر ليست بالوراثة كما تتوارث العائلة مهنتها المفضلة . فحتى لو كنا نشرب الخمر ، فان الوقت قد حان لتبديل الكؤوس . والآن اصبح الناس متساوين ، كوادر وغير كوادر ، فالكل يملك ارضا يزرعها ويأكل منها ، ولا يتعرض ابدا للضرب او الشتم . أ ليس الوضع افضل بكثير مما كان عليه فى المجتمع القديم ! لو ظللنا فى المجتمع القديم . . .

ذكر مرة اخرى ايام البؤس والشقاء التى سبق ان كررها مرات لا تحصى ، ذكرها بتفصيل شديد وفى ألم عظيم . ان مرارة الماضى هى المفتاح السحرى الذى يفك به جميع عقده الفكرية ، وهى الدواء الناجع الذى ينقذ به نفسه من جميع استياءاته وهمومه . واخيرا استطاع ان يحل عقدته حقا ، وغادر مقر الفيلق الذى مكث فيه عشرات السنين .

تأثر السكرتير وانغ بكلامه ، وخرج يودعه حتى مفترق الطريق . ثم قال فى ندم وخجل :

— كل الذنب ذنبى ، فقد اعتقدت ان الانتخاب لم يكن شيئا جديدا علينا ، وبمجرد ان يزكى فرع الحزب المرشحين ، ثم ابادر واعطيك صوتى فى الانتخاب ، فسوف يتم الامر على ما يرام . لقد سهوت عن القيام بالدعاية الكافية . ومن يدرى . . . آه !

— ليس هذا ذنبك .

وفجأة ، شد خه لاو شى على يد السكرتير وانغ بقوة ، شد عليها بكل قوة ، نعم ، ان هذا الصوت الآخر صوته هو . انتابه شعور بالعرفان حتى دمعت عيناه ، ولم يترك يد السكرتير وانغ الا بعد ان ارتجفت يداه برهة طويلة . مشى خه لاو شى وهو غارق فى التفكير . ان السكرتير وانغ ، هذا الشاب ، ليس بناكر للجميل . وهو لم يخطئ حين رشحه لمنصب سكرتير فرع الحزب . تذكر الكثير من فضل السكرتير وانغ عليه : فمثلا عندما اصبت بالمرض قبل ايام اقترح على الدكتور ان اشرب حساء سلحفاة مسنة ، وكان الجو باردا جدا ، حتى ابنى الذى هو من دمى ولحمى لم ينهض ليقوم بالواجب خوفا على نفسه من البرد ، بينما شق السكرتير وانغ الجليد فوق سطح النهر ، ونزل الى الماء ليصطاد سلحفاة مسنة ويقدمها لى لأتغذى بها . ومن غيره يمنحنى هذا الصوت ؟ صحيح اننى لن اعمل كادرا فيما بعد ، ولكن اذا كنت قد خرجت من المنصب بجسدى ، فلا يمكن ان اخرج منه بقلبى . وعلى ان آخذ بيده دائما ، فهو ما زال شابا ، فلا يصح ان اتركه يزل ، ولا يصح ابدا ان اتركه يقود بلدة خجيابينغ النموذج القديم منذ عشرات السنين الى طريق منحرف !

مشى خه لاو شى ، وهو يفكر ، حتى وصل الى ضفة نهر " العيون الخمس " . انه نهر صغير ، لا يتجاوز عرضه مترين او ثلاثة . تهيج امواجه عالية فى الصيف عندما يتدفق الفيضان من الجبل ، وتنخفض مياهه وقت الشتاء ، فلا تصل الى اعلى الركبة ، وينفذ البصر الى قاع النهر لشدة صفاء المياه . عند



خلال الشتاء فى السنوات الماضية ، كان الفيلق يصدر امرا ، فترسل الفرق الانتاجية رجالا تزودهم بأخشاب لبناء جسر صغير فوق هذا النهر . اما فى السنوات الاخيرة فلم يعد كلام كادر الفيلق يفعل فعله ، بل صار يذهب فى الريح . استحثهم مرات كثيرة ، لكنهم ظلوا جميعا دون حراك . وصباح اليوم تذكر خه لاو شى ان اجتماع الانتخاب سيعقد قبل الظهر ، ويجب ان يحضره الجميع رجالا ونساء ، شيوخا وشبابا ، وقتها سيعبرون هذا النهر ، وقد بردت مياهه برودة الثلج الذى يقرس العظام ، لن يتضرر الشباب حتى ولو خاضوا الماء البارد ، فالبرد يقويهم . اما الشيوخ والنساء فوضعهم يختلف ، سيتأذون من التعرض للبرودة . تناول طعام الفطور مبكرا ، واتجه الى ضفة النهر ، واخذ يرصف فى النهر صفا من الاحجار لتطأها الناس عند العبور . ان مياه هذا النهر فى عز الشتاء باردة تلسع لسعا . اذا قفز فيها المرء حافى الرجلين ، شعر بالبرد القارس يقرص عظامه ويخز قلبه . اخذ ينقل الاحجار جيئة وذهابا ، وقد تخدرت يداه ، وتصلبت رجلاه من شدة البرد . ظن الناس اول الامر انهم سيعبرون النهر حفاة ، تخيلوا البرد القارس ، فأحسوا مسبقا بالحذر . وعندما وصلوا ضفة النهر ورأوا ما رأوا ، ضحكوا . رأوه وقد ابيض وجهه من شدة البرد ، اعجبوا به اعجابا ممزوجا بالشكر والامتنان ، وقالوا انه يؤدى معروفا بفعله ذلك ، ويهب نفسه لعمل الفضائل . وقالوا بأنه شيوعى حقيقى . احس خه لاو شى بالدفء يملأ قلبه اثر سماع هذا المديح ، وعلت وجهه ابتسامة ، واستغل الفرصة

لبعض الجماعة :

– انتم لم تعيشوا فى المجتمع القديم ، ولم تذوقوا شقاءه وبؤسه ، ان عملى هذا لا يعتبر شيئا ، لو كنا . . .

وقبل ان ينهى كلامه ، استعجله شخص ليكمل كلامه المحفوظ :

– لو كنا فى المجتمع القديم ، حين يشتد البرد فى عز الشتاء . وتسقط قطرات الماء فوق الارض جليدا ، كنا نحمل ملاك الاراضى فوق اكتافنا لعبور النهر . . .

انفجرت من الناس ضحكات رنانة ، ثم انصرفوا وقد انشرحت صدورهم من الضحك .

لسعت ضحكاتهم الساخرة قلب خه لاو شى ، فأحس بادئ الامر بالخيبة ، ثم انتابه شعور بالحقد ، فقد رأى فى استخفافهم ببؤس وشقاء المجتمع القديم استخفافا به . اخذ يشتم فى سره ، والحقد يملأ صدره ، حتى انه تأسف كثيرا على انتهاء المجتمع القديم فى وقت ما كان ينبغى له ان ينتهى فيه . يجب ان يعيش هؤلاء حياة البهائم التى عاشها هو فى المجتمع القديم ، حتى يذوقوا طعمها ، فلا يستخفون مرة اخرى بتلك الايام المريرة التى مضت . ولم يتوقع خه لاو شى ابدا ان مصيبة اعظم كانت فى الطريق اليه . لقد خاف على الناس من العناء ، ورصف وحده صفا من الاحجار فى النهر المتجمد المياه ، معرضا نفسه للبرد القارس ، لكى يجنب الجماعة من التعرض للبرودة ، غير ان الناس الذين عبروا النهر فوق الاحجار التى وضعها ، ذهبت وعودهم

كمياه النهر الجارية بلا رحمة او شفقة ، لم يصوتوا له فى الانتخاب . والآن ، وفيما هو ينظر الى الاحجار التى وضعها فى النهر ، اخذت نوبات الحزن والاسى تمزقه ، وحل بقلبه وجسمه برد اشد من ذاك الذى اصابه صباح اليوم حين كان يضع الاحجار فى النهر .

ـ ايها الاخ الكبير شى ، انت ...

دوى نداء مرتعش .

التفت خه لاو شي الى الوراء ، خرجت العجوز تشانغ وو من غابة اشجار الصفصاف قرب ضفة النهر ، وهى ترتدى ملابس بالية قديمة ، يبدو وجهها شاحبا مجعدا ، تحمل فى ذراعها سلة مملوءة بالحطب . سألها خه لاو شى فى اشفاق :

ـ أ تجمعين الحطب ؟

ـ اجمع الاغصان والاوراق التى سقطت على الارض ، لم اقطع من الشجرة غصنا او ورقة .

دافعت عن نفسها بغريزتها ، وهى تقترب من خه لاو شي ، نظرت اليه ، وقد تحدرت دمعات من عينيها ، وقالت فى حسرة :

ـ ايها الاخ الكبير شى ، انت ...

فسألها خه لاو شى فى عجب :

ـ ماذا حدث ؟

ـ خذ الامور ببساطة ، لا تتكدر فتمرض .

نصحته العجوز تشانغ وو بكلام يفيض حنوا ورأفة ، ثم صارحته وكأنها مغتاظة من ظلم واقع :

ـ فى الاجتماع قبل الظهر ، ظننت ان الناس صوتوا لك

مثلما فعلت انا ، ولم اعرف ابدا ان الناس بلا ضمير .

ــ انت !

خفق قلب خه لاو شي خفقانا شديدا ، وألقى الى العجوز تشانغ وو نظرة فاحصة ، وقد اتسعت عيناه .

اطرقت العجوز تشانغ وو رأسها تتجنب نظراته ، واكدت فى لهجة الباكى :

ــ حتى ولو دفنت فى القبر ، وتحولت جثتى الى بقية عظام ، فلن انسى فضلك العظيم على ، ولولاك انت ، انا . . .

تلاشى صوتها فى بكاء حار .

ان ما قالته العجوز تشانغ وو صادر من اعماق القلب . فقد توفى زوجها منذ وقت طويل ، وترك لها ابنا اسمه شياو تشنغ . فعاشت الام والابن متكئا كل على الآخر . وفى صيف العام الذى بلغ فيه شياو تشنغ السابعة عشرة من العمر ، وفى هذا النهر الذى تقف امامه الآن ، تدفقت مياه الفيضان تجرف الاشجار والتراب . وقف شياو تشنغ على الضفة ينظر الى النهر الهائج ، فرأى قطعة من الخشب دفعتها المياه قريبا من الضفة . تذكر ان اسرته تحتاج الى الخشب لبناء بيت ، فمد يده ليفوز بهذه الثروة الهابطة من السماء . وفجأة اندفعت اليه موجة كبيرة ، جرفته هو وقطعة الخشب . اخذ الناس على ضفتى النهر يصيحون ويصرخون ، بينما لم يجرؤ احدهم ان ينزل النهر وينقذه وسط الامواج الهائجة خوفا من الموت . وفى هذه اللحظة الحرجة قفز خه لاو شي الى النهر الهائج الذى ابتلعته امواجه مرات كثيرة ، وكاد يموت غرقا

مرات كثيرة ، واستطاع اخيرا ان ينقذ شياو تشنغ من الموت ، ان الابن الوحيد للارملة هو حياة الارملة ذاتها . طلبت العجوز تشانغ وو اليه ان يتخذ شياو تشنغ ابنا له ، فلم يجرؤ على الموافقة لكونه كادرا ، غير انه خضع اخيرا امام اصرار العجوز تشانغ وو وهى تتوسل اليه فى بكاء حار ، فتبناه . ومنذ ذلك الوقت ، بدأت الاسرتان تتزاوران كثيرا ، وصارت العلاقة بينهما حميمة كأنهما اسرة واحدة . فلا يمكن للعجوز تشانغ وو ان تنسى فضله الكبير فى انقاذ ابنها . اخذت تصرح له بشعور العرفان القديم :

ـ لو انجرف شياو تشنغ بمياه الفيضان ، فهل يبقى لحياتى معنى ؟ انت الذى انقذت بيدك حياة ابنى وحياتى ! فلو طالبتنى بحياتى ، لن ابخل بها عليك ، ناهيك عن صوت امنحه اياك فى الانتخاب !

ونظرت اليه فى حيرة ، تخشى الا يصدقها .

ـ كفاك !

كان لدى خه لاو شى ما يكفيه من الهموم ، ولكن كان عليه ان يواسيها :

ـ لا تبكى ، انى اقدر لك هذا الشعور الكريم ، اعطيتنى صوتا ، انا اصدقك !

عندما ايقنت انه قد صدقها حقا اوقفت دموعها ، واخذا يعودان معا . حمل خه لاو شى عنها السلة وسألها فى عناية :

ـ هل خف مرض شياو تشنغ ؟

ـ نعم ، خف ، خف كثيرا ، فكيف لا يخف مرضه ،

وايامنا كلها هناء وشفاء ؟

كانت غارقة فى فرحها ، فصدر منها الكلام سهوا ، ولما انتبهت ، اسرعت بالقول :

– فى ايامنا هذه زادت الادوية الجيدة كثيرا ، فكيف لا يخف مرضه ؟

– آه .

اطلق خه لاو شي تنهيدة .

استرقت منه نظرة لتتبين تعابير وجهه ، ثم لامت نفسها فى السر ، بأنه ما كان ينبغى لها ان تنتهك المحظور ، كيف تذكر له " ايامنا كلها هناء وشفاء " ، أليست هذه صفعة على وجه والد ابنها بالتبنى ؟ حدث فى الماضى ان عاد شياو تشنغ بعد التخرج من الثانوية ، الى الفيلق ليزاول اعمال الزراعة . وتعلم النجارة ، فبرع فيها ، واستطاع ان يصنع الاثاث الحديث الموضة بمهارة وسرعة فائقتين ، كما استطاع ان يقتصد فى استخدام الخشب فيوفر للزبائن خشبا كثيرا ، فصاروا يقبلون عليه اقبالا كبيرا . وبعد عامين استطاع ان يجمع مبلغا من المال ، وقد عزم فى بادئ الامر ان يحول بيته القشى الى بيت مبنى بالطوب ، ثم يخطب فتاة يرضى عنها ، ويعيش حياة السعادة والنعمة طول العمر . ودون ان يتوقع احد جاءت حملة قطع الذيل الرأسمالى فجأة ، وتقرر ان يدفع كل من زاول عملا ثانويا غير الزراعة غرامة مالية كبيرة ، وان يقاد الى الشارع للعرض امام الجماهير . ولما كان شياو تشنغ من ضمن هؤلاء الناس هدفا للحملة ، وهو

ابن خه لاو شى بالتبنى ، فقد اصيبت الحملة بشلل ، وبقيت بين الحياة والموت . لم يتصور خه لاو شى ابدا انه سيكون عقبة فى طريق نجاح الحملة وهو الذى مارس الثورة طول حياته ؛ فشعر بأنه خيب امل الحزب ، فذهب ذات ليلة الى بيت العجوز تشانغ وو ، يقنع شياو تشنغ بممارسة الثورة ضد نفسه ، فيبادر قبل غيره الى دفع الغرامة والعرض امام الناس فى الشارع ، فيعود بذلك الى الخط الثورى على جناح السرعة .

تحطم مشروع شياو تشنغ للاغتناء . وامضى اياما عدة وهو راقد فى السرير ، لا يأكل ولا يشرب ، والغضب الدفين يعتصر قلبه . يقولون لنا فى كل مناسبة بأن عالم اليوم اصبح عالم ابناء الشعب الكادح ، بينما لا يسمحون لهم بأن يبنوا سعادتهم بعرق جبينهم . لا يستطيع شياو تشنغ ان يستوعب هذه الحقيقة على الرغم من سعة اطلاعه وعلمه . رأى اباه بالتبنى يحضر عنده ، فقابله كأنه يقابل فى وقت الشدة اهله الذين فارقهم منذ امد طويل . واغرورقت عيناه بالدموع ، وتراكمت كلمات التظلم على لسانه ، وانطلق فى حديث لا يتوقف ولا ينتهى ، وهو فى غاية الغضب والحزن كمن فقد رغبته فى الحياة تماما . تحدث عن تاريخ تطور المجتمع . وعن اهداف الثورة وعن طموحات الانسان فى الحياة ، بينما جلس خه لاو شى امام السرير يستمع وكأنه لا يسمع ، يفهم وكأنه لا يستوعب ، وهو يحادث العجوز تشانغ وو فى بعض الامور حينا ، ويترك شياو تشنغ يسترسل فى الحديث حينا آخر . افرغ شياو تشنغ كل ما فى جعبته من المعارف والنظريات ،

كما افرغ غضبه الدفين الذى كبته فى صدره اياما طويلة . ثم ابتسم خه لاو شى ابتسامة خافتة ، وسأله :

— هل انتهيت من الكلام ؟

— انتهيت .

ونظر شياو تشنغ اليه ، ينتظر منه التأييد والعطف ؟

ضحك خه لاو شى فى استخفاف وقال بلهجة الكبير :

— اعرفكم جيدا ، انتم الشباب تفهمون قشور الحقيقة ولا تفهمون جذورها .

فسأله شياو تشنغ فى عدم اقتناع :

— وما جذورها ؟

— انت يا ابنى لا تظن انك اذا قرأت فى المدرسة عدة سنوات اصبحت تفهم كل شىء ، ما زلت بعيدا جدا عن ادراك الحقيقة . لقد عملت منذ عشرات السنين حتى ادركت ما جذور الحقيقة . جذور الحقيقة تتلخص فى كلمة واحدة ، كلمة "الفقر" . ان عالمنا هذا عالم الفقراء . والفقر اكبر حقيقة ، ولا بد ان تخضع جميع النظريات لكلمة الفقر هذه . ان اوقية فقر تساوى تسع قناطير حقيقة . فحتى لو ارتكبت مخالفة ضد القانون ، فانهم يتساهلون معك ما دمت رجلا فقيرا ، ناهيك عن تلك المنافع التى تنالها فى الايام العادية لكونك فقيرا . أ ما رأيت ، حتى الاغنياء اضطروا لأن يتظاهروا بالفقر ؟ فاذا كان الفقر امرا سيئا ، فلماذا اتجهوا للتظاهر به ، ولا يعيشون حياة البذخ والترف ، وهم القادرون ؟ انت رجل فقير من اسرة فقيرة اصلا ، فما اجمل هذا ! وما

اروعه ! فلماذا تبذل جهدك وعرقك ، وتقحم نفسك باستماتة داخل جماعة الاغنياء ؟ ألا يعنى هذا انك تجلب الشقاء لنفسك وتخجل نفسك بأن تجعل نفسك اقل من الناس درجة ؟ لا تصدق تلك النظريات الفارغة ، خلاصة القول ، ان الاغنياء لن يستطيعوا الفرار من يد "بوذا الفقر" فى نهاية المطاف . وسوف ينالون جزاءهم عاجلا او آجلا . لا تتمادى فى الغواية ، اسمع كلامى ، انه لن يضرك ، فأنا ابوك بالتبنى واذا وعيت الحقيقة مبكرا ، نلت الشرف مبكرا . . .

بعد ان سمع شياو تشنغ كل هذا الكلام اصابته قشعريرة من قمة رأسه الى اخمص قدميه ، وادرك ان اية نظرية يقولها لم تعد تنجده . رقد فجأة يتظاهر بالموت محدثا صوتا مسموعا . بينما ظلت العجوز تشانغ وو تصدر من فمها صوت طقطقة فى اعجاب عظيم ، كأنها لم تسمع الا اليوم التعاليم الحقة وهى التى اشعلت البخور وقدست بوذا طول حياتها الماضية لتحظى بها .

ودعت العجوز تشانغ وو خه لاو شى الى الطريق . وقف خه لاو شى وتردد برهة ، ثم اخرج من جيبه لفة ورقية ، واعطاها اياها بيد مرتعشة وقال :

ــ خذى .

فسألته :

ــ ما هذه ؟

قال وملؤه الثقة :

ــ خمسون يوانا . اعرف ان ابنك تشنغ قد انفق بعض

ماله فى فترات متقطعة ، خذى هذه لتعوضى بها النقص فى المبلغ ، واذهبى غدا لتسليم المبلغ الى الفيلق .

نظرت العجوز تشانغ وو الى المعطف الذى ظل يرتديه منذ عشرات السنين ، وتذكرت تلك الايام التى كان ملح الطعام ينقطع فيها من بيته ، رفجأة ، اخذت تبكى من شدة التأثر ، أ تستطيع ان تقول شيئا ؟ عادت الى البيت ، واخذت تنصح ابنها :

— يكفى ! لا تغضب . لا تبال كثيرا بالمال الذى ذهب ، فبقاؤك سالما نعمة فى حد ذاتها ، اسمع كلام ابيك بالتبنى !

نهض شياو تشنغ جالسا على السرير ونيران الغضب تلتهب فى عينيه وقال وهو يصرخ :

— هو ابو من بالتبنى ؟ انه ابو الفقر بالتبنى ! اى رجل هذا ، أ يستحق ان يكون كادر الفيلق ؟

اتسعت عينا العجوز تشانغ وو من شدة الدهشة ، وتوسلت اليه قائلة :

— الانسان لا يمكن ان يكون عديم الضمير ، لا تنسى انه انقذ حياتنا .

رد شياو تشنغ عليها باستخفاف :

— يريد ان ينقذ ! عجيب امره ! ينقذ الانسان ، ثم لا يتركه ينعم بالحياة ! انقذنى فى بادئ الامر ، ثم يطعننى بالسكين ، انى لن اقدر له انقاذه لحياتى ، فالموت ارحم !

اخذت العجوز تشانغ وو تبرئ خه لاو شى قائلة :

— اذا وقع لك مكروه ، فلا يصح ان تلقى اللوم على غيرك ،

ثم انه مسكين بما فيه الكفاية ، خاف علينا الا نقدر اجتياز هذه المحنة ، واعطانا خمسين يوانا .

— اى شيء سمح لك ان تشتريه بالخمسين يوانا هذه ؟ أ سمح لك ان تشترى بها لحما تأكلينه ، ام ملبسا ترتدينه ، ام طوبا تبنين به بيتا ، ام ؟ . . .

غضب شياو تشنغ غضبا شديدا ، واستلقى مرة اخرى ، وجذب اللحاف ليغطى به رأسه بالكامل .

واخيرا ، اشترت العجوز تشانغ وو الفقر والاهانة بالمساعدة التى قدمها اليها خه لاو شى . ودفع شياو تشنغ جميع امواله التى كسبها من ذكائه وعرقه غرامة ، كما تعرض للتشهير به بالطواف فى الشارع كمن ارتكب جريمة السرقة او الاغتصاب . اين البيت الجديد ؟ اين الخطيبة ؟ اين السعادة ؟ اين ذهب كل هذا ؟ من خطف منه كل هذا ؟ ومنذ ذلك الوقت ، اصيب شياو تشنغ بمرض عجيب : كلما رأى الناس هرب ، وكلما سمع عن النقود ارتعد .

حزنت العجوز تشانغ وو حزنا ما بعده حزن . كان الناس يمدحونها بأنها لم تعش حياة الترمل سدى ، فابنها ذكى وكفء ، واذا تقدمت بها السن ، فستحظى بنعمة كبيرة . من كان يدرى انها لن تحظى بالنعمة بل اصبح ابنها ابله . ذرفت دموعا غزيرة وراء الناس ، وعاتبت خه لاو شى فى السر بأنه كان عليه من جانبه ان يصمد امام الضغط فترة . وحتى لو لم يستطع الصمود ، كان عليه ان يماطل فترة . ان امورا كثيرة فى الوقت الراهن تمر

بسلامة عن طريق المماطلة ، انت المبادر الايجابى الوحيد !
ومع مرور الايام ، هدأ بال العجوز تشانغ وو . فمنذ ان صار شياو تشنغ رجلا ابله ، لم يعد يقدر على العمل ليكسب نقاط العمل والنقود ، بدأ الفيلق يقدم لها المعونة كل عام ، ورغم انها ظلت تعيش حياة فقيرة ، بيد انه لم يعد لزاما عليها ان تزاول عمل الزراعة ، وصارت حياتها فى سلام وضمان ، فتحول عتاب العجوز تشانغ وو شكرا وعرفانا .

والآن ، وقد ذكر خه لاو شى مرض شياو تشنغ مرة اخرى ، اصابت العجوز تشانغ وو ريبة : أ يعتقد خه لاو شى انها ما زالت عاتبة عليه ؟ ألقت عليه نظرة اخرى ، فوجدته مكفهر الوجه ، فشرعت تصارحه :

— لا تتضايق ، لقد فكرت فى الامر ، فى ايامنا هذه يكون الابن الابله افضل من الابن القدير ، الابله له نعمته .

لم يسمع خه لاو شى كلمة مما قالت ، وتابع سيره وهو مثقل بالهموم ، وعندما وصل الى باب بيت العجوز تشانغ وو ، استمر يتابع خطواته . صاحت العجوز تشانغ وو تستوقفه ، فناولها السلة ، وانصرف دون ان يقول شيئا . كان يظهر فى خياله السكرتير وانغ حينا والعجوز تشانغ وو حينا آخر ، فتملكه الضجر . وعندما وصل الى الجسر الصغير امام القرية ، اوقفه خه شوانغ شى الذى اتى ليجلب الماء ، وقال :

— ايها الجد شى ، لقد انتظرتك وقتا طويلا .

وقف خه لاو شى ، ونظر اليه فى بلاهة .

ان خه شوانغ شي معروف فى القرية كلها بحلاوة لسانه .
وضع دلو الماء على الارض ، وجرى اليه ، وقال فى لهجة عذبة :
– ايها الجد شي ، كنت اصارحك بالحقيقة دائما ، فتنقدنى ، اظن انك قد رأيت الحقيقة بأم عينيك هذه المرة . فمن بين اكثر من ألف شخص فى الفيلق ، بقيت انا الوحيد المخلص لك ، اننى ما اعطيت صوتى لغيرك !

صوت آخر ! وتجهم وجه خه لاو شي ، ولم يرد عليه . تخوف شوانغ شي وارتعش ارتعاشة المصاب بالبرد . استعجل وقال كأنه يحلف بحياته :

– بعد الاعلان عن نتيجة التصويت قبل الظهر مباشرة ، اصبحت وكأنى فقدت روحى ، فكيف لى ألا احزن ! انت الذى رشحتنى لعضوية الحزب ، ومنحتنى بذلك حياة ثانية !

قال هذا والدموع تسقط من عينيه ، ثم اضاف :

– يمكن ان انسى اى شيء فى حياتى ، ولكن لا انسى ابدا الانسان الذى رشحنى الى الحزب ومنحنى حياة اخرى .

كاد خه لاو شي يذرف الدمع هو الآخر . هز رأسه فى امتنان ، ثم استدار وانصرف . وفى الطريق ، قابل اشخاصا كثيرين ، وكل واحد منهم ذكر امامه فضله عليه وقد ارتسمت فوق وجهه تعابير الخجل ، وقال كل واحد منهم بأنه منحه صوته ، وهو يصدق كل شخص ، لأن كل شخص قال كلامه فى صدق عظيم يحرك العاطفة ، واذا بأشخاص كثيرين يقفزون الى خاطره ، وهم يصرخون فى اذنه متسابقين " انا الذى اعطيتك صوتا ! انا

الذى اعطيتك صوتا ! " ومن شدة دوى الصراخ ، صمت اذن خه لاو شي وزاغ بصره ، وكاد رأسه ينفجر .

تشابكت فى ذهنه خواطر شتى ، واحس بحسرة كبيرة . انه لا يحرص على منصب عمدة القرية حتى يبخل به ، لكنه احس بطعنة فى كبريائه . لو انه بادر من تلقاء نفسه الى التخلى عن المنصب ، لكان الامر معقولا ، بيد ان الناس هم الذين بادروا الى التخلى عنه . انه يعرف الكوادر فى الفيالق المجاورة جيدا ، فأى منهم لم يكن لديه بقع سوداء كبيرة او صغيرة ؟ فمنهم من يبنى لنفسه مبنى بأكثر من طابق او بيتا من الطوب ، ومن يعين ابناءه واقرباءه فى الحصول على وظائف ، ومن يستفيد من الاملاك العامة ، او يستولى على الممتلكات العامة ، ومن يصرخ فى الجمهور آمرا او ناهيا كأنه ابوهم ، من منهم ليس لديه شيء من الانانية ؟ من منهم نزيه كنزاهته ؟ لماذا لم يسقط كل هؤلاء ، بينما سقط هو ؟ لقد سعى لخير الناس طول حياته ، واعتقد انه بذلك قد ادى كثيرا من المعروف والاحسان ، فلماذا لم يلق الجزاء مقابل كل هذا ؟ كان الناس كلما قابلوه يتوددون اليه ، كأن قلوبهم تلتصق بقلبه ، فلماذا انقلبوا عليه فى الوقت الحاسم ؟ الناس الذين قابلهم فى الطريق قبل قليل ، يبلغ عددهم العشرين على الاقل . كان كل واحد منهم يتحدث اليه وقد سال انفه ودمعت عيناه ، وكاد يشق صدره ليريه قلبه ، فاذا صوتوا له فى الانتخاب حقا ، فليس من المعقول ابدا ان ينال صوتين اثنين فقط ! ولكن ، من المخادع الكاذب بينهم ؟ أ يكون السكرتير

وانغ ؟ لا يمكن ، انه رجل صادق وصريح ، لا يقول شيئا ويفعل عكسه ، ثم ان فرع الحزب هو الذى اقر المرشحين بعد دراسة ، وهو سكرتير فرع الحزب ، فهل من العقل ان ينافق ، فلا ينفذ القرار الذى شارك فى اتخاذه ؟ أ تكون العجوز تشانغ وو ؟ لا يمكن ، ان هذه المرأة المسكينة لا تقدر حتى ان ترتب كلاما صادقا ، فكيف تستطيع ان تلفق كلاما كاذبا ؟ ومثلما قالت ، انها حتى تعجز عن رد الجميل ، فكيف تنكر المعروف ؟ انها لا تخادعنى . هل كذب عليه شوانغ شى ؟ انه لا يبدو كذلك . فهو لا يذرف الدموع الا اذا حزن حزنا حقيقيا . يبدو انه يكن لى مشاعر صادقة . " الانسان يملك حياة واحدة فى حقيقة الامر ، فاذا انضم الى الحزب صار يملك حياتين اثنتين " ، ان مثل هذا الكلام لا يمكن ان يكون قد خرج من بين شفتيه فقط ، انه كلام صادر من القلب ، فلا يمكن ان يكون هذا كاذبا . وفكر الرجل طويلا ، واطمأن الى ان كل شخص قد قال له كلاما صادقا . ولكن نتيجة التصويت هى الاخرى حقيقة لا تقبل الشك . اذا لم ينتخبونى فهذا حقهم ، ولن احاسب احدا على ذلك . ولكن لماذا جاؤوا الى يصارحوننى بمكنون قلوبهم ، وهم يبكون بكاء حارا ويريقون دموعا غزيرة ؟ لماذا كل هذا ؟

تداخلت فى مخيلته افكار وخواطر شتى واصبح هذا الامر عقدة مستعصية على الحل . وكلما حاول حلها ازدادت تعقيدا . لقد اصابه الصداع من كثرة التفكير ، ولم يعد يرغب فى طرق هذا الامر ، وآثر ان يعود الى البيت بسرعة ، وينام نوما هادئا

مغطيا رأسه باللحاف . وقريبا من البيت رأى زوجته من بعيد تتقدم
نحوه ، وفى ذراعها سلة مملوءة بالبطاطا . لم تكن زوجته فى مخيلته
الا آلة حية تعمل وتطبخ ، آلة تدور بمجرد ان يصدر لها تعليما
شفهيا اذا ارادها ان تفعل شيئا ، وهو لم يعاملها يوما كانسانة
حية تفكر ولها عاطفة ، وقد كان بينهما شيء ضئيل من الحب ،
الحب القائم على مجرد الاتكال المتبادل فى الحياة ، غير ان
خلافا نشب بينهما قبل عشرين عاما قد دفن هذا الحب . ففى
خريف ذاك العام انقطعت المؤن عن المطعم العام اياما عديدة ،
واصيب خه لاو شى بمرض التورم ، وانتفخ جسمه ، فبدا وكأنه
قرع اصفر القشرة ، وعلى الرغم من ذلك ، ظل يقبع فى الحقول
الموحشة ليل نهار ، يحرس محاصيل الخريف . وفى تلك الايام ،
تحول الكثير من الناس فجأة الى لصوص يخربون كل ما فى الحقل
فى غمضة عين تماما كالخنازير البرية الجائعة . وقد نحلت زوجته
ايضا من شدة الجوع ، وصارت عودا يابسا ، واخذت تترنح فى
مشيتها ، غير انها ظلت تعتنى بزوجها ، وتفكر فى ان تجد شيئا
تعوض به نقص التغذية الذى اصاب زوجها . دبرت بكل صعوبة
كمية قليلة من حبات الذرة الطرية ، وفركتها بشريحتين من الحجر ،
ثم قطعت بعض الخضار البرية ، ووضعتها فى طشت الغسيل ،
واعدت بها "معجون الذرة والخضار". كبحت رغبتها الجامحة
فى الطعام ، وبخلت على نفسها حتى بلقمة تذوقها ، فالرجل
اولا والابن ثانيا ويأتى دورها فى النهاية . انتظرت فى صبر عظيم
الى ان عاد خه لاو شى ، وهو مرهق اشد الارهاق ، لم يكد يستقر

فى جلسته حتى اخذ يلهث بشدة ، وقد ظهرت فوق جبينه قطرات من العرق من شدة الضعف والوهن : اعتصر قلبها الالم ، وناولته سلطانية من المعجون بسرعة . لم يعد خه لاو شى يستطيع مقاومة الجوع ، لقد فقد ارادته . تناول منها السلطانية ، وبدأ يلتهم الطعام بشراهة ، بينما وقفت هى جانبا ، تنظر اليه متألمة لشدة جوعه . ولما رأته يأكل بشهية عظيمة ، فرح قلبها . وما كاد خه لاو شى ينهى الطعام فى السلطانية حتى اكتشف المشكلة . فتوقف عن الاكل فجأة ، ورفع رأسه يسأل فى دهشة :

– من اين حصلت على حبات الذرة ؟

فضحكت من كل قلبها وقالت :

– كل طعامك ، ولا تشغل بالك بهذا الامر .

– تكلمى ! من اين حصلت عليها ؟

أ يحتاج هذا الى شرح ؟ هل من المعقول ان تهبط من السماء ؟ قفزت الى ذهنه كلمتا "السرقة" و"اللص" ، فألقى اليها بالسلطانية التى كانت فى يده ، كأنه قد جن جنونه . ثم حمل طشت الطعام الى مقر الفيلق ، وانتقد نفسه وهو يبكى بحرقة : انه يتولى حراسة المحاصيل الخريفية ، بينما بادرت زوجته الى السرقة ، انه بذلك قد اساء الى الحزب والجماهير ، ثم بادر قبل غيره الى توجيه النقد اليها ، وعقد اجتماع تعرضت فيه الزوجة للنقد والدحض طول تلك الليلة . ومنذ ذلك الحادث ، لم تعد الزوجة تكن تجاهه الا الخوف ، منتهى الخوف ، فاذا امرها بشىء قامت به . ولم تعد تجرؤ على فعل شىء لم يأمرها به . ولم تكن قد قللت من

التحدث اليه فحسب ، بل بدأت تهرب منه كلما رأته ، كما تهرب الفأرة من القط . واذا كانت تتحدث مع الناس وتضحك ، تصمت بمجرد ان تراه ، ومنذ اكثر من عشرين عاما لم ينظر اليها نظرة مساواة ، بل ظل يعتقد بأنها خائفة منه . والآن شعر فجأة بشيء من الخيبة وشيء من الخوف منها ، وهو يراها تتقدم نحوه . اراد ان يلف لفة ليتجنب لقاءها ، غير انها تتقدم نحوه مباشرة ، فلم يجد بدا من التقدم نحوها . وقف الزوجان وجها لوجه . لقد ظلت تخافه اكثر من عشرين عاما ، اما الآن فقد جاءتها الشجاعة فجأة . لقد تجرأت على النظر اليه بعينين ثاقبتين ، وبدت نظراتها ملأى بالعتاب والشماتة . كادت تنطلق بالكلام الذي دفنته في القلب منذ عشرات السنين ، ولكن عندما رأته محمر الوجه مطرق الرأس ، اخذ قلبها يلين ويتحسر ، ولم تستطع ان تحبس الدموع في عينيها ، فتحدرت على وجهها بضع عبرات . والكلام القاسي الذي كاد يخرج من بين شفتيها تغيرت نبرته . تنهدت وقالت :

— لا تحزن ، لقد توليت الرئاسة اكثر من ثلاثين عاما ، فماذا جنيت لنفسك ؟ قبل الظهر ، لو لا انني اعطيتك صوتا لما نلت الا صوتا وحيدا ...

ما كادت تنهي كلامها حتى ذهبت وهي تنشج .

نظر خه لاو شي الى شبحها ، وانتابه شعور بالاسى . لقد اكتشف فجأة الكثير من مزاياها ، لقد مضت السنوات وهي تقاسمه الشقاء والعناء ، وما شكت امامه بكلمة لوم ، انها ليست مثل

زوجات بعض الكوادر اللاتى يعقن ازواجهن عن العمل ، ويستغللن نفوذ ازواجهن ، فينلن من الاملاك العامة . انها لم تمد يدها الى املاك الفيلق ولو لعود من اعواد القمح ، ولم تلطخ وجهه بالطين ، بل بيضت وجهه . حتى الخمسون يوانا التى قدمها الى العجوز تشانغ وو ، قد ارسلها اليها شقيقها الذى يعمل فى الخارج لكى تتعالج بها من مرضها . وعندما طلبها منها ، اعطته اياها بلا تردد . وكما يقول المثل : اذا تقاسم رجل وامرأة فراش الزوجية ليلة واحدة ، ربط بينهما الحب والعرفان مائة يوم ، فالزوجة هى الزوجة ، حتى ولو كسرت ذراعها . بدا كأنه اكتشف هذه الحقيقة فجأة ، فاستنارت بصيرته ، واستطاع ان يرى كل شىء بوضوح وجلاء : كذب ، كذب ، ان كل ما قاله الناس كذب فى كذب ، الصوت الذى اعطته اياه زوجته هو الصوت الحقيقى . اهتدى بتفكيره الى كل هذا . ولأول مرة ، انتابه شعور بالشكر والعرفان تجاه زوجته ، ولولا وقوفها الى جانبه ، لما نال حقا الا صوتا وحيدا .

اخيرا ، وصل خه لاو شى الى البيت ، هذا البيت الذى تألف من ثلاث غرف قديمة مبنية من الطين والقش . وادوات الزراعة مبعثرة فى اركان الفناء ، انه فناء مقفر لا تبدو عليه اية ملامح جديدة ، يشبه الى حد كبير فناء عائلة فلاح فقير فى المجتمع القديم ، والشىء الوحيد الذى يتميز بروح العصر الحديث هو اللوحة المثبتة على الباب ، وقد كتب عليها بالخط العريض " اسرة نموذجية " . أثاره المنظر الماثل امامه ، تذكر خه لاو

شي ذاك العهد الباهر لهذا الفناء الصغير ، فقد حج جميع الكوادر في المحافظة الى هذا المكان المقدس الطاهر ايام حملة دحض التحريفية والحيلولة دون التحريفية ، حيث قاد مسؤول المحافظة الناس الى معاينة امتعة البيت . ثم ألقى كلمة وقد اغرورقت عيناه بدموع حارة : " ايها الرفاق ، يتولى خه لاو شي منصب رئيس الفيلق منذ اكثر من عشرين عاما ، وبيده السلطة الكبيرة في ادارة الشؤون الحزبية والسياسية والمالية والثقافية لأكثر من الف شخص ، وفي استطاعته ان يحصل على اى شيء ، اذا كانت لديه ادنى انانية . لكن ، انظروا يا جماعة ، انظروا ، ليس في بيت هذا الرجل لحاف سليم ولا حصيرة سليمة ولا قطعة اثاث سليمة . " ورفع بيده مقعدا صغيرا ذا ثلاثة ارجل ، وقال : " ولا حتى مقعد سليم . علام يدل هذا ؟ انه يدل على ان الرفيق خه لاو شي ماركسي لينيني حقيقي ، وان اسرته اسرة نموذجية في النضال ضد التحريفية والحيلولة دون التحريفية ! " ثم دق لوحة " اسرة نموذجية " على الباب وسط تصفيق حار . كانت اللوحة حمراء زاهية براقة ، غير ان لونها زال على مر الزمان ، وتراكمت عليها طبقة سميكة من التراب ، وعشش عليها العنكبوت ، مما افقد هذا الفناء الصغير ذاك الشيء الوحيد المتميز بروح العصر .

وقف خه لاو شي في الفناء برهة . وفجأة اخذت موجة من الشعور بالوحدة والكآبة تضرب قلبه ، فأحس بحزن لم يدرك كنهه ، وتملكه احساس جامح بأنه يوشك ان يقع على الارض من التعب الشديد الذى لم يعد يقدر على تحمله ، فكأنه قطع مسافة عشرة

آلاف لى سيرا على الاقدام . عبر عتبة الباب وهو يجرجر رجليه بتثاقل . واستعجل بالجلوس فى الغرفة الوسطية ، وهو يلهث بشدة . السماء تسطع بنورها فى الخارج ، بينما يسود البيت ظلام موحش . ظل هذا البيت قائما سنوات عديدة فى المجتمع القديم ، وأصر على البقاء حتى اليوم فى المجتمع الجديد ، واستحق ان يلقب بصاحب الصحة الابدية عن كل جدارة . لقد اسودت جدران الغرفة الوسطية بدخان الطهو سوادا حالكا لا يماثله سواد الطلاء البلدى ، وعلقت على العارضة اكواز الذرة المتراصة ، كما وضعت على الارض مائدة بالية وبضعة مقاعد قديمة ، وعلى الجدارين الحاجزين اللذين يفصلان الغرفة الوسطية عن غرفتين اخريين عدد غير قليل من شهادات تقدير مزخرفة ، ومما يرثى له انها قد تلوثت بلون الدخان ، وطمس بريقها . اجال خه لاو شى بصره فى انحاء الغرفة . فرأى الترمس الموضوع على منصة الفرن المسطح ، واحس فجأة بالعطش . انه الآن فى اشد الحاجة الى شرب الماء ، غير انه لا يريد ان يتحرك ، اطلق تنهيدة ، وهم بأن ينادى احدا ، بينما تسربت الى مسمعه موجة من الضحكات الخفيضة ، اختفى شعوره بالعطش فجأة ، كما اختفى تعبه ، بينما توترت اعصابه ، ونظر بعينين غاضبتين الى الغرفة الداخلية التى صدرت منها الضحكات. من المؤسف انه لا يستطيع ان يرى شيئا وراء الجدار الحاجز ، كان الافضل له الا ينظر ، فلو رأى ما يحدث فى الغرفة الداخلية ، مات غيظا !

الغرفة الداخلية عالم آخر مغاير تماما ، الجدران مبيضة بياضا

ناصعا ، والسقف ملصق بالاوراق البيضاء ، وفوق الجدران صور نجوم السينما وهم فى اوضاع واشكال مختلفة ، وعلى السرير مفروشات نظيفة مرتبة وان لم تكن فاخرة ، وامام النافذة مكتب عليه طاقم كامل من ادوات الكتابة . وقف كو قن ابن خه لاو شى وزوجته الشابة شيو هوا امام السرير يتضاحكان . يرتدى كو قن ثوبا من قماش الخيش شبه جديد وشبه قديم ، عاديا لا يلفت النظر ، بينما ترتدى شيو هوا جزمة ذات كعب نصف عال ، وبنطلونا مخططا بلون اخضر فاتح ، ومعطفا منتصف الطول بلون احمر فاتح . وقد لفت حول رقبتها منديلا حديث الموضة من النايلون . تزينت وكأنها وردة حمراء تتفتح فوق غصن ناضر وسط الاوراق الخضراء . ظل كو قن يديرها يمنة ويسرة ، ينظر اليها من زاوية حينا ، ومن زاوية اخرى حينا آخر ، وهو لا يشبع من النظر اليها ، ولا يكف عن الضحك ، فى حين اخذت شيو هوا تتدلل امامه ترنو اليه بنظرة اثر نظرة ، وتضغط وجهه باصبع اثر اصبع . ان للرجل صفة متأصلة تتمثل فى انه اذا تزوج امرأة جميلة ، خاف عليها من ان يمسها احد ، وهو فى ذات الوقت ، يرغب فى ان يحسده عليها غيره . كم يتمنى كو قن ان تخرج شيو هوا تتمشى وهى ترتدى هذه الثياب ، لكى يرى الجميع جمال زوجته ، ولكن ، للأسف ، لا يمكن ان يكون هذا الا حلما ! ان خه لاو شى لا يسمح ابدا لزوجة ابنه الشابة ان ترتدى الثياب الجميلة ، ناهيك عن التبرج امام الناس . على الانسان ان يرتدى الثياب اللائقة بمقامه ، ثم انها ليست آنسة

او محظية فى بيت مالك ارض او رأسمالى ، وليست كادرة او
طالبة متفرنجة فى المدينة ، كما انها ابعد من ان تكون بنتا من بنات
الهوى ، تغرى الرجال فى الشارع ، فما الضرورة فى ان تتزين
كالثعلبة الجنية ، ألا تخاف من ان يعيب الناس تصرفها اذا
خرجت فى مثل هذه الثياب ، وهى فلاحة من اسرة فلاح ؟ ألا
تخشى ان يقول الناس عنها بأنها امرأة حقيرة ؟ اما اذا لبست غيرها
من النساء مثل هذه الثياب ، فذاك شأنها ، وليس لنا حق عليها .
ولكن زوجة ابنه تعيش فى عائلة كادر ، ولا يصح لها ابدا ان
تبادر فى القرية الى عمل مشين يخالف الآداب وينافى الاخلاق .
لم يخضع كو قن لهذا التوجيه ، وحرض شيو هوا على الخروج
مرة وهى مرتدية ذالك الطقم من الثياب ، فاعتقد خه لاو شى بأن
مصيبة قد حلت بأسرته ، كأنما قد ارتكبت شيو هوا جريمة
الزنى ، وظل بضعة ايام يقذفها بالشتائم متظاهرا بأنه يقصد شيئا
او انسانا آخر ، وكاد يكسر القدر فى البيت ، فلم يجد كو قن
الا ان يطلب من شيو هوا ان تتزين بعد كل بضعة ايام ، ويطلب
منها ان تدور بضع دورات داخل الغرفة ليستمتع بجمالها وحده ،
وهو بذلك يشبع انانيته فى شىء قليل او كثير . واليوم ، وقد شعر
هذان الزوجان الشابان بالسرور ، اخذا يمرحان فى الغرفة الداخلية
مرحا لا ينتهى ، وفجأة صدرت من الغرفة الوسطية "كحة" .
تجهم اثرها وجهاهما فى بلاهة بعد ان كانا ضاحكين . اسرع
كو قن الى شيو هوا يساعدها فى تبديل الثياب ، ثوبا بعد آخر ،
وقد اضطربت ايديهما ، بينما اخذ كو قن يلوم اباه فى السر

بأنه ما كان ينبغى له ان يفسد عليهما مرحهما وسرورهما .

سمع خه لاو شى مضاحكاتهما غير مرة وهو فى الغرفة الوسطية ، وكاد ينفجر غضبا . ان زوجة الابن ليست من افراد الاسرة ، وليس له حق عليها . ولكن ابنه وهو من لحمه ودمه ، يرى اباه يسقط من اعلى السماء ، ولا يتألم له ، بل يمتع نفسه بمداعبة زوجته . لقد اكلت الكلاب ضميره ! لم يستطع خه لاو شى ان يكبت حقده ، واراد ان يشتم ابنه ، غير انه لم يجد لذلك عذرا ، فافتعل "كحة" ، كأنه بذلك قد اصدر انذارا الى ابنه .

خرج كو قن وشيو هوا ، يتبع احدهما الآخر من الغرفة الداخلية ، وتظاهرا كأن شيئا لم يحدث ، وكأنهما لم يرياه الا توا . وقال كو قن محييا :

— رجعت يا ابى .

لم تنتظر شيو هوا الرد ، وبادرت تجامله :

— يا ابى ، تفضل اشرب الماء .

وصبت سلطانية من الماء المغلى ، وناولتها كو قن . اخذ كو قن منها السلطانية ، وقدمها الى ابيه بكلتا يديه فى احترام كبير ، وقال :

— تفضل يا ابى .

لم يشر خه لاو شى الى انه سيشرب او الى انه لن يشرب ، غير انه اصر على الا يتناول السلطانية ، فظل كو قن يحمل السلطانية ، لا يستطيع ان يتقدم او يتراجع ، وقد اشتعل فى قلبه غضب دفين : لقد تقدم المجتمع تقدما كبيرا جدا ، بينما تراوح بجماعتك بكل

اصرار حتى لا يتقدموا خطوة واحدة . صحيح انهم لم ينتخبوك ، ولكن على من تلقى اللوم ؟ اراد حقا ان يكب تلك السلطانية من الماء فوق الارض وينهى الامر . نظرت شيو هوا الى الاب ، ثم نظرت الى كو قن ، فرأت كلا منهما يتعمد ان يغيظ الآخر ، ومن المؤكد انه لن تمضى الا لحظات حتى يفقد احدهما صبره ، ويفرغ غضبه ، وعندها ستنشب الحرب ، اسرعت تتقدم نحو كو قن ، واخذت منه السلطانية وقالت :

— انا متأكدة ان ابى جائع ، وقد ذهبت امى لتغسل البطاطا ، يا ابى ، ماذا تريد ان تأكل ؟ انى سأعد لك بعض الطعام .

قالت وهى تنظر الى خه لاو شى وتبتسم فى عذوبة ، تنتظر منه الرد . ان اليد لا تمد لتضرب الوجه المبتسم . كبح خه لاو شى نيران غضبه بكل قواه وقال فى صوت مبحوح :

— لست جائعا .

لم يعجب كو قن ما رآه بعينه ، فقال ناصحا وهو يستسلم امام الاذلال :

— منذ وقت طويل ، والاسرة كلها تنصحك بترك هذا المنصب ، غير انك ترفض دائما ، اى كادر يعمل مثلك ؟ لقد قضيت حياتك كلها فى العمل ، دون ان تظهر منك انانية ولو مرة واحدة . وقد وهبت نفسك للعمل ثلاثمائة وستين يوما فى العام ، لم تذق خلالها النوم الهادئ ولو ليلة واحدة ، ولم تتفرغ للطعام ولو وجبة واحدة . وكنت دائما تحرص على مصلحة الجماهير

اكثر من حرصك على مصلحة اولادك ، فالى ماذا كنت تسعى من وراء ذلك كله ؟ وماذا جلبت لنفسك فى نهاية المطاف ؟ لو لم نعطك انا وشيو هوا صوتينا قبل الظهر ، لخرجت من الانتخاب دون اى صوت .

— هذا هراء ، حتى انت تكذب على ! أادليتما لى بهذين الصوتين حقا ؟ انا شخصيا صوت لنفسى !

وانفجر غضبه اخيرا ، ونهض من مجلسه ، واندفع الى الغرفة الداخلية ، وألقى بنفسه على السرير ، واخذت دموعه دموع الشيخ تسيل فى صمت وسكون . . .

كلمة عن المؤلف



تشياو ديان يون . . من ابناء محافظة شيشيا بمقاطعة خنان ، ولد فى فبراير ١٩٣١ . تخرج فى المدرسة الاعدادية للمعلمين عام ١٩٤٧ ، وانضم الى صفوف جيش التحرير الشعبى الصينى فى يوليو ١٩٤٩ ، وتسرح من الجيش بسبب مرضه فى شتاء ١٩٥٣ .

بعد ان عاد الى مسقط رأسه بدأ يكتب القصص بشكل تجريبى الى جانب قيامه بزراعة الارض ، وهو يعيش فى الريف على الدوام . وقد اصبح عضوا فى اتحاد الكتاب فى مدينة ووهان عام ١٩٥٦ . وهو

عضو كذلك فى اتحاد الكتاب الوطنى ورئيس لجمعية الادباء فى محافظة شيشيا .

لقد نشر اكثر من ٢٠٠ رواية وقصة ، فازت بعضها بجوائز للقصص الممتازة على مستوى المقاطعة وما فوقها على مدى أكثر من عشر مرات .

واد من مناجم الفحم

شيه يو ين

١

لو لم يدخل ابن خالى وزوجته الى هذا الوادى ويحفرا فيه اول حفرة لاستخراج الفحم ، لكان من المحتمل ان يظل على شكله الاصلى حتى اليوم .

انه واد عادى فى غربى مقاطعة لياونينغ ، حيث تمتد الجبال الشاهقة عشرات الكيلومترات ، وامثال هذا الوادى لا حصر لها ، تبدو على شكل غضون عميقة داخل الجبال ، ويغطيها بحر من الغابات .

يبدو كأن القرويين المحليين البسطاء قد اكتشفوا الامر فجأة بعد سنين طويلة من الكد فى الحقول جيلا بعد جيل من اجل كسب قوتهم ، اذ تدفقوا الى هذا الوادى عقب ابن خالى وزوجته ، وشرعوا يحفرون عند سفوح الجبال ومنحدراتها كالنمال ، وفتحوا فيها مناجم صغيرة للفحم ، واحدا تلو الآخر .

هذه الجبال ملك للجميع ، فلكل قروى فى هذه المنطقة الحق فى استخراج الفحم منها . ومع دوى التفجير غير المنقطع اخذت الجبال تهتز ، والارض الام تلد بألم ، وكأن كل ما فى بطنها من الاحشاء سوف يخرج . العربات تتقاطر ملأى بالذهب الاسود . والارسن متوترة مثل اوتار الاقواس عند الرماية . والخيول تسارع الى الخروج من الوادى ، وحوافرها تضرب الاحجار المبعثرة على ارض الوادى بقوة ، ثم تتجه الى البلدة او حاضرة المحافظة او المدن البعيدة رافعة الرؤوس .

سرعان ما ازدهر مدخل الوادى ، حيث ظهرت فيه خانات ، وانزال لسواقى العربات ، وفرن لصنع الحدوة . والحداد يلبس المئزر الجلدى ويستند الى مربط المواشى متراخيا ، واللهب من الفرن يلفح ظهره حينا بعد آخر . فاذا رأى احد معارفه نادى عليه متصنعا الابتسامة :

ــ تعال يا اخى ، لأصنع لك حدوة جيدة !

وعند مدخل الوادى نصبت لوحة حجرية نحتت عليها كلمتان بلون احمر كالدم : « وادى المناجم » .

تدفق الى الوادى ايضا رجال من المناطق الاخرى ، لا يمكن لهم بالطبع الا ان يكونوا اجراء لغيرهم . ومعظمهم اجراء مؤقتون . فبعد سنة او نصف سنة من العمل ، يقتنعون بما يملأ جيوبهم من المال ويخرجون من الوادى .

هل تتصور ان وادى المناجم يغص بكهوف الذهب والفضة ، وان كل واحد يمكنه ان يكسب منها بسهولة ؟ ليس الامر كذلك . فبعض الرجال يدخل الوادى موفور الصحة ، ويخرج

منه اعرج يتكئ على العصا . والاسوأ من ذلك ان هناك من سحبهم الناس من الوادى راقدين الرقود الاخير !

على الرغم من كل ذلك يتدفق الناس الى الوادى بلا انقطاع .

ان غربى مقاطعة لياونينغ قريب من منطقة منغوليا الداخلية ، وكانت لمستوطنيها صلات قرابة مع قومية " نيويتشن " * فى التاريخ القديم . وقد سكنت هناك قومية هان والمنغول والمنشور معا ، وظهر ايضا خلف من امتزاج دم هذه القوميات . لقد نظر هؤلاء الى التابوت المحمول على العربة بعين اللامبالاة ، واجسامهم مائلة على ظهور خيولهم . ورأوا اهل الميت القادمين من منطقة اخرى يحملون رايات الجنازة ، وينشرون فى الطريق الاوراق النقدية — النقود تستخدم فى الآخرة حسب الاعتقاد القديم . رأوا كل ذلك ، فلم يتراجعوا خوفا ، بل ازدادوا انجذابا . واستحثوا خيولهم وتدفقوا الى الوادى . . من الصعب ان يفهم المرء طباع هؤلاء الرجال .

انى دخلت الوادى منذ وقت قريب .

غادرت بيتى الواقع فى حاضرة المحافظة بعد ان فشلت فى امتحان القبول للجامعة ، اذ لم يعد سهلا على ان اجد فيها عملا مناسبا ، فقد تدفق الى الحاضرة الرجال والنساء مع احمالهم من مدن ونتشو وقوانغتشانغ وبانغبو وما يحيط بها من المناطق بصورة خيالية مفاجئة ، وشغلوا كل عمل من الاعمال الشاغرة حتى اصلاح الاحذية وطبخ الطعام الخفيف والاتجار بالنظارات المتغيرة

---

* قومية صينية قديمة ، سلف قومية مان (المانتشو) الحالية .

اللون وغيرها من الاعمال المتدنية . هل يمكن ان انازعهم فرصة العمل ، واحتل مكانا فى حاضرة المحافظة لبيع البضائع مثلهم ؟ انى لا استطيع ان ادلل على البضاعة مثل هؤلاء التجار الصغار المتملقين ولو مت جوعا . ولذلك عقدت العزم على العمل الشاق غير مبال بالطريق الطويل الصعب . انى ما زلت شابا ، احب ان اقوم بجولات وتجارب فى الحياة . والحمد لله ان الدنيا اصبحت الآن مفعمة بالحيوية .

فى ذلك الحين تلقيت رسالة من ابن خالى وزوجته دعوانى فيها الى وادى المناجم . ومن خط الرسالة عرفت فورا ان زوجة ابن خالى هى كاتبة الرسالة . لقد رسمت باهتمام خريطة لدخول الوادى بخطوط حمراء دقيقة .

يقع منجم ابن خالى فى منحدرات الجبل الجنوبى قرب مدخل الوادى ، ويبلغ عمق النفق فى هذا المنجم ٦٠ — ٧٠ مترا ، وهناك عدد كبير من الدعائم الخشبية تسند سقوف النفق وجدرانه ، وتمتد من فتحته حتى مواقع الاستخراج . وخطوات العمل ثابتة لا تتغير ، فابن خالى وانا وعدة رجال اجراء نحفر على كل جدران الفحم بالمثاقب الكهربائية ، ونملأ الثقوب بالمتفجرات ، ونركب فيها الفتيل ، ثم نخرج السلك الكهربائى وننسحب الى خارج المنجم وننتظر . ومع صوت التفجير يمكننا ان نسمع اصوات تساقط الفحم ، فتعلو البسمة وجه ابن خالى . وبعد قليل ينتهى تدفق الدخان مع الغبار من داخل المنجم ، فنعود حالا الى النفق لنجد فى المنجم تلالا من الفحم ، نضع الفحم

فى سلال ، تزن الواحدة منها ٧٠ ــ ٨٠ كغ ، ونخرج من المنجم زاحفين بسلال الفحم فى نفق منحدر لاهثين حتى نخرج من المنجم ونفرغ السلال .

العمل فى المنجم شاق للغاية . ولكن عندما ننتهى من العمل اليومى ونخرج من المنجم ، ونذهب الى ساحة قرب فتحة النفق مرورا بكزمة الفحم نشعر بانشراح فى الصدور . الساحة ممهدة بحجم ملعب لكرة السلة ، بنيت فيها غرفة ترابية ، وهى مسكن مؤقت لابن خالى وزوجته والاجراء ، اذ ان بيت ابن خالى وزوجته يقع داخل البلدة . عمر ابن خالى ٢٩ سنة ، وجسمه ضعيف ، ليس مثل اولئك الرجال الاقوياء ، فيشحب وجهه تعبا بعد العمل كل يوم .

ارتفع صهيل الحصان الاحمر القاتم المربوط عند حافة الغرفة . انه يدخل المنجم ويحمل الفحم معنا دائما . اما اليوم فقد قادته زوجة ابن خالى فى الصباح الباكر الى البلدة التى تبعد عن المنجم عدة كيلومترات ليحمل لنا الدقيق والارز واللحم والخضروات . وعندما عاد الحصان من البلدة اقترب منه ابن خالى بسرعة ، واحاط بعنقه ، يمس عرفه الجميل وجسمه اللامع . فحرك الحصان ذيله الطويل ، وضرب الارض بحوافره سرورا . اما الكلب الذى اطلق عليه لقب " الاصفر الثانى " فهو يدور حول ابن خالى ، يمس برأسه رجليه حينا ويمر من بين رجليه حينا آخر ، او يداعب ذيل الحصان . الساحة مفعمة بالحيوية والنشاط .

جلسنا عند الاصيل على قطع خشبية حول طاولة مربعة بعد

ان غسلنا وجوهنا ورؤوسنا ، والشمس تنحدر الى داخل الجبال .
فى ذلك الوقت نسرح نظرنا فى بحر الجبال ، فنرى الامواج الجبلية الزرقاء القاتمة تندفع الى احضاننا وتضغط على هذه الساحة فى وسط الجبال من كل جانب مع اصوات امواج الغابات ، تماما كما يحدث المد فى البحر ، يا له من منظر ساحر !

خرجت زوجة ابن خالى من المطبخ حاملة بيدها ابريقا كبيرا . انها فى السابعة والعشرين من عمرها ، لا تشبه نساء المناطق الجبلية الاخريات اللواتى يتميزن بلون بشرتهن الداكن . وعلى حلمتى اذنيها الرقيقتين علق قرطان متلألئان ــ نساء هذه المنطقة ، من البنات اللواتى لم يتعد عمرهن بضع عشرة سنة حتى العجائز اللواتى دخلن العقد السابع ، كلهن يلبسن الاقراط ، وذلك ربما يعود الى تأثرهن بالنساء المنغوليات ــ عيناها سوداوان لامعتان يمتد طرفاهما الى طرفى حاجبيها ، مما زادها فتنة وجاذبية . جاءت بالابريق الثقيل الى الطاولة بسرعة الريح .

لقد بدأت البرامج اليومية المهيبة ــ شرب الشاى !

المواطنون المحليون مدمنون شرب الشاى ، يشربونه قبل الاكل وبعده ، ولكل منهم كوب كبير ، يضع فى قاعه طبقة سميكة من الشاى الاسود الكثيف . الابريق الذى تحمله زوجة ابن خالى كبير ، تمتد منه رقبة طويلة ، ويبلغ وزنه اكثر من ٥ كغ . ترفع الابريق اولا ، ثم تنزله ، وتملأ الكوب بكمية مناسبة لا اكثر ولا اقل ودون ان يهتز فى يدها . وفى كل مرة تملأ الكوب اولا لكل من الاجراء ، ثم لى انا ــ من اقربائها واجرائها ــ واخيرا

يأتي دور ابن خالى ، زوجها ، وهى دقيقة للغاية فى الالتزام بهذا الترتيب .

عندما هممت بشرب هذا النوع من الشاى لأول مرة ، وفتحت غطاء الكوب ، ووجدت ما فيه من المياه ، صحت : " ماء اسود ! " . كما رأيت طرف الكوب مكسوا بطبقة من آثار الشاى . الا ان ابن خالى والاجراء كانوا يشربون من اكوابهم الكبيرة بكل تلذذ ، وينبعث عن شربهم اصوات عالية .

دفعنى الاغراء الشديد الى اخذ الكوب . ولكن ما ان شربت جرعة منه حتى لفظتها كلها . ان طعمها مر ، ليس كطعم الشاى ابدا . انها من العقاقير الطبية ، بل انها اكثر مرارة من العقاقير .

قهقه الجميع لتصرفى .

وقالت زوجة ابن خالى بجد ، وهى تحبس الضحك :

— اشرب ! اذا قورن هذا الشاى بما يشربه المنغوليون من " طوب" الشاى تجد ان مرارة الاول ما زالت خفيفة . واذا شبعت من شاينا تفتحت مسامات جلدك كلها ، وامكن بذلك خروج كافة السموم من تحت الجلد ، وشعرت براحة لا نظير لها .

ضحكت ضحكة صفراوية ، وقلت فى نفسى : انى اخاف من تعاطى سوائل العقاقير منذ طفولتى .

اعتنى بى ابن خالى ، فاشترى لى خصيصا شاى الياسمين . ولكن زوجته خطفت الشاى منه ، وقالت معترضة :

— يجب ان يعرج فى حارة العرج ، واذا لم يتعود على شرب الشاى الاسود ، فكيف يمكنه ان يثبت قدميه فى وادى المناجم !

فذهلت مما سمعت .

لم اكن مستعدا للبقاء هنا وقتا طويلا .

لا احد منا يستطيع تغيير رغبتها . لقد لجأت الى اسلوب "الزيادة التدريجية" فى كمية الشاى لتستدرجنى الى شرب هذا النوع منه والتعود عليه شيئا فشيئا .

حملت الكوب بين يدى ، واخذت اتجرع الشاى ، واصوات طرق الحديد المنبعثة من مدخل الوادى عند سفوح الجبال تشق السكون ، وألسنة النار فى فرن الحداد تمتد فى الغسق الخفيف ملونة ما حوله باللون البرتقالى . وبجانب الفرن تراءى مطعم جديد على نحو غير واضح .

اشارت زوجة ابن خالى باصبعها الى ما تحت الجبال ، وامارات الازدراء ظاهرة على شفتيها ، وقالت :

— بعلامة واحدة فقط !

فى هذه المنطقة تعلق العلامة امام كل مطعم من المطاعم ، وهى عبارة عن حلقة خيزرانية تتدلى منها اشرطة قماشية حمراء ، والمطاعم تنقسم بحسب عدد العلامات الى اربعة اقسام : بعلامة واحدة وبعلامتين وبأربع علامات وبثمانى علامات . فاذا كان المطعم بعلامة واحدة ، فالمرء لا يجد فيه الا مأكولات بسيطة ، مثل الزلابية والخبز المحشو باللحم وحساء جبن فول الصويا . واذا كان بعلامتين ، تباع فيه الاطباق حسب طلب الزبائن . واذا كان بأربع علامات ، فذلك يعنى ان من الممكن طلب الاطباق فيه بمجموعة كاملة ، او حجز مائدة كاملة . اما ان كان

بثمانى علامات ، فانه يضم كافة انواع الاطعمة المأخوذة من الدواجن او من الحيوانات البرية او الحيوانات المائية او الجبلية على السواء . وليس فى حاضرة المحافظة الا مطعم واحد من هذا النوع .

وعلى كل حال فقد ظهر فى الوادى المطعم ذو العلامة الواحدة .



ما زال ابن خالى شابا ، الا ان ظهره قد انحنى قليلا . ذلك انه كان يتيما منذ طفولته ، ولم يستطع تقوية جسمه فى مرحلة نموه . فلا يمكن المقارنة بينه وبين زوجته ذات القوام المعتدل الجميل ، النشيطة فى الكلام والحركة والعمل . وقد اعترف ابن خالى بذلك ، اذ قال :

ـــ أ ليس هناك مثل يقول ان الانسان اذا قورن بالآخر وجب ان يموت ، والمادة اذا قورنت بالاخرى وجب ان تترك .

ثم اخذ يقهقه ويدخن .

لكل انسان مزاياه . والرجال فى غربى مقاطعة لياونينغ يمتازون بالبنية القوية ، الا ان معظمهم ضعفاء فى التعبير . وعندما يجلسون يؤثرون الصمت ، فيبدون كتماثيل الحرس الصلصالية فى المعابد البوذية . اما ابن خالى فهو يجيد الكلام ، ونادرا ما يجد المحليون مثله من بينهم . وخاصة عندما يتناول موضوع الاكل والشرب ،

فهو يعرف كل ما يتعلق بذلك قديما وحاضرا . مسح يوما اثر الشاى عن فمه ، واخذ يتكلم متلذذا :

ـ منذ ملايين السنين كان شرق الوادى جبالا مكسوة بالغابات . اشتعلت فيها النار يوما بسبب الصاعقة ، وقضت على الحيوانات ، فأكل الناس البدائيون لحوم الحيوانات المشوية فى النار ، واكتشفوا ان اللحوم الناضجة ألذ من النيئة .

ثم اشار بيده قائلا :

ـ كان غرب الوادى بحرا واسعا .

فوجه الجميع انظارهم الى الغرب مرتابين فيما قال ، حيث لم يجدوا الا جبالا متموجة تشبه البحر .

وتابع يقول متأكدا :

ـ هذه الجبال ظهرت منذ ملايين السنين . كان القدماء يضعون فرائسهم على ساحل البحر لتبللها مياه البحر عند المد والجزر ، وتصبح لحوم الفرائس بذلك مالحة المذاق .

لقد اعجبنى كثيرا ما قاله ابن خالى فقد رأيت كلامه جديدا ومعقولا .

لمحنى ابن خالى بعينيه اللامعتين ، ثم ألقى نظره على الجميع ، وقال مزهوا :

ـ لقد اكلت فى المطعم ذى العلامات الثمانى فى شارع حاضرة المحافظة . كانت المائدة كلها الخروف ، وقد ضمت ستين طبقا ، دون ان يجد المرء ايا منها يحمل اسم " الخروف " .

خرجت زوجته من الغرفة ، حيث كانت تشتغل فى المطبخ .

فاتكأت على اطار الباب ، وفى يدها بصلة تقشرها ، وقالت ضاحكة :

— كفى يا رجل ! ذات مرة اخذنى معه الى هذا المطعم . وخلال الاكل حنى جسمه ومد يده الى قدمى ، فى حين جاء خادم ، وكان حولنا اناس كثيرون ، فغضبت مما فعل ، وطرقت الارض بقدمى . ولكن لم يمض على ذلك الا وقت قصير حتى حنى جسمه مرة اخرى خفية ، فغضبت اشد الغضب . ايها الاخوة ، خمنوا ماذا كان يفعل ؟ لقد اخذ من طرف بنطلونى الملفوف قطعة قش دقيقة ، وقطعها بأسنانه الى جزأين ليستخدمها فى تخليل اسنانه ! فقلت له : "عجيب امرك ! ماذا تفعل ؟ ألم تجد عود تخليل على المائدة ؟" فبهت حتى جحظت عيناه . انه يتبجح بينما لا يعرف حتى اعواد الاسنان !

انفجر الجميع ضاحكين ، بينما استطردت تقول :

— كان يقوم بتسخين المياه منذ طفولته ، فاختلط كثيرا بالطباخين ، وسمع منهم بعض الاشياء ، وها هو ذا يتباهى بها فى كل مكان .

ظلت زوجة ابن خالى متكئة على اطار الباب ، تقشر البصل ، وتكشف عيوب زوجها امام الجميع ، وقطرات الدموع تطفر من عينيها ، اما بسبب رائحة البصل اللاذعة ، واما بسبب ضحكها الشديد . وسكت ابن خالى ، وضحك ضحكا مكتوما .

لقد سمعت قديما ان فى كل قرية من هذه المنطقة تقريبا طفلا يقوم بتسخين المياه . وهذا العمل بحاجة الى مرونة فى

المعاملة ، ويقوم به عادة اطفال الفقراء . والغلاية التى كان يستعملها ابن خالى فى تسخين المياه صغيرة ، لا يتعدى حجمها ثلث حجم الغلاية التى يستخدمها القطاع العام فى حاضرة المحافظة . وقيل ان الحداد الذى يعمل عند مدخل الوادى هو الذى صنع لابن خالى تلك الغلاية . كان عندما يسمع خبرا حول اقامة حفلة زفاف او جنازة او بدء العمل فى بناء مسكن عند اى اسرة فى القرية يسرع بغلايته الى تلك الاسرة ، حيث يضع الغلاية امام باب البيت او فى فنائه ، ويبدأ عمله فى تسخين المياه مبكرا دون ان ينتظر دعوة من الاسرة له . فأى اسرة لا تعطيه المكافأة فى هذه الحالة ؟ واذا وجد رب الاسرة بخيلا ، والمكافأة لا تكفى ، استمر فى زيادة للمياه الباردة حتى يتأخر غليان الماء ، فيضطر رب الاسرة الى زيادة مكافأته ، وسرعان ما يرتفع صوت الغليان . لقد خالط ابن خالى الطباخين كثيرا ، اذ كان لا بد لكل اسرة ان تقيم مأدبة فى تلك المناسبات ، فليس من الغريب ان يعرف الكثير عن الطبخ . ذات مرة اقيمت فى اسرة احد مسؤولى الفيلق الانتاجى فى القرية حفلة زفاف ، وما ان اشعل النار لتسخين المياه حتى سمع اناسا يتهامسون ، وعرف منهم ان فلانا ما من اسرة فى غربى القرية قد توفى . فأطفأ النار ، وتوقف عن العمل ، واتجه بغلايته الى غربى القرية . وبسرعة وضع الغلاية امام باب اسرة المتوفى ، واشعل النار ، واعد المياه الساخنة سريعا . كانت الاسرة فقيرة ، فعندما انتهى العمل انصرف دون اخذ اية مكافأة . فلحقته بنت صغيرة من الاسرة ، وهى زوجة ابن خالى الحالية ،

ودست بعض النقود فى يده . الا انه اصر على رفضها . فتأثرت الاسرة بذلك تأثرا شديدا . انه لم يفعل شيئا عظيما فى حياته الا هذه المرة ، ولم يتوقع قط ان ذلك سيؤدى الى اقترانه بالبنت ـ اعظم امر فى حياته .

ان زوجة ابن خالى ذكية وماهرة فى العمل حقا . فهى تشرف على ترتيب جميع الشؤون فى المنجم ، مثل تسجيل كمية العمل للاجراء ، والحساب والاتصال بالاسر المتخصصة فى نقل الفحم وبقسم الشؤون المالية فى مركز شراء الفحم ، وتحديد كمية الفحم وتصنيفه ، واخذ ثمن الفحم ، ودفع الضرائب ، وغير ذلك . فهى روح الاسرة .

ذات يوم جاء ضيف رفيع الشأن ، فدعانى ابن خالى لأصحبه . كان الضيف فوق الاربعين ، ويبدو خشن الملامح ، جلس بجثته الضخمة على قطعة خشب منخفضة ، ومد رجليه من تحت الطاولة الى الخارج . وعرفت من حديثه انه كادر يشرف على شؤون الصناعة فى البلدة . قال ان معهد المناجم فى عاصمة المقاطعة يقوم باعداد الفنيين للوحدات المختلفة . ونفقة الدراسة لكل طالب الف واربعمائة يوان للسنة الواحدة ، وألفان وثمانمئة للسنتين . ومد خلال ذلك اصبعيه ، وحركهما امام الناس مدلا بذكائه . ثم ذكر ما تم اعداده لديه حول هذا الامر ، وقال بأن المواد الدراسية فى هذا المعهد مواد انتاجية فنية ، منها طريقة التفجير والتعدين ، واقامة هياكل الدعم والتهوية لطرد الغازات . وبما ان شروط الامن فى المناجم الصغيرة الحالية رديئة ، فقد طلبت القيادة

من اصحاب المناجم ان يرسلوا بعض الاشخاص الى المعهد للدراسة . وقد قام بجولة فى الوادى كله لهذا الغرض ، فلم يجد احدا يرغب فى الدراسة . والواضح انه لا يمكن ارسال الاجراء القادمين من المناطق الاخرى الى الدراسة . وكذلك لا احب ان ابقى هنا مدة طويلة على الرغم من قرابتى لصاحب المنجم . اما اصحاب المناجم فى الوادى من امثال ابن خالى وزوجته فهم مشغولون كل يوم ، وما زالت هناك اعمال كثيرة تنتظرهم . فكيف يمكن ان يغادروا المناجم مع انفاق هذه الكمية الكبيرة من النقود وقطع هذه المسافة الطويلة حاملين بين ايديهم الكتب الثقيلة ليمضوا سنتين على مقاعد الدراسة التى يتزاحم عليها الناس ، ويتركوا بيوتهم ومهنهم ؟ ! يا له من امر مضحك !

وقال هذا الكادر بأنه اذا وقعت حادثة فى مثل هذا الوادى الكبير الذى تنتشر فيه عشرات من حفر الفحم ، وليس فيه اى فنى ، فسوف تغلق القيادة المناجم .

سارع ابن خالى الى زيادة المشروب للضيف حانيا جسمه ، وقال للضيف :

ــ تفضل بالشرب ، تفضل .

قال ذلك وهو يطرق الصحن بعود الاكل متعمدا مقاطعة الضيف .

وجدت ابن خالى قلقا متحرجا ، فلم املك نفسى عن الضحك خفية . منذ افتتح هذا الوادى ظهر البخور من جديد فى معبد اله الجبال الذى ظل مهجورا سنوات طويلة . وذات مرة قادنى ابن

خالى الى المعبد للنزهة : انه يختفى داخل غابات جبلية ناضرة ، ويحيط به سور مبنى من الاحجار الصفراء ، وهو سور جميل ، يطلق الناس على نوعيته اسم " السور الحجرى الشبيه بجلد النمر " . بنى هذا السور وفق التضاريس الجغرافية ، لذلك يرتفع فى بعض الاماكن وينخفض فى بعضها الآخر مجتازا القمم والوديان ، مما يزيد من فخامته وعظمته . وعلى المدارج الحجرية امام المعبد تنمو اشنة خضراء . وفى داخل المعبد تمثال لاله الجبال : والجدران بجانبيه ملأى بأشكال للاباليس الجبلية والعفاريت . وعلى قاعدة التمثال نقشت ثمانى مقاطع صينية معناها " ان الاله يقهر الاباليس الجبلية ويضمن لك الأمن " . وعلى طاولة القرابين بخور يتصاعد دخانه ، وقطع من الخبز وضعها رجل مجهول . ركع ابن خالى امام الطاولة وسجد ثلاث مرات ، ثم اخذنى مبتسما ، وخرجنا من المعبد .

جاءت زوجة ابن خالى بصحن كبير آخر من اللحم ، وملأت المائدة المربعة بالاطباق .

اختلس ابن خالى النظر الى الضيف ، وقال له متملقا :

— ان حفرتنا صغيرة ، عمقها عشرات الامتار فقط . وعملنا بسيط ، كعمل الفئران فى حفر اجحارها . فلنبق على هذه الظروف القائمة البسيطة .

اخذت زوجة ابن خالى مقعدا ، وجلست جانبا بعد ان انهت عملها فى الطبخ ، وشرعت تنقده بشدة :

— انت قصير البصر مثل الفأر . هل نقوى على حمل


宝谷
福

الفحم دون بكرة كهربائية حين يزداد عمق الحفرة الى مئات الامتار بعد سنتين او ثلاث سنوات ؟ وهل نستطيع علاج الأمر دون خبرة فنية بعد ان تزداد كمية الغازات وضغطها مع زيادة عمق الحفرة وتشابك الانفاق ؟

فقال ابن خالى مبتسما :

ـ لا داعى لمثل ذلك العمق الكبير . يمكننا ان نحفر حفرة جديدة بعد مدة معينة .

فقال الكادر :

ـ اذا هبت عشرات الاسر لحفر المناجم اعتباطا ، كما تقول ، فسوف تسود الفوضى والاضطرابات للوادى كله بعد سنوات قليلة . وسوف تجد الناس يتنازعون على اماكن الاستخراج . ارى انه يجب تحقيق الاتحاد على كل حال ، وحفر المناجم العميقة كما هو الحال فى المناجم الكبيرة .

وحين ذكر الكادر المناجم الكبيرة تذكرت ما حدث منذ سنوات . كان القرويون فى قرية زوجة ابن خالى يشتغلون بالمقاولة فى مناجم فوشين التى تبعد عن القرية اكثر من ٥٠ كم ، والتى تعتبر احدى قواعد الفحم الكبرى للدولة ، وتقع قريبة من البلدة التى تعيش فيها اسرتى . كان الناس يعملون فى مجموعات ، على كل منها ان تشحن عربة من الفحم المتراكم بجانب السكة الحديدية عندما يدخل القطار محطة الفحم ، وكان لا بد من اكمال العملية خلال مدة محددة ، ولا يسمح اطلاقا بالتأخر عن موعد تحرك القطار . كان العمل شاقا مضنيا . وقد رأيت كيف كانت

تعمل زوجة ابن خالى : كانت المجرفة فى يدها تطير مثلما يدور دولاب الهواء ، والفحم يقذف من المجرفة الى داخل العربة مثل الذرة فى البيدر او مثل شلال يتلألأ تحت اشعة الشمس الباهرة .

لعل العمل الاكثر مشقة ليس مكروها ، بل له جاذبية . وربما هؤلاء الناس الذين يمارسون الاشغال الشاقة يكونون اكثر فتنة وجمالا . فعندما كانت زوجة ابن خالى وزميلاتها يشحن العربات كان دائما ما يحيط بهن اناس كثيرون يشاهدون العملية . وفى وقت الراحة كانت زوجة ابن خالى تمسح وجهها عادة بالفوطة التى كان يقدمها لها ابن خالى ، وتشرب الشاى البارد الذى يقدمه لها . وفى الوقت نفسه كانت تتحدث مع من حولها وتمازحهم . انها تجيد الكلام وتحب الضحك . وقد تعارفت بعد مدة مع عدد غير قليل من الناس ، منهم مسؤولون صغار فى المناجم وفنيون . فبدهى انها تعرف الآن كثيرا ، وتستطيع ان تنظر الى المستقبل البعيد .

شرب الكادر كثيرا ، ثم رفع الكأس بيديه الى مستوى حاجبيه ، وقال لزوجة ابن خالى :

– يا صاحبة المنجم ، انت ثاقبة البصر ، دعينى اشرب نخب صحتك .

اشتدت الحيرة بابن خالى فقال فى عجلة :

– فى اسرتنا فردان فقط ، فلا يمكن الاستغناء عن احدنا لكثرة الاشغال . دع اصحاب المناجم الاخرى يرسلوا بعض من عندهم للدراسة .

اخذت زوجة ابن خالى تنظر الى مع امل شديد ، فرفعت الكأس بسرعة متجنبا نظرها ، ورشفت جرعة من المشروب . بدت علائم خيبة الامل على وجهها ، واخفت فى نفسها ما عبرت عنه عيناها من تفكير . ألقى الكادر نظره على ثم على ابن خالى وزوجته . ومالبث ان اتجه بنظره ــ نظر السكران ــ الى المائدة ، وهز رأسه مبتسما متسامحا . كيف يمكنه ان يضع المضيف فى موضع محرج ازاء هذه المائدة الفاخرة ؟ فقال :

ــ اذن ، دعنى ار المناجم الاخرى .



زرع ابن خالى وزوجته مساحة بسيطة من الذرة الصفراء فى منحدر الجبل بجانب الساحة للتى فيها غرفتهما . كانا فلاحين اصلا ، واصبحا اليوم يمارسان اشغال العمال الصناعيين بالاسلوب الانتاجي الحديث . لقد نمت الذرة نموا جيدا بفضل البعد الكبير بين صفوف النباتات والتهوية الجيدة . فكل نبتة تحمل كوزين او ثلاثة اكواز . ولم يمض على حلول فصل الخريف الا وقت قصير حتى نضج بعضها . دخلنا حقول الذرة ، فأخفت النباتات المرتفعة اجسامنا .

قالت لى زوجة ابن خالى :

ــ سوف نخصص مساحة بسيطة فى السنة القادمة لزراعة

نوع آخر من الذرة يدعى "بابيويجباو" ، وسنغليه او نشويه خصيصا لك ، لتتذوق طعمه اللذيذ الذى لا تجده فى المدينة .

تعاملنى زوجة ابن خالى بمودة كبيرة ، لكننى ما زلت احب مغادرة المنجم .

قالت بابتسامة :

ـ يا اخى ، سمعت ان الفتى فى المدينة يعتبر معوقا لا يجد حبيبة له ، اذا كانت قامته دون ٧ر١ متر .

لم استطع كتم ضحكتى عندما فاجأتنى بهذا الكلام . ان قامتى غير طويلة ، ولا بد انها تلمح الى ذلك . واقترب منى ابن خالى وقال :

ـ هناك غرائب كثيرة . على كل اسرة الاكتفاء بمولود واحد . ولكنى اذا رغبت فى الانجاب فسأنجب اثنين دفعة واحدة ، وسأرى ماذا يفعلون بى !

ضحكت زوجته لكلامه ضحكا مكتوما ، ورمته بكوز ذرة . تجنب ابن خالى الكوز ، فوقع على كتفى فاندفعت نحوى مذهولة ، واخذت تدلك كتفى وتقول مبتسمة :

ـ يا للآسف ! يا للآسف ! انظر الى اخيك . انه لا يصلح لشىء . ارجوك يا اخى الا تقتدى به فيما بعد .

فلم اتمالك نفسى عن الضحك .

تسلل الكلب "الاصفر الثانى" الى حقول الذرة دون ان يشعر به احد منا . واخذ يثب الى الاعلى مرة بعد اخرى . انه يساعدنا فى حصاد الذرة ، فيثب الى الاعلى ويحرك كوز الذرة

بمخلبيه الاماميين وفمه حتى يفصله عن النبتة . وعجيب انه لا يقطف الكوز الا اذا وجده قاتم اللون ، اما الكوز الاخضر فلا يقطفه ابدا !

اشارت زوجة ابن خالى الى الكلب ، وقالت :

ــ انظروا ! انظروا !

لقد اخذ الكلب كوزا ، وخرج به من حقول الذرة ، ثم رماه امام الحصان . لقد تجمع امامه ثلاثة او اربعة اكواز ، فراح يصهل محركا ذيله الجميل .

ثم ضحكت وقالت :

ــ يا له من كلب خبيث ! انه يعرف التملق .

ان ابناء الشعب فى المناطق الجبلية ماهرون فى العمل حقا . وقد اتخذوا الذرة الصفراء والذرة الرفيعة منذ سنوات قوتا رئيسيا لهم ، ولا يأكلون دقيق القمح والارز الا فى عيدهم الكبير ــ مناسبة حلول رأس السنة الجديدة . عندها توزع الجمعية التعاونية على كل اسرة كيلوغراما من دقيق القمح وكيلوغرامين من الارز . اما اليوم فقد تحسن الوضع ، واصبحت لديهم نقود ، وبات بوسعهم شراء دقيق القمح والارز من السوق . الا ان التربة والمناخ فى غربى مقاطعة لياونينغ ما زالا يقدمان لأبناء هذه المنطقة الذرة فقط . انهم راضون بهذه البقعة من الارض ، فقد عاشوا فيها جيلا بعد جيل مقتنعين بما تقدمه لهم . فالذرة الصفراء تصنع منها النساء فى هذه المنطقة الحساء او الخبز او الرغيف الرقيق ، ويستطعن كذلك ان يصنعن منه كرات العجين المحشو باللحم والخضار .

اما صنع رغيف الذرة بطريقة الصاق العجينة على طرف القدر فهو عمل عادى جدا فى الحياة اليومية فى هذه المنطقة . الا انى لم اتوقع ان مثل هذا العمل العادى البسيط سيوقعنى ذات يوم فى حرج وارتباك .

فى ذلك اليوم اشعلت زوجة ابن خالى النار فى الموقد ، ووضعت الماء فى قدر حديدية كبيرة ، وعجينة الذرة فى الطشت على الموقد . ان الرغيف الذى تصنعه زوجة ابن خالى مستدير الشكل ، وعجينته تعجن وتخمر جيدا ، فيصبح وجهه بعد النضج هشا ذهبى اللون . وفيما كانت تلصق العجينة على طرف القدر طرق سمعها صوت ذلك الكادر الذى ناداها من اسفل الوادى . وقتها لم يكن احد بجانبها الا انا . فنظرت الى القدر ، وقالت لى :

ــ ألصق انت !

ثم انصرفت بسرعة .

فغسلت يدى ، واخذت قطعة من العجينة ، وتناقلتها بين يدى عدة مرات . انى اعرف جيدا انه لا يجوز الصاق العجينة على الجزء الاسفل من جدران القدر قريبا من قاعها حتى لا تمسها المياه المغلية وتحلها . كما اعرف انه لا يجوز الصاقها فى الجزء الاعلى بعيدا جدا عن قاع القدر ، اذ لا ينضج بذلك الا الجزء السفلى من الرغيف ، ولا تتشكل له قشرة . لذلك اخترت موضعا مناسبا ، رميت عليه العجينة ، ولم اتوقع انها ستنزلق الى الماء . فالتقطتها بسرعة لأجدها قد انحلت واصبحت حساء اصفر اللون .

عندها وجدت ان حرارة الماء قليلة ، وقد سمعت منذ طفولتى ان العجينة اذا ألصقت على طرف القدر الباردة لا بد ان تنزلق . فأخرجت " الحساء " من القدر بالمغرفة ، وصببته فى حفرة الرماد . وفكرت قليلا ، ثم غطيت " الحساء " بالرماد . وبعد ذلك وضعت المياه فى القدر من جديد ، وأذكيت النار . وعندما سخنت القدر رميت بالعجينة على طرف القدر بدقة ، ونجحت فى إلصاقها ، فألصقتها بنفس الطريقة فى المرة الثانية والثالثة .. حتى اكملت العمل ، ووضعت الغطاء على القدر بسرور .

وبعد نصف ساعة من ذلك ، عادت زوجة ابن خالى ، ونظرت الى بعينيها اللامعتين ، وقالت لى بعد ان شمت رائحة الرغيف :

ـ لذيذ جدا !

فتحنا غطاء القدر ، فتصاعد البخار . وفجأة صاحت زوجة ابن خالى ، وضربت بقدمها الارض ، وطرقت كتفى بقبضتيها ، مثلما تطرق الطبول . وقالت ضاحكة :

ـ لقد افسدت يا اخى الامر !

نظرت الى القدر ، فذهلت لما رأيت . كانت الارغفة قبيحة الشكل ، وآثار الاصابع واضحة عليها كل الوضوح ، فبدت كأنها مجموعة من الاكف وليس ارغفة ! ما العمل ؟ اخذ العرق يتصبب من وجهى . ان زوجة ابن خالى مسؤولة عن اعداد الطعام للجميع بالاضافة الى اعمالها الاخرى ، وقد خشيت ان ينفر العمال من هذه الارغفة . فنظرت الى وقالت :

ـ ان العمال الاجراء يتعبون بعد يوم كامل من العمل ،

وبعضهم سوف يعمل فى الليل .

ثم فكرت قليلا ، وجرت الى اسفل الوادى ، حيث اشترت من المطعم الجديد سلطانية كبيرة من اللحم وكيلوغراما من الخمر . وعندما خرج الرجال من المنجم ، ووجدوا مزيدا من الاطباق على المائدة دهشوا وقالوا :

– يا صاحبة المنجم ، كيف انفقت مثل هذه الكمية الكبيرة من النقود ؟

نظرت زوجة ابن خالى اليهم مبتسمة دون تنبس ببنت شفة .

والغريب ان هذا الامر البسيط ظل عالقا فى ذهنى على الرغم من كثرة الاحداث التى عايشتها والمناطق التى زرتها فيما بعد .

٤

بعد منتصف الليل هبت ريح شديدة ايقظتنا جميعا . كانت الاشجار فى الغابات تهتز بشدة كأنها مجنونة تنثر شعرها الاشعث محدثة حفيفا مخيفا ، وفى الساحة تتدحرج قطع الاخشاب التى نتخذها مقاعد . اما الملابس المنشورة على الحبل فقد طارت الى قاع الوادى كأنها الاشباح ، وانقلب مقابل حظيرة الحصان برميل حديدى فارغ مصدرا صوتا عجيبا . واختفى الكلب " الاصفر الثانى " داخل الحظيرة خائفا ، واخذ ينبح بصوت محزن . ولمع برق مزق الظلام ، فظهر الحصان بوضوح تحت هذا النور الباهر

يقف رافعا رأسه . ومع انفجار الرعد غاصت الدنيا كلها فى امطار غزيرة .

اصبح الصباح ، فانتشر من قاع الوادى ضباب ابيض تخالطه زرقة خفيفة ، واخذ يعم الوادى كله ببطء . وانبعث صوت خرير المياه من كل مكان .

نزلنا الى المنجم ، فوجدنا المياه تتسرب من بين اخشاب السقوف بلا انقطاع ، والوحل يتساقط فوقنا من حين لآخر .

كان من المفروض ان يثير ذلك انتباهنا . فطلب الرزق فى المناجم لا بد من ان يكون مصحوبا بالحذر الشديد . لذلك نبهت ابن خالى الى امكان وقوع حوادث فى مثل هذه الظروف والى وجوب الحذر والمراقبة فى كل وقت فى مثل هذا المنجم الصغير ، حيث تحيط به الاحجار من ثلاثة جوانب . ولكن الرجال الاجراء مضوا ينقلون الفحم الى خارج المنجم غير مبالين بشىء . وعند الظهر حينما وصل طابور الرجال الزاحفين الى منتصف الطريق احسست بأن جسما ما قد دفعنى دفعة شديدة ، فتراجعت متمايلا تحت قوة موجة هوائية حتى وقعت على الارض منبطحا . ثم تصاعد غبار اسود ، وعلى الفور اختفى الضوء الابيض الجميل عند مدخل المنجم . فلم اتمالك نفسى عن الصراخ :

ـ انهارت السقوف !

لقد دفعنى الخوف الى ردود الفعل دون وعى ، اذ وثبت عن الارض بسرعة البرق ، فى حين امسك احدهم بذراعى بقوة عنيفة . نظرت الى الوراء ، فوجدت ثلاثة رجال واقفين ، الحقيقة ان

التحركات العمياء فى مثل هذه اللحظة تعرض الانسان للمزيد من الاخطار . وجدت كلا من الرجال الثلاثة رابط الجأش ، فهدأت نفسي كأنما تأثرت بهم تأثرا سحريا . وبعد لحظات من الصمت قالوا :

– لا نعرف ما حال الذين امامنا .

انهم يفكرون فيمن امامهم من الاخوان لا فى احتمال موتهم داخل النفق المسدود . وهذا ما جعلنى اخجل من نفسى . كان امامى الحصان يحمل كيسين كبيرين من الفحم ، وامام الحصان كان ابن خالى مع رجلين آخرين . وفجأة انتابنى رعب شديد . فصرخ احد الرجال بكل عزم :

– تعالوا نحفر بسرعة !

اخذ كل منا معولا ، وهب يحفر بكل قوة غير مبال بأى شيء آخر ، يبدو وكأننا ادركنا الامر على حين غرة .

كان الجميع يحفرون بصمت ، لا يسمع منهم الا اللهاث . ومضى الوقت ساعة بعد اخرى ، وسرعان ما تم نقل الاحجار وقطع الفحم والاخشاب التى سقطت من السقوف . شعرت خلال ذلك بدوار وصعوبة فى التنفس واحتباس شديد فى الصدر . كما رأيت احد الاجراء يترك معوله ويجلس بجانب الجدار وقد استبد به التعب . فخفت ، فى حين تبادل الرجلان الآخران نظرات ايمائية ، وقالا :

– لا تخف ! لا يمكن دفن الانسان حيا فى هذا المنجم ، اذ انه ضحل والنفق فيه قصير .

انى فى غاية الخوف . هناك نفق وحيد يؤدى الى الخارج ، ولا مجال للتفكير فى شىء آخر . فواصلت العمل مع الرجلين بكل ما فى وسعى . كنا نحن الثلاثة مثل جرافة تتحرك بجنون ، وتنقل الفحم جانبا بسرعة . استمر العمل ، ولا نعرف كم من الوقت مضى حين سمعنا اصوات اصطدام الادوات الحديدية والصياح على نحو غير واضح تنتشر من الجهة المقابلة . فقويت معنوياتنا ، وزادت سرعتنا فى الحفر . وبعد نصف ساعة تقريبا فتحنا النفق . فشع الى الداخل ضوء ابيض باهر . واندفعت الى الخارج مترنحا . الله ! ان ابن خالى والرجلين الآخرين سالمون . اقترب ابن خالى منى ، واحتضن بعضنا بعضا بشدة . وبعد لحظات دفعته ، والتقطت نفسا من الهواء الطلق ، وشعرت براحة كاملة . وفجأة وجدت زوجة ابن خالى تجلس على الارض ، تلهث من شدة تعبها . وبجانبها ثلاثة معاول احدها من دون يد ، والآخران كسرت يداهما . رفعت يدها ومست شعرها المشعث ، ونظرت الى مبتسمة ؛ فارتعد قلبى حين رأيت ما ظهر براحتيها من النفطات التى تؤكد مدى كفاحها مع الآخرين من اجل انقاذنا .

خرج من النفق الرجلان مع زميلهما الذى كان جالسا من شدة التعب . وما ان خرج الاخير حتى جلس على الارض ينتحب بصوت عال . لقد ادهشنى ذلك كثيرا ، اذ انه سليم تماما ، ولم يمس بأدنى اذى . كان الرجل يضرب فخذيه ، ويمسح دموعه ومخاطه من حين لآخر فى انتحاب متزايد . الا ان زوجة اخى لم تقلق لهذا المشهد ، بل بدت مطمئنة ، وقالت :

— لقد اصابه الغاز ، فلا بأس عليه : نحن نخاف من الضحك ، لا من البكاء .

كان النفق مسدودا ، والهواء فيه جامدا فأصابتنا سموم الغاز الذى لا لون له ولا طعم ولا رائحة . لقد تسرب الينا من جدار الفحم . وهذا ما جعلنى اشعر بدوار واحتباس فى الصدر قبل خروجنا من النفق . وبعد لحظات توقف الرجل عن البكاء ، ونظر الينا مستغربا . ثم اسند جسمه بنفسه ، وقام مترنحا . فقلت مع ابتسامة عريضة :

— فى المناجم الكبيرة التابعة للقطاع العام اجهزة امن . اما منجمنا الصغير . . .

لم اكد اكمل كلامى حتى وجدت زوجة ابن خالى تحدق الى وتقول :

— ان وقوع هذه الحادثة يبين لنا انه لا بد من الاعتماد على التكنولوجيا والمعارف فى اقامة المنجم .

فهمت ماذا تقصد فجأة ، فتجنبت نظرها ، رشعرت بضغط لم اعشه فى الماضى ، وكأنى تعرضت لوخزة ابرة فى قلبى ، فقد كنت لا اؤيد الدراسة فى المعهد منذ مجىء ذلك الكادر .

لم يؤذ فى حادثة المنجم هذه الا الحصان الذى كسر عموده الفقرى . فنقلناه الى الساحة ، حيث استلقى مائلا ، وكل جسمه ملطخ بالعرق والوحل فبدا بنى اللون . كانت اضلاعه ترتفع وتنخفض عند جنبيه . ثم ضعفت حركاتها شيئا فشيئا ، ولم يعد قادرا على رفع رأسه .

جلس ابن خالى بجانب الحصان مطرقا رأسه ، وراح يتنفس مرة بعد اخرى .

وجاءت زوجة ابن خالى بالماء الساخن ليغسل به العمال ايديهم ووجوههم ، كما اعدت لهم الشاى . ثم اقتربت من زوجها وقالت :

— لنذبحه .

رفع ابن خالى رأسه ، ونظر الى زوجته مرعوبا ذاهلا .

فأكدت ما قالته :

— نذبحه قبل ان يلفظ نفسه الاخير .

لقد ارتبت فيما سمعت ، فابن خالى يكن لحصانه حبا عميقا ، وزوجته تعرف ذلك بوضوح . فكيف اصبحت قاسية القلب الى هذا الحد ؟ قدر من اللحم لا يهم احدا ، ولو كان طماعا .

التفت ابن خالى الى اولئك الرجال ، وهم يستريحون حول الطاولة المربعة وينظرون الى هذا الجانب باكتئاب . لقد اقلق زوجة ابن خالى ان يثير الحصان المشرف على الموت تفكيرهم فيما يواجههم من اخطار ، فيؤدى ذلك الى انتشار جو الكآبة واغلاق المنجم . وادرك ابن خالى ان الحق مع زوجته التى تعالج الامر بحكمة كلما وقعت حادثة فى المنجم . الا انه لا يجرؤ على عملية الذبح . فقال لها وهو يطرف بعينيه :

— ... الافضل ان تقومى انت بالذبح ...

ألقت الزوجة نظرة غاضبة على الزوج ، ودخلت الغرفة ، حيث شربت عدة جرعات من الخمر ، واخذت سكينا . ان

للمرأة الماهرة فى العمل فى هذه المنطقة الجبلية دورا فى جميع الاعمال اليدوية التى يقوم بها الناس . اخفت زوجة ابن خالى السكين وراء ظهرها ، واقتربت من الحصان . وعلى ظهر يدها التى تحمل السكين تبرز ورود زرقاء ، واصابعها الطويلة الجميلة تلتف حول مقبض السكين ، ويحتك بعضها ببعض محدثة صوتا خفيفا من بين سلامياتها . ووفقا للعادة التقليدية ركعت ، واطرقت رأسها امام الحصان ، وقرأت بصوت خافت ما يلى : "ما دام هناك من يشترى فهناك من يبيع ، وما دام هناك من يأكل فهناك من يذبح ، وما دام هناك ذابح فهناك مذبوح ." وبعد تريث قليل واصلت قراءتها : "ايها الحصان ، لا تحقد على ، مت بسرعة ، مت بسرعة ، وتناسخ مبكرا ." ثم تقدمت بخطوة سريعة وحزت عنق الحصان من بلعومه بسكينها اللامعة ، فاندفع رشاش الدماء هنا وهناك .

وفجأة نبح الكلب نبحة حادة محزنة ، ووثب عاليا الى خارج الساحة ، واتجه الى قاع الوادى مع نباحه .

لقد انتشر خبر من قاع الوادى يفيد بأن حادثة قد وقعت فى منجم هناك .

وفى صباح اليوم التالى لم يقم ابن خالى من نومه كعادته ، بل ظل ملازما فراشه . . .

اما الرجال الاجراء فجلسوا فى الساحة يدخنون فى صمت ، لا احد منهم يتحرك . كانوا لا يخافون من شىء قبل وقوع الحادثة ، اما الآن فأصبحوا حساسين ، وكأنما افاقوا من كابوس . وقد

وجدت زوجة ابن خالى صاحبة المنجم الحكيمة ، انه يسهل فى هذه المناسبة نشوء عداوة بين المنجم والاجراء . وظل ابن خالى راقدا على السرير يطرف بعينيه كطفل مذعور .

فدفعته زوجته هامسة اليه :

ـــ الجميع ينتظرون ماذا ستتصرف .

فقال متلعثما :

ـــ ليسترح الاجراء عدة ايام ...

لم يتوقع ان تغضب زوجته من كلامه وتطبق اسنانها غيظا . فقد نظرت اليه ، والشرر يتطاير من عينيها . وقالت له بصوت خافت :

ـــ يا احمق ! انت طيب القلب ، خير لك ان تخرج من البيت وتصبح راهبا !

شحب وجه ابن خالى وشد طرف لحافه الى اعلى جسمه ، وغطى به رأسه . فطرقت الارض بقدمها غضبا ، واخذت خوذة الامن ، واندفعت الى خارج الغرفة .

فناديتها بصوت عال ، الا انها لم تكترث بى ، وجرت الى المنجم عابرة الساحة ومارة بكومة الفحم .

فتبعتها مباشرة ، اذ ليس من المناسب ان نترك امرأة تستخرج الفحم من المنجم ، وتحمله الى خارجه . فقلت لها :

ـــ اصعدى ، وسأقوم انا بهذا العمل .

ارتعش جسمها فى الضوء الخافت ، والتفتت الى . وفجأة احتضنتنى وبكت مشتكية :

ـ يا اخي ، يا اخي الطيب . لا اجد اى متعة فى حياتى مع ذلك الرجل غير الصالح .

وقعت فى حيرة شديدة ، لا اعرف ماذا يجب ان اقول . ثم اسرعت فى تهدئتها قائلا :

ـ يا زوجة ابن خالى ! انى ...

فتنهدت عميقا وقالت :

ـ لا يمكنك ان تحمل اعباء المسؤولية فى المنجم بدلا منا فى الوقت الحاضر . اننا اصحاب المنجم ، يراقبنا الجميع . واذا كنت ترغب فى مساعدة زوجة ابن خالك فعلا ، فالاحسن ان تصبح يوما ما مسؤولا للمنجم .

دهشت مما سمعت ، وغرقت فى التفكير ...

مسحت الدموع عن وجهها ، وابتسمت . ثم انحنت وحملت سلة فحم على ظهرها بقوة وعناد ، واتجهت الى خارج المنجم . اخذت تترنح تحت ثقل الفحم الذى بلغ وزنه ٧٠ ـ ٨٠ كغ . وتقدمت تزحف ، مستندة الى الارض بيديها ، ثم تنهض بجسمها كل بضع خطوات . كان النفق يزداد انحدارا وصعوبة مع امتداده الى الخارج ، حتى انها اضطرت فى بعض الاحيان الى ان تسند جسمها بيديها وركبتيها معا ، فيصعب على المرء ان يحدد أ هى تمشى ام تزحف .

كان على قمة كومة الفحم صندوق لقياس كمية الفحم ، تمتد اليه خشبة معلقة . وعندما صعدت زوجة ابن خالى الخشبة اهتزت تحت ثقل جسمها . يا للخطر ! ان من المخيف ان

نتصور ماذا سيحدث اذا زلت قدمها عن الخشبة ، وسقطت سلة الفحم على جسمها .

لم يدر احد متى خرج اخى من الغرفة . عندما رأى زوجته على الخشبة ضرب الارض بقدميه ضجرا ، وصاح بها :

— ارمى الفحم ، ارميه بسرعة !

اذا رمت سلة الفحم ونزلت عن الخشبة ، انتهى الامر . الا انها ظلت تصعد على الخشبة بعناد .

تزعزع الرجال الجالسون خارج مدخل المنجم ، واندفعوا الى داخل المنجم واحدا تلو الآخر . لقد شعروا بالخجل امام هذه المرأة العنيدة التى كانت تعتنى بهم وتهتم بدقائق امورهم . وحين كانت تأتى زوجة احدهم بزيارة ، تعاملها كأخت لها ، وتصنع لها "جياو تسى" (كرات العجين المحشوة باللحم والخضار : وهى من اطعمة الاعياد فى الشمال) خصيصا . وكانت نساء اخريات يأتين للعودة بأزواجهن الى البيت ، مؤثرات وجود ازواجهن معهن على الرغم مما سيواجهون معا من صعوبات فى المعيشة . ولكن بعد ما تستقبلهن زوجة ابن خالى بحرارة ، وتعاملهن بكل اخوة ومودة ، يتعسر عليهن طرح طلبهن .

من بين هؤلاء الرجال ناداها شاب بصوت مرتجف :

— اتركى الفحم بسرعة ! ارجوك يا زوجة اخى !

كانوا ينادونها عادة "يا زوجة صاحب المنجم" .

ظلت زوجة ابن خالى صامتة ، واستمرت فى الصعود بعد ان وازنت جسمها .

حملت انا سلة فحم ، ورفعت نظرى اليها فوجدتها منحنية الجسم ، مطرقة الرأس محمرة الوجه بسبب حبسها الانفاس ، والعرق يتصبب منها . وفجأة التقت انظارنا لقاء خاطفا . كانت عيناها بارزتين تنفثان لهيبا فخفضت بصرى .

صرخ احد الرجال بغتة :

— ايها الزملاء ! ماذا تنتظرون ؟

تنبه الجميع ، فسارعوا الى الخشبة المعلقة . واندفع ابن خالى الى زوجته ، يحاول ان يسندها من الخلف ، فانتهرته فى غضب :

— ابتعد عنى !

توقف ابن خالى متحيرا ، وكذلك توقفت انا مع الرجال الآخرين . وظلت زوجة ابن خالى وحدها تصعد نحو قمة كومة الفحم . وخيم علينا سكوت مطبق كنا نسمع معه صوت لهاثها . لقد واصلت سيرها بعزم حتى وصلت هدفها على الرغم من ثقل السلة على ظهرها . ثم استدارت ، وارخت يديها ، وصبت الفحم فى صندوق القياس .

٥

عند الظهر تسير قافلة العربات المملوءة بالفحم فى قاع الوادى بطيئة السرعة ، فيتلألأ الفحم تحت اشعة الشمس . ان هذا الوادى ليس الا طية بسيطة فى الجبال الكبيرة الشامخة التى تمتد فى

غربى مقاطعة لياونينغ . لكنها تمد البلدات وحاضرة المحافظة والمدن البعيدة عنها بالضوء والحرارة على نحو مستمر ، مما يساعد على ازدهارها يوما بعد يوم . ومن الجدير بالذكر ان المرء يمكنه ان يرى بالاضافة الى عربات الفحم عربات اخرى تنقل موتى فى التوابيت الى خارج الوادى .

كانت الغرفة الترابية مزودة بسريرى "كانغ" (كانغ : مصطبة ترابية تعتبر سريرا فى شمال الصين) ، احدهما فى الجانب الشمالى منها والآخر فى الجانب الجنوبى ، وقد اطاق الناس عليهما "الكانغان المتقابلان" . كانت العادة القديمة والتى ظلت متبعة فى هذه المنطقة الجبلية ان ينام الرجال والنساء معا على مثل هذا النوع من الاسرة . وقد نتجت اشاعات كثيرة من ذلك . ومع ظهور المساكن الحديثة فى السنوات الاخيرة اخذ المواطنون يحجزون بين غرفهم ، ويقيمون فيها بحسب اجيالهم . اما فى هذه الغرفة الترابية فقد ظل الناس يقيمون وفقا للعادة المحلية القديمة . وربما يعود هذا الى ان الغرفة غرفة للمنجم مؤقتة ، وان صاحب المنجم لجأ الى ذلك لتسهيل الامر . كان الاجراء ينامون فى الكانغ الشمالى ، وابن خالى مع زوجته فى الكانغ الجنوبى . اما انا فكنت انام مع الاجراء فى الايام الاولى بعد مجيئى الى المنجم . ثم دعانى ابن خالى ذات يوم الى الكانغ الجنوبى ، وقال لى :

ــ ان الكانغ الشمالى مزدحم ، فتعال الى هذا الجانب .

رفضت ، فابتسمت زوجة ابن خالى ، وقالت :

ــ فى جبلنا الجنوبى نمر يأكل الانسان !

ثم حملت اغطيتى الى طرف الكانغ الجنوبى ، ونقلت اغطيتهما الى الطرف الآخر منه ، وتركت بيننا مسافة . وهكذا اضطررت الى الانتقال الى الكانغ الجنوبى ، ونمت مواجها للجدار .

ذات ليلة نام جميع الاجراء ، واستغرقت فى النوم ، وحين استيقظت فجأة ، ووجدت زوجة ابن خالى بجانبى ، تملكتنى دهشة شديدة . كيف يمكن ذلك ؟ ! رأيتها تحت ضوء القمر بسروالها الداخلى الاحمر وصدريتها المطرزة ، تسند رأسها بيدها ، وتتجه الى بجسمها المسترخى ، وتنظر الى بعينيها السوداوين اللامعتين . قالت لى بصوت هامس :

— استيقظت ؟

حقا انها زوجة ابن خالى ، فارتعدت خوفا . وعندما حاولت الجلوس ضمتنى بذراعيها الممتلئتين القويتين . كان يدوى فى الكانغ الشمالى شخير متتابع بالاضافة الى ما ينبعث من داخل الانوف من الاصوات المزعجة فى بعض الاحيان . وفجأة قلب احدهم جسمه ، فأحدث صوتا كوقوع شىء فى بئر عميقة . دوى الصوت فى رأسى ، ففكرت : هل ابن خالى نائم ؟

قربت فمها من اذنى ، وقالت بصوت خافت :

— احب ان اناقشك فى امر .

ما هذا الامر ؟ ! ثم ابعدتها عنى بشكل غير ارادى ، وقلت :

— يا زوجة ابن خالى ، غدا . . .

ومست يدى ثدييها اللين ، فارتجفت ، وشعرت بحرارة فى سائر جسدى . فضحكت ، وقالت :

– لا استطيع النوم قبل ان نتفق على الامر .

كان الليل هادئا ، والجو خارج النافذة طلقا ساحرا ، وبشرة زوجة ابن خالى تلمع فى الضوء . انها شابة جميلة محبوبة . ولكن فى مثل هذه الغرفة وعلى مثل هذا الكانغ وبجانب الرجال وابن خالى ، اصبح كل شىء فاتن مفزعا ، ناهيك عن عدم احتكاكى بامرأة هكذا فى حياتى الماضية .

قالت بصوت خافت :

– يا اخى ، اذهب الى عاصمة المقاطعة للدراسة ، ولا تسافر الى اى مكان آخر ، ارجوك .

قالت ذلك واقتربت منى أكثر . فاحمر وجهى ، واخذ قلبى يخفق بشدة ، وخجلت من ذلك كثيرا . كم هى جريئة !

واستطردت قائلة :

– انت مناسب للدراسة لأنك طليق من كل قيد .

ظللت صامتا ، بينما تابعت بصوت ضعيف متعجل :

– اذهب ، اذهب للدراسة ، وكن عاقلا ، فان زوجة ابن خالك سوف تعاملك معاملة جيدة طول حياتها .

ماذا كان يمكن ان اقول فى هذه الحالة ؟ حركت جسمى قليلا ، وقلت :

– دعينى افكر فى الامر .

لم اتوقع انها مدت ذراعها العارية على غير توقع منى ، وضغطت

بها فجأة على صدرى وقالت :

— اذا لم تتفق معى على ذلك اتفاقا نهائيا ، فأنا . . .

وفجأة ألقت على نظرة مثيرة وقالت :

— ان ابن خالك لا يستطيع تقييدى على كل حال .

انها تعرف وجهة نظرى للحياة ورغبتى فى القيام بجولات فى انحاء البلاد . وقد حاولت اكثر من مرة ان تقنعنى بالبقاء معها فى المنجم ، فأخفقت فى كل مرة . ولم اتوقع قط ان تلجأ اخيرا الى هذه الطريقة . ربما يعود ذلك الى شدة تعجلها او لأنها امرأة جبلية من هذه المقاطعة لا تقيم وزنا لتصرفاتها تلك .

ثم تابعت بصوت مرتجف :

— سوف يزداد عمق المنجم شيئا فشيئا . وعندها ستواجهنا كل من مشكلات المياه والغازات والانهيار . هل ستراقب من الخارج ما يحدث فى منجم زوجة ابن خالك من الحوادث ؟ هل ستظل تتفرج مكتوف اليدين امام ما سأتعرض له من مشكلات التعويضات والمعونة حتى الافلاس ؟ لسوف يتطور المنجم ، ويصبح مدينة فى جوف الارض ، فلم يعد جائزا ان نعمل بالطريقة التى يراها ابن خالك ، ونحفر مثلما تحفر الفئران اجحارها . يا اخى ان وادى المناجم حيث تعمل زوجة ابن خالك فى حاجة اليك .

لقد دفعنى كلامها الذى يحمل معنى كبيرا ومشاعرها الصادقة الى التفكير بتأثر وعمق . فقد يتطور وادى المناجم هذا ، ويزداد نشاطه وحيويته يوما فيوما . وقد يصبح واديا للموت والخوف ، تكثر فيه الكوارث . ان الانسان يقتحم الدنيا ، ويقوم بجولات فيها

بغرض انبحث عن انسب مكان له ، يجد فيه ذاته ومنزلته . واستحثنى وعى بالمسؤولية المقدسة ، لم استطع معه التنصل منها ، فقلت دون تردد :

ـ انا موافق .

اهتزت بجسمها شبه العارى ، وقالت :

ـ انت موافق على ذلك ؟

فهززت رأسى ، فقالت :

ـ أسمعنى مرة اخرى :

ـ انا موافق .

ـ ما اطيبك يا اخى !

التمعت عيناها ببريق الفرح تحت ضوء القمر الخافت ، وانقضت على جسمى ، وقبلتنى من وجهى قبلة شديدة . لم احول وجهى ، بل بقيت ساكنا تماما . ثم اطبقت عينى ، واحسست بأذنى وقلبى المتوتر انها تلمست حذاءها بقدمها ، ثم انسلت الى الجانب الآخر .

يا لكبر الكانغ فى غربى مقاطعة لياونينغ ! ...

٦

بعد عدة ايام اخذت اهبتى الكاملة ، وحان وقت وداعى وادى المناجم .

لقد استعار لى ابن خالى حصانا جيدا من الخان عند مدخل الوادى . وقال صاحب الخان انه بوسعى ركوب هذا الحصان الى حاضرة المحافظة ، حيث اتركه عند اخيه الذى يملك خانا ؛ وهناك اركب السيارة والقطار . وقد جاء ذلك الكادر من البلدة خصيصا ، وشرب نخب وداعى . اما زوجة ابن خالى فأهدتنى خنجرا جديدا منغولى الطراز ، صنعه الحداد وفق طلبها . الا انى لم اقبله ، اذ رأيت انه يكفى ان اركب الحصان ، وفى يدى المقود ، وعلى وجهى علامات القلق والتأثر والصرامة ، لأبدو رجلا محليا من غربى مقاطعة لياونينغ ، ولا داعى للمزيد . وفجأة رحت اتخيل ماذا سيحدث اذا لم اسافر الى المعهد ، ولا اعود الى الوادى ، بل احرك المقود للقيام بجولات فى انحاء البلاد على ظهر الحصان ؟ الى منغوليا شمالا ؟ او الى مدينة شنيانغ شرقا ؟ او الى محافظة بيشيان ومدينة جينتشو غربا ؟ سرف اشعر بالحيرة وفقدان الهدف فى كل هذه الاماكن . وتولد لدى نوع من الشعور العميق يصعب ان اصفه عندما ودعت الوادى على الرغم من انى سأعود اليه بعد انتهاء الدراسة . فذلك الشاى الاسود الكثيف ، ورغيف الذرة الهش الذهبى اللون ، والحصان الاحمر القاتم الذى كان يحمل الحب العميق للناس ، والكلب " الاصفر الثانى" ، وسلال الفحم الكبيرة كالتلال ، واولئك الرجال الذين كانوا معى حين سد علينا المنجم ، وابن خالى الثرثار الضعيف الجسم ، وزوجته الواسعة البصيرة الشديدة الذكاء فى تصرفاتها وتعاملها مع الآخرين ، بالاضافة الى سرير الكانغ الكبير الذى

يحمل حلمى ويثير تفكيرى .. كل هذه تجذبنى ، وتدعونى الى البقاء فى المنجم .

نظرت الى الحداد وصاحب الخان وابن خالى مبتسما ، ثم انعطفت عنهم ، والتفتت بجرأة الى الوراء ، حيث كانت زوجة ابن خالى واقفة ترفع خوذة الامن بيدها مرة بعد اخرى ، وتلقى نظراتها الحارة المثيرة على بلا انقطاع ، وتلوح بيدها لى بكل فرح ، وكأنها فتاة جبلية ، مطلقة العنان فى تصرفاتها .

تدفقت فى قلبى موجة حارة ، فحركت مقود الحصان الذى اندفع بسرعة الى الامام .

كلمة عن المؤلف



شيه يو ين .. ولد عام ١٩٤٩ فى محافظة تشينشيان بمقاطعة تشجيانغ ، وترعرع فى غربى مقاطعة لياونينغ ، ويعمل الآن فى حقل الابداع الأدبى فى مصلحة الثقافة التابعة لمدينة فوشين بمقاطعة لياونينغ . كان يعمل فى منجم فحم . وتخرج عام ١٩٨٦ فى كلية الآداب بمقاطعة لياونينغ .

نشر حتى اليوم كثيرا من الأعمال الأدبية . وقد فازت قصته « واد من مناجم الفحم » بجائزة وطنية للقصص القصيرة الممتازة فى عامى ١٩٨٥

و١٩٨٦ ، وجائزة شرف خاصة من مجلة « آداب شانغهاى» . كما فازت قصته « الصهيل وشكوى الخريف » بجائزة الأعمال الادبية الممتازة لمجلة « القصص المختارة » . وقد فاز شيه يو ين بـ " الجائزة الأدبية الوطنية للجيل الجديد عام ١٩٨٨ " فى الادب والفن ، وجائزة الكتاب الشباب الممتازين فى مقاطعة لياونينغ .

وهو عضو فى فرع لياونينغ لاتحاد الكتاب الوطنى .

تبا للغلال

ليو هنغ

كلما عادت الذاكرة بأحد الى كيفية خروج يانغ تيان كوان من القرية فى ذلك الصباح ، لا يسعه الا التفوه بعبارة واحدة دون ان يعرف مغزاها : "حمل ١٠٠ كيلوغرام من الدخن على ظهره ."

ظلت هذه العبارة تجرى على الالسن مدة ٣٠ سنة على الرغم من تفاهتها .

خرج يانغ فى صباح ضبابى يسير بخطوات خفيفة ، حاملا سلة فيها كيس منتفخ ، وما لبث ان توارى فى الضباب الكثيف . وكادت ترجح الظنون بأن سلته فارغة لو لم يستعر الدخن من جيرانه قبل عدة ايام حين افضى اليهم بحاجته مترددا خجولا . وخف فى سيره للحاجة الملحة .

ولكن الناس قالوا فى بساطة متجاهلين لهفة العزب الذى تحرقه لواعج الهوى والحنين :

— حمل ١٠٠ كيلوغرام من الدخن على ظهره .

وصل يانغ بالدخن الى مكانه المنشود ، لاهثا جاحظ العينين لم تسعفه الانفاس على الكلام . وسأله الرجل :

ــ دخن جديد ؟

فأومأ برأسه بالايجاب ، فسقطت من جبينه قطرات عرق . وقبض الرجل على الكيس ليرجح الدخن بيده بلا مبالاة ، ثم رفع الكيس على كتفه ، ووضعه فوق سرج بغل قصير كان واقفا وراءه ، وقال فى ابتسامة :

ــ اتفقنا . استرح يا اخى من فضلك .

ذهب الرجل بالبغل الذى ظهرت من خلفه امرأة ، وقفت تتأمل فى يانغ بينما نظر اليها متحفزا لذبح ذلك الرجل الذاهب . ولكن لم تبق لديه طاقة ، فأطلق تنهيدة طويلة واحس بأنه سيظل موضع سخرية طول الحياة .

انها قبيحة ومصابة بورم فى عنقها . أتستحق ١٠٠ كيلوغرام من الدخن ؟ فكر مليا ، ثم رضى اخيرا بهذه المقايضة ، فقد نال مطلوبه على كل حال . وقادها فى طريق العودة ، وهو يفكر فيما سيحدث فى سريره . ولكن جرى الواقع بأسرع مما فى خياله اذ كانت المرأة جزعة متلهفة .

وبعد ان خرج بها من البلدة سألها قائلا :

ــ متى تورم عنقك ؟

ــ من صغرى .

ــ باعك رجلك بسبب كراهيته لك ؟

ــ لقد تم بيعى ست مرات ... وانت صاحب البيع السابع

اذا شئت . هل ستبيعنى ؟ اذن ، لا تتعب نفسك فى الذهاب والرجوع ، وسوق البلدة ما زالت مفتوحة الآن . أتبيعنى ؟

— لا ... لا ...

وشعر بارتباك لصراحتها ، ثم هدأ نفسه وقال بلهجة حازمة :

— لن ابيعك !

— انت عاقل . كيف ترجع بمائة كيلوغرام من اللدخن الى الجبال لتموت ضغطا !

سبقته فى الطريق ضاحكة والورم يهتز فوق كتفها . ولم يعد منزعجا فأثبت نظره فى ردفها السمين وقدميها المسرعتين فى السير . وسألها فى شيء من عدم الاطمئنان :

— ألا يمنعك الورم من الولادة ؟

— كيف يمنعنى وهو ليس بين ساقى ؟ ! سترزق منى ولدا او بنتا كما تشاء ! ألا تصدقنى ؟

ولامست كلماتها المتغنجة اوتار قلبه المتعطش ، فقال :

— اصدقك !

ثم انعطفت الى وراء اكمة لقضاء الحاجة . ثم حملها بعد ذلك الى داخل دغل حيث مارسا الحب فى صيحات غبطة واعجاب ، ولم يخجل من ورمها عندما دخل بها القرية ، بل رأى فيه قطعة لحم عزيز .

جاءت امرأته قبل نهاية عملية توزيع الاراضى ، فلم تكفه الحصة السابقة . وخصصت القرية له ما رفض الآخرون من قطعة

ارض مهجورة منذ سنوات طويلة على الرغم من خصبها بسبب بعدها عن القرية ، وذلك بعد ان احرقتها فرقة الفدائيين لمقاومة العدوان اليابانى . وقبل يانغ هذه الارض عابسا مستسلما ، اذ صعب عليه وهو سهل الجانب ان يتوصل الى عذر يحتج به . لكن امرأته صعدت على سقف زريبة الخنازير ، تقذف شتائم فظيعة على الحيوان ظاهريا والانسان باطنيا ، فاختفى جميع مسؤولى القرية مذعورين .

– ممن تقمصتم يا خنازير ؟ هل حصلتم على البركة والسعادة بفضل سلفك فى انتهاك حق رجلى ؟ لا تشخروا ! سأسد افواهكم بالبراز . انتم منتنون حتى فى قلوبكم ...

ضحك الناس على يانغ من زواجه بامرأة قبيحة ذات ورم ، ولم يخطر ببال احد منهم انها تتحلى بمثل هذا اللسان السليط والطبع الحاد فما جرؤ احد على مجابهتها او اهانتها . وانتابت يانغ مخاوف على امرأته وهو يرى ورمها ينتفخ كلغم مستدير املس ، واحس بالرجولة تخونه وهو دون امرأته جسارة وصراحة ، وخرج من المطبخ بقرعة من الماء ينصحها فى توسل وارتعاش :

– تعبت ... كفاية ... انزلى واشربى الماء .

– انت ابكم ؟ لا صوت منك وانت فى هذا الذل والخزى ؟ جبان خسيس ! تعال وصح على الظالمين بدلا منى ، وصب اللعنة عليهم وعلى اجدادهم ...

اسند امرأته الى جدار الغرفة مكروبا بقلق شديد .. انها جامحة ، قد تعكر صفو الحياة وهدوء الايام المقبلة ، ولكنها على

اية حال مكتملة الانوثة والقوة ، ماهرة فى السرير والحقل على حد سواء ، أليس هذا ما ينشده ؟ !

كانت نشيطة فعلا . ذهبت معه بالاداة والطعام الى الجبال فبنيا كوخا قشيا عند طرف ارض نائية على منحدر الجبل ، ولم يرجعا الى البيت الا بعد خمسة ايام . فلحا الارض الخصبة عاريى الصدر نهارا ، ورقدا على فراش من القش متعانقين ليلا . فما مضت ثلاثة ايام حتى ذوى منهوك القوى ، بينما ظلت امرأته نشيطة لا تشعر بملل ، وألزمته بأن يستريح للنقاهة ، ونزلت الجبل وحدها لتعود بالبطاطا على ظهرها سلة بعد سلة . ثم قطعتها قطعا متساوية الحجم وخلطتها بالرماد النباتى وزرعتها فى الارض الرخوة قطعة فى كل شبرين . انها فلاحة قديرة .

وحصد من البطاطا محصولا وافرا فى الخريف ، فعزم ان يقدم بعضها لابن عمه يانغ تيان ده اذ لم يشهد زرعه من الدخن نموا جيدا ، وله اسرة كبيرة تضم اربعة اولاد . فاعترضت امرأته قائلة :

— هذا هراء ! أ نسيت الجوع وانت شبعان ؟ اننى اخاف من الموت قحطا فى المستقبل ! ليأكل ما يزرع ! ...

وحفرت قبوا كبيرا خلف الدار لتخزن فيه البطاطا كومة ضخمة بكل عناية كأنها بيض دجاج ، ثم اقفلت القبو .

لم يعد يجرؤ على السير فى القرية مرفوع الرأس بسبب سلاطة لسانها ، لكنه ادرك انها لم تقصر فى حقه ورضى عن عنايتها الفائقة به .

بعد سنة او سنتين ولدت له ابنا ، فأصبحت فى نظره كمن افلتت من صدفة سحرية مغلقة ، وتوفر لبنها منذ البداية ، فحين خرجوا لتناول الطعام فى حديقة البيت صيفا انبثق لبنها حين لعب الرضيع بثديها ، فوثب اللبن منه خطا ابيض ناعما الى سلطانية يانغ .

لقد اصبح لديه ثمانية افواه كبيرة وصغيرة تحتاج الى الطعام . فصحا تدريجيا من نشوة الطرب بالنسل ، وادرك انه يحفر مع امرأته ارضا بلا نهاية وكل مولود يمثل حفرة عديمة القاع لا سبيل الى ملء فراغها . وقد رق حساء الذرة ولم يعد كثيفا منذ وضعت امرأته مولودا ثالثا ، واخضر بأوراق النبات بعد ان اعتمد المولود الرابع على نفسه فى الاكل .

سمى مواليده بأسماء غلال سائغة . فالولد البكر يدعى بالدخن الكبير والبنات الاربع بالفولة الكبيرة والفولة الصغيرة والفولة الحمراء والفولة الخضراء والولد الصغير بالدخن الثانى . وتوخى لعائلته الازدهار بفضل هذه الاسماء المباركة . ولكن ما وجد هو وامرأته مفرا من ان يتنفسا الصعداء والاولاد يرقدون ضامرى البطون .

لو لم يمتز كل ولد بلسان طويل رشيق ، لما تخلص من شتم وضرب الوالدة التى تتفحص كل الاوعية بعد الاكل وتصيح حين ترى فتاتا فى السلطانية :

– قصير اللسان انت وحدك ! الحسه !

فتنهمر الدموع على وجنتيه من ضربة على رأسه ، فيمد لسانه ويدس وجهه فى السلطانية بقدر الامكان . وكان ذلك اول

عمل جدى عرفه الاولاد . وكان اذا دخل بيتهم زائر دهش بالسلطانيات الثمانى تغطى افواه افراد العائلة ويصدر عنها صوت غريب من احتكاكها بالاسنان .

حينما خيم الظلام ، ولم يعد يظهر شىء بوضوح ، خرج يانغ بصحبة النجوم يتردد بكيس صغير الى الجيران خجولا مرتبكا كأنه يقبض على قلبه المتهدج . وود لو يندس فى الكيس المرقع اذا رفض احد ان يقرضه الغلال . وكان من حسن حظه ان القرية قليلة البخلاء ، فقل عدد الرافضين ومنهم ابن عمه الذى قال :

— لا حبة منى لك الا اذا جاءتنى " الورم " !

وادرك انه لم ينس قضية البطاطا الماضية ، فاستأذن مغمغما فى حياء . ولما نقل كلمته الى امرأته هدرت بالشتم :

— أهو من انسال جدك ؟ يا له من ابن كلب !

وما نفست عن غضبها الا بعد ان رجعت ليلا بيقطينة من حقله كانت قد عاينتها فى النهار ، ثم طبختها .

وهكذا قضت العائلة ايامها .

لم يعرف احد عنها شيئا سوى انها من قرية شيشوى وعائلتها تدعى تساو . اما اسمها فقد اخبرت الناس بأنها تدعى " زهرة المشمش " . ولكن لم يصدقوها لأن قريتها تقع فى منطقة جبال جرداء خالية من اية شجرة مشمش ، بينما قريتهم غنية بالمشمش ، فاعتقدوا انها اختارت لنفسها اسم " زهرة المشمش " بعد ان جاءت الى قريتهم للزواج ولكن لا تستحقه ، فلقبوها " الورم " اشارة

الى ورم عنقها .

كانت لهجتها التى تحملها من مسقط رأسها حادة سريعة مثل صياح الديك . فظن الناس ان فمها لا يصلح الا لشتم الآخرين . وذهلوا لمدى انطلاق لسانها بالشتائم البذيئة واللعنات الفاحشة ، وقد بدا لهم كأنها رجل بل اقوى من الرجل العادى جبروتا فى اهانة خصمها وكل من يلوذ به .

جرت العادة فى قريتهم ان يضرب الرجل زوجته كما يشاء . لكنها جاءت بعادة قريتها فجعلت رجلها جبانا ذليلا يتمايل اذا ما شدت اذنه او يتأرجح من صفعاتها . فذعروا من الاقتراب منها ظنا منهم انها نمرة .

فى السنة التى ولدت فيها " الفولة الحمراء " انهار المطعم الاشتراكى وحلت بالقرية كوارث شنيعة ، فاشتهى القوم حتى جلد الشجر ، وسال لعابهم لقبضة من العشب الطرى . واتفق ان مر بالجبال القريبة فريق من الجنود فى طريقهم للقيام بمناورة عسكرية ، فتبعتهم امرأته وهى تحمل بين ذراعيها " الفولة الحمراء " التى كانت فى الشهر الثانى من عمرها . وجمعت سلة من روث البغل الذى كان يجر مدفعا . وعادت لتضعها تحت اشعة الشمس . لكن يانغ لم ير فيها سوى الروث فرفعها لصب الروث فى زريبة الخنازير . وحين رأت امرأته السلة فارغة اندفعت من الغرفة لتهوى عليه بصفعتين :

— يا ويل عينيك ! تنفر حتى من منظر روث البغل وانا ما نفرت حتى من ريح بطنه ؟ تبرز ! تبرز لنا ما يطبخ . . .

رأى " الدخن " و" الفولات" والذهم يدور تحت وطأة الصفعات متفاديا السقوط بكل ما بقى له من قوة . واطلت من سور البيت رؤوس تضحك وتتنهد . ما امرأته هذه الا نمرة شرسة ! ثم فوجئ بها تخرج الى النهر متأبطة الغربال .

نخل الروث بدقة اكثر اذ زادت فيه رائحة زريبة الخنازير . وجرفت حثالة الحشيش مع سيول النهر ، وبقى مقدار قبضتين من حبات الذرة الكاملة والمقطعة . فلاحت فى قدر من اوراق المشمش المطبوخة كأنها نجوم متلألئة ، تجلب فرحا كبيرا لعائلة يانغ ، يمضغونها بلهفة واهتمام ويشعرون بأمعاء البغل تتمعج . وقال يانغ فى نفسه وهو يلمس بعود الاكل وجنته المتورمة : " انها امرأة طيبة حقا . "

وعم القرية اقتناع بأن هذه المرأة لا بأس بها على الرغم من كل مساوئها او انها ليست فى غاية السوء .

وبفضل حظه الحسن وامرأته السليطة اللسان القاسية القلب نجت عائلته من الهلاك خلال تلك السنوات البائسة .

كانت حياتها صعبة ولكن حصولها على الرأفة والعطف اصعب : لقد استطاعت ان تعمل كرجل احيانا . ففى البيت تجر الطاحون جر الدابة المغطاة العينين ، وتحمل على ظهرها حزمة ضخمة من الحطب وترجع بها من الجبال البعيدة ، ولا تستريح خلال ذلك الا مرتين ، لكن يانغ يلجأ الى الاستراحة ست مرات . وتنقل الماء على كتفها ثلاثين دلوا فى اليوم صباحا ومساء ، لا يعوقها

المطر او الثلج ، وتخصص عشرة لعائلتها وتوزع الباقى على اسر الشهداء او العسكريين مدفوعة الى ذلك بمكافآت محددة . ولكن فى الحقول الجماعية كانت قوتها ، تتلاشى على الفور ، فتتثاقل من اللحم المترهل . وقد اختفت وراء المزروعات تصنع نعل حذاء بينما مضى الآخرون يعزقون الارض . وتأبطت لدى نقل محصول الكتان من الحقول النائية حزمة صغيرة ، وعادت مترنحة كصبية مدللة ، متجاهلة اوامر رئيس فرقة الانتاج بأن يرجع الذكر بأربعين كيلوغراما والانثى بخمسة وعشرين .

وذمها الرئيس :

— هل انتقل ورملك الى الخصر حتى عجزت عن العمل ؟

— اجل .

— . . . ولكن على ظهرك سلة ملأى .

— ألا يموت اجدادك الستة الصغار جوعا اذا كانت فارغة ؟ ليسوا من مائتك لتتجاسر على هذا القول !

ثم ضحكت فى خلاعة ، فحول الرئيس طرفه عنها دون ان ينبس بكلمة . كان فى سلتها عشب تندر وجوده بجوانب القرية ، التقطته على منحدرات الجبل حين استلقى الآخرون للقيلولة ، وغمسته فى الجدول لترجع به ناضرا مقبولا للطبخ . فماذا فى قول الرئيس ؟ لا لوم ولا مدح بطبيعة الحال . فلتفعل ما يحلو لها !

وكان هناك شيء آخر لا يكتشفه احد . لقد خبأت فى جسمها كيسا سريا ، تخرج منه اكواز ذرة او سنابل دخن او ثمرات كمثرى كلما عادت الى البيت بعد العمل . وازدادت غنائمها

بمرور الايام . ولم يقبض عليها ، اذ لم يعرف احد اين كيسها ، او لم يرغب احد فى القبض عليها . وقد حسب بعضهم انه ما بين ساقيها . فلم تكن الشهادة عليها سهلة المنال . وحتى يانغ لم يدرك كنهها ، وكل علمه انها كانت سليطة اللسان فقط ثم صارت طويلة اليد منذ وضعت الاولاد . وما عابها على ذلك ، فلسانه لا يجارى لسانها ، وقوته ليست اكبر من قوتها ، بل على العكس اعتقد بأن كل فنونها مفيدة لسد رمق العائلة الكبيرة .

ولم تحاول منع نفسها من مد يدها الى حيث لا حق لها .

زرع جارها القرع بالقرب من السور المجاور ، وازدهرت التعاريش بالاوراق الخضراء وتزاحمت الدوالى الكثيفة حتى جاوز بعضها السور الى حديقة بيت يانغ محملا بأزهار بيضاء . فرفعت " الفولة الخضراء " و" الدخن الثانى" ايديهما لجنى تلك الازهار .

فقالت " الورم " باختصار :

– اتركوها تنمو ...

وظهرت كرات منتفخة على الدالية بعد ذبول الازهار كأنما ملئت بالهواء . فدخلت امرأة الجار متسللة فى حين خرجت " الورم " الى الحقول ، واسندت القرعات بأغصان لينة للحيلولة دون هبوط الدالية وللاعلان عن ملكيتها لها . ومع ذلك لم تبد " الورم " شيئا ، بل ادارت ظهرها بابتسامة سخرية لحظة اختلس جارها النظر مطلا من السور المجاور .

كبرت القرعات حتى اصبحت تكفى الواحدة مع باذنجانتين او ثلاث لسد حاجة العائلة يوما كاملا حسب تقدير " الورم " ،

فجنتها بسرعة الريح الخاطفة ، وطبختها . ثم شتمت الجيران عندما جلس ولدهم على السور ليدعو على السارق . واندفعت فى غضب ، لا تصب اللعنات على الجار بل على القرعات كأنها بنات هوى تعرضن اجسامهن الجميلة لتغرين " الورم " الطاهرة :

– لقد فطرتن على الميل الى الدعارة . لا تنسين بعد اليوم يا حبيباتى ان تبعن اعراضكن داخل داركن ، فتحتفظن بالربح لأنفسكن ...

وساد البيت المجاور سكون خانق على الفور ، وما بقى لامرأة الجار سوى قوة اقتلاع دوالى القرع فحطمت التعاريش المزدهرة فى غيظ شديد . وقال كل من غلب على امره فى وجه " الورم " انها ليست من البشر . كما شعر يانغ بأن امرأته قد اسرها الشيطان على الارجح .

لم تكن الغلال كثيرة فى تلك السنة ، ولكن " الدخن الثانى " بلغ السابعة من عمره ، فالايام الشيطانية لا نهاية لها !

..

لم يعرف يانغ كيف بلغ الخمسين من عمره وماذا احتوى بطنه . بل كان يستلقى على السرير متبلدا كجذع شجرة ، يتذكر ذلك اليوم الذى حمل فيه مائة كيلوغرام من الدخن وهو فى ريعان الشباب ؛ فما يتمالك ان يطلق تنهيدات متتابعة .

– لم هذه التنهيدات ؟ لقد تنفست الصعداء منذ لقيتنى . هل قصرت فى حقك بعد زواجنا ؟

– بلى .

وقالت المرأة :

ــ ماذا نأكل غدا ؟

فتساءل فى نفسه وقد انتابته دهشة وذهول :

ــ ماذا نأكل ؟

ثم لبس سرواله صامتا وجلس القرفصاء مهموما اذ لمعت فى ذهنه علاقة بين الحب والاكل كأنها حل لغز معقد . وعادت به الذاكرة الى الايام الماضية ، تلقى ضوءا على ما حدث قبل مائة كيلوغرام الدخن من غوامض متراكمة حتى بدا له فى خياله اجداده الذين لم يعرفهم يمارسون الحب ويتناولون الطعام متسائلين : " ماذا نأكل غدا ؟ "

فسألها ببساطة :

ــ ما قولك انت ؟

ــ نخالة الطحين .

ــ اين التقطتها ؟

ــ فى غرفة السروج . " الفولة الصغيرة " صاحبة الفضل . انها مرجوة بنظرها الحاد .

ــ فى الحقول وراء المستودعات اجحار فئران ، قد نجد فيها غلالا جيدة .

ماذا نأكل ؟ رأى ان هذا السؤال قد شغل فكر اجداده قديما جيلا بعد جيل ، ولم يغفل هو وامرأته عنه لحظة .

هزلت امرأته يوما بعد يوم ، وأرهقتها الهموم على الرغم من انها نمرة هائلة . وتجعد ورمها فلم يعد ينتفخ كبالون املس قرنفلى

اللون عندما تقذف بالشتائم .

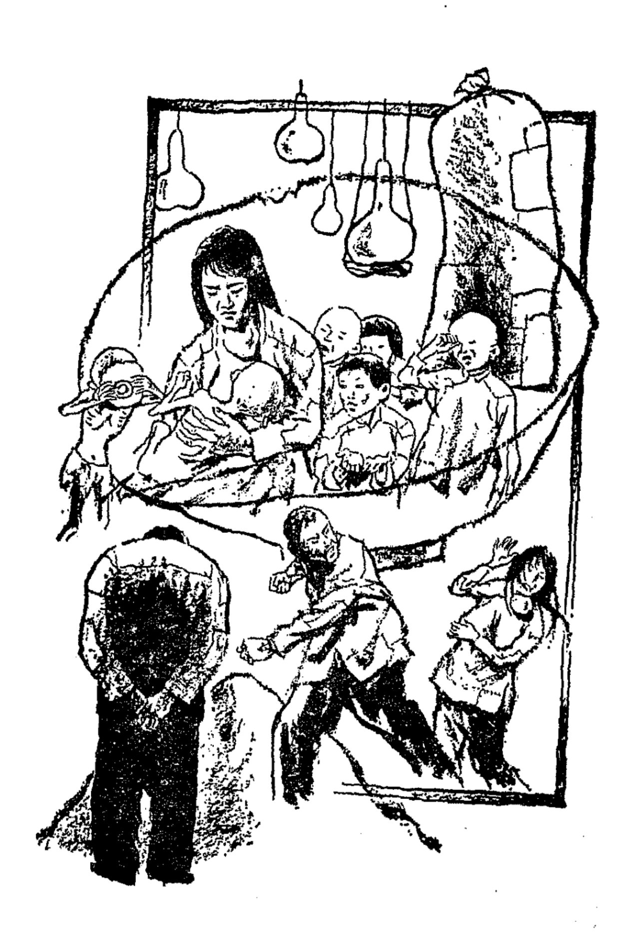
وتساءل يانغ فى نفسه متحيرا : " ألا تكفينا كل هذه الهموم والكروب ؟ "

وشعر بالنار تأكل قلبه كلما وقع نظره على اولاده الستة المهزولين يلعقون المخاط جوعا .

كم ود لو يقبض على فأرة ويضربها حتى تموت !

تحسنت معيشة القرية على نحو مقبول فى السنة التى انقطعت " الفولة الخضراء " فيها عن الدراسة والتحق " الدخن الثانى " بالمدرسة . واستمر المواليد يخرجون الى الدنيا من هذه العائلة او تلك ، فانخفضت نسبة مساحة الحقول لكل نسمة من ٠٦ر٠ هكتار الى اقل من ٠٥ر٠ ، ولكن قدمت الحكومة غلالا كافية ، فأمكن لكل عائلة يعوزها القوت ان تشترى حصتها فى المخزن الحكومى بشهادة رسمية تحدد المقدار بعشرة كيلوغرامات لكل فرد . وتتابع اناس بأكياس فارغة او ملأى على الدرب الجبلى ذهابا او ايابا قبل الحصاد الصيفى . وذات صباح حملت " الورم " من الينبوع ١٦ دلوا من الماء عازمة على حمل ١٤ دلوا آخر فى المساء . ثم اطعمت الدجاج والخنازير ، ووضعت الفطور للعائلة . وخرجت بالشهادة وهى حسنة المزاج كما وصفها كل من صادفها فى الطريق ، مع انهم ادركوا بعد حين انه ليس بفأل خير ان تظهر على السيئ الخلق امارات الطيبة .

غص المخزن بالناس المتزاحمين ، واستلقى بعضهم على



الارض . وفجأة انتبهت "الورم" وفى يدها كيس فارغ الى انها فقدت مالها وشهادتها معا . فهوت على الارض جزعا ، وصرخت صرخة حادة رهيبة وهى تتلوى وتنفث لعابها . فأحاط بها المشترون والباعة يمدون رقابهم ليتفرجوا جاحظى العيون على ورمها يتدحرج على صدرها . وخرج رجل من وراء طاولة المخزن بكوب كبير ، يحتسى منه جرعة ماء ليغرغرها فى الحلق ، ثم صب الماء على وجهها حتى هدأت شفتاها من الارتعاش بفعل جرعات الماء ، ولكن تجمد نظرها فى شرود .

ـ من اية قرية انت ؟

ـ ضاعت منى .

ـ ما اسمك ؟

ـ ضاعت منى .

ـ ماذا ضاع منك ؟

ـ ضاعت منى ، ضاعت منى ؟؟؟ ضاعت منى ؟؟؟

اصيبت بنوبة هستيرية ، فازداد حب الرجل للظهور بازدياد فضولية المتفرجين ، يضغطها بشدة متمتما :

ـ لن تضيع منك ، ارجعى الى رشدك !

واهتزت مضطربة وصاحت بحدة :

ـ ويلك !

ونهضت لتشق طريقها بين الجموع .

وانهارت بكاء مرا كأن صلابتها الدائمة ذابت دمعات منهمرة غزيرة . وانطلقت فى الدرب الجبلى الطويل ، ذهابا وايابا مرتين ،

تلمس كل حجر ، ثم تخلع ثيابها داخل الدغل لتمزق كل الرقع رجاء ان تجد شيئا اخفى داخلها . ودخلت البيت حين طلع القمر لترى يانغ يدخن الغليون تحت مصباح الزيت على جانب الخوان الذى حفظت لها فوقه سلطانية من الحساء . فأثبتت نظرها فى السلطانية شاردة الفكر .

اقبل عليها "الدخن الثانى" فى وثبات خفيفة وقال :

— اشربى الحساء يا اماه .

فقالت كقطة مطيعة :

— لا ، لن آكل شيئا . . .

وادرك يانغ فورا ان خطبا ما قد حصل . فسألها والنار تلسع قلبه . وما عرف اين يضع يديه المرتعشتين . فاذا بجرأة قوية انبعثت تركب رأسه محفوزة بما لم يبد على امرأته قط من الضعف والليونة . يا للفظاعة اذا انقلب الجبان جريئا !

ورمى بالسلطانية على الارض بعنف ، وصاح مزمجرا :

— لقد خربت بيتى !

ولم يشعر بمثل هذا الارتياح من قبل :

— انت امرأة لا تعرف الا الاكل !

وتابع هديره :

— فقدت القوت ، فلنأكلك انت !

وانقض عليها فى جنون ، واخذت يده الضخمة تهوى على رأسها وورمها بعنف . وجلس الناس خارج ديارهم يرهفون السمع فى الظلام ، وقد اتضح لهم ان رجولة يانغ قد عادت اليه فقيضى

على جبروت امرأته : واحسوا ازاءها بالشماتة ... من طبيعتها ان تبذل جهود عمرها فى سرقة قوت الآخرين ، وهى اليوم تفقد قوتها بنفسها فى غفلة عين . اضربها يا يانغ حتى تموت !

وفيما راح يضربها بعنف اذا بعويل فاجع يجعل يده تتجمد فى الهواء :

— يا رب ، انك تعرف من التقط الشهادة ، فأمره باعادتها لعائلتي ، وارجوك ! يا غلالى ...

رددت هذا العويل مرة بعد مرة ، وورمها يهتز ككرة بيضاء فى ضوء القمر . فمسح يانغ انفه ، واشعل فانوسا وخرج به .

فى منتصف تلك الليلة سمع بعض الجيران وقع اقدام " الورم " على البلاط ذهابا وايابا وهى تحمل الماء من الينبوع ، ثم دق يد الهاون مع مفرقعات حادة كأنها صدرت من تحطيم قشور صلبة . واخيرا خيم السكون كليا .

حين تلمس يانغ الدرب الجبلى ، يضىء بالفانوس هنا وهناك ، راحت امرأته تبتلع على السرير حبات لوز مر ، فيما النجوم تطل عليهما بنظرات متلألئة .

استدار على عقبيه ليعود الى البيت بعد ان نفد زيت الفانوس ، فطرق سمعه نحيب مدوى من القرية وهو على مسافة بعيدة منها .. وضجت الدار بالعويل والصياح واندفعت اليه " الفولات " من البوابة :

— اسرع يا ابت وانظر الي والدتي !

انقبض قلبه فزعا ، وتجاسر حتى تقدم الى السرير حيث امرأته تلهث لهثانا مخيفا وقد تلوى وجهها ألما . ناوله " الدخن الثانى" سلطانية فمسح سطحها الثخين بطرف اصبعه ليجد فتات اللوز فيها . وتذكر حالا ان امرأته لم تأكل شيئا منذ الصباح ، ولكنها اختارت اللوزات لقمة اخيرة . وتمنى لو اكلها معها حتى وان لم يزعجه الجوع طول عمره .

فى الفجر انطلق من القرية مصراع باب على اكتاف بعض الفتيان ، تستلقى فيه " الورم " على ظهرها بوجه شاحب منتفخ ، ويتقدمه " الدخن الكبير" دليلا ، ويتبعه يانغ بصحبة ابن عمه تيان ده . وقد نزلوا من الجبال مهرولين فى الضباب . سار يانغ شارد الذهن ، فتخيل ذلك الصباح قبل نحو عشرين سنة ، لكن الدخن قد اثقله وضغطه حتى صار قرصا دقيقا من العظام .

وصاح " الدخن الكبير" :

— يا ابت لك كلمة من والدتى !

وضع الباب على الارض وانحنى يانغ الى امرأته ، ولكن لم يسمعها بوضوح ، فنحى ورمها جانبا ليقترب بأذنه من شفتيها :

— تبا !

وتابعت بعد وقت طويل :

— للغ ... لال ...

فأومأ برأسه بالموافقة فى حزن ، ولمس شعرها لمسة اخيرة ؛

وقبل ان يخرج الباب من الوادى حل " الدخن الكبير" محل ابن تيان ده الذى اراد ان يتبول . فانعطف الى وراء صخرة

ضخمة ليقضى حاجته ، فاذا به يطلق صرخة جنونية . فأسرع يانغ اليه ليرى لأول نظرة تلك اللفة المربوطة بحزمة مطاطية ، ترقد عند اسفل الصخرة متوارية تحت عدة اوراق عشبية كأنها حجرة جيرية ، وبالقرب منها قطعتان من براز انسان بلون اخضر قاتم ، وعرف يانغ سبب خضرتهما ، ولكنه تسمر مكانه ذاهلا مشوش الذهن ، يقلب نظره كالاحمق هنا وهناك . واربد وجهه فى شحوب داكن .

لقد هجرت " الورم " الدنيا . والتقط ابن تيان ده اللفة وهتف متباهيا بفضله :

— لقد رد الله الشهادة اليك !

كانت مفتوحة العينين مفروجة الشفتين صفراء الورم ، كأنها دهشت من هذا الخبر المفاجئ .

— انظرى يا سيدتى !

وصاح به يانغ :

— اسكت يا غبى !

وبكى " الدخن الكبير" . ورفس تيان ده ابنه رفسة ، ثم ألحقها بأخرى عليه بعد ان اطل على " الورم " ليجد روحها قد فاضت . تناول يانغ اللفة دامع العينين وسحب كيس خيش من الاكياس المفروشة تحت جسم امرأته ، اذ يلزمه شراء الغلال بدلا من الذهاب الى العيادة . ورجع الآخرون حاملين " الورم " . وهكذا تفارق الزوجان جثتين ، جامدة وحية .

وعاد بالغلال ليعمل بها اكلة مشبعة تكريما لمن يساعده

فى الجنازة من اهالى القرية ، وقد زاحمهم اولاده بتهور لا يعاب ، يبتلعون الطعام فى نهم ولذة . لم تكن والدتهم الراحلة مخطئة بحقهم .

تركته يفكر منفردا فى ما شغل بالهما من قبل .. ماذا نأكل غدا ؟ فأدرك مدى اجهادها الماضى ، كما تركته يتقلب عاريا فى الليل على فراش خال ، يتألم بفراغه وشتيمة امرأته الحادة تدوى فى خياله : تبا ... للغلال !

تحسر على ان فارقته شريكته الامينة الفاضلة .

لقد زالت النمرة فساد القرية سكون ممزوج بالوحشة . لم تسر الحياة فى نشاط كامل من دون مرافقة شتائمها بينما شعر " الادخان " و" الفولات" بالراحة لتحررهم من سيطرة والدتهم المستبدة . وعلى كل حال تغيرت المعيشة يوما بعد يوم ، فكانت بطونهم تمتلئ فى معظم الاحيان على اتساع حجمها .

واليوم تجاوز يانغ الستين من عمره وما زال هادئ المزاج رقيق اللفظ مثل امرأة . ما اختال متبجحا بقوة رجولته طول حياته سوى مرة واحدة ، حاول جهده فيها ، ولكن كفاه قتل امرأته . انه يعرج على قبرها دائما فى طريقه الى الحقول التى يقوم بزراعتها ، فيقتلع الاعشاب الضارة على جوانبه وهو يحس بندم شديد .

كاد الاولاد ينسون والدتهم كأنهم غير مدينين لها . وقد زادت ثقتهم كلما استعرضوا الماضى بأنها امرأة لا يمكن فهمها . وتصفح " الدخن الثانى" لدى دراسته الثانوية كتابا طبيا ، فوجد ان ورم

امه هو تورم الغدة الدرقية ، فاذا به يتخيلها تسير بكرة لحم معلقة على عنقها ثم ما لبثت ان اختفت فى لمح البصر ، فدل ذلك على لهفته عليها وبعده عن العقوق . اما "الدخن الكبير" والبنات الاربع فقد انجبوا اولادا يمتنعون عن اللعب باللوز المر — لعبة الاطفال الشائعة فى القرية ، فاتضح انهم يحفظون بعض الحوادث فى نفوسهم .

ظل المسنون يتندرون بحكاية "الورم" . وقد اعتادوا ان يستهلوا الحكاية بعبارة .. حمل ١٠٠ كيلوغرام من الدخن على ظهره ، مركزين على كلمة "من الدخن" للتوضيح بأن المحمول لم يكن ترابا او حجرا او حطبا ، بل كان دخنا او غلالا يضن بها الناس ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

ومن اجلها جاءت "زهرة المشمش" وراحت ، ولكنها احبتها حبا جما .

— تبا ... للغلال !

لم تشتمها بقدرما تعزها . ولكن ما نيتها الحقيقية ؟ يمكن استيضاح ذلك من يانغ الذى يطوف بقبرها دائما . فهو قد يفهمها .

كلمة عن المؤلف



ليو هنغ . . اسمه الاصلى ليو قوان جيون . . من ابناء بكين ، ولد عام ١٩٥٤ . تعلم اللغة الروسية فى المدرسة الابتدائية والاعدادية والثانوية التابعة لمعهد اللغات الاجنبية ببكين . انضم الى الجيش عام ١٩٦٩ وخدم فى السلاح البحرى ، وتسرح منه عام ١٩٧٥ ، ثم اشتغل عاملا فى مصنع السيارات . وانتقل الى دار مجلة « آداب بكين » عام ١٩٧٩ حيث يعمل محررا حتى اليوم .

فى عام ١٩٧٧ نشر قصته الاولى « مطحنة حجرية صغيرة » ، ثم نشر روايته « الثلج الاسود » وقصصه المتوسطة « وجار الذئاب » و« القوة » و« دوامة الحب » و« مأساة الحب » و« اربعة رجال » و« ادلة كاذبة »، كما نشر قصصه القصيرة « رجل » و« نبأ الغلال » و« القتل » .

استرجاع عشر سنوات من العمر

تشن رونغ

ذاع خبر غير رسمي فى مبنى الموظفين كأنه هبة نسيم الربيع :

ـ من المأثور ان السلطة العليا ستصدر وثيقة ، ترجع اعمار الجميع بمقتضاها عشر سنوات الى الوراء !

فأعرب سامع عن ارتيابه ، وهو يقول :

ـ مستحيل !

ـ لك حرية التصديق وعدمه !

واصل القائل كلامه وهو يبدى البرهان فى غضب :

ـ ان جمعية العمر الصينية قد وضعت مسودة وثيقة ، بعد ان اجرت تحقيقات ودراسات استغرقت مدة سنتين ، وعقدت اجتماعا خاصا استغرق ثلاثة اشهر . اما الآن ، فقد قدمتها للجهة العليا ، وستتم الموافقة عليها قريبا جدا .

صار المرتاب بين الشك واليقين :

ـ أهذا امر حقيقى ! ؟ اذن فهو خبر جديد خارق للعادة !

واضاف القائل يوضح بما فيه الكفاية :

ـ اجمع اعضاء جمعية العمر على ان "الثورة الثقافية"

التى استغرقت عقدا من السنين قد اهدرت عشر سنوات من الحياة الثمينة لكل منا . فالعدد السالب المتمثل فى هذه السنوات العشر من المفروض تنقيصه ...

ان قوله لمعقول . ان ما كان بين الشك واليقين قد اصبح بمعزل عن الظنون والشبهات :

— اذا تم الرجوع بالعمر عشر سنوات حقا ، فان عمرى سيصبح ٥١ سنة بدلا من ٦١ سنة . ما اروع ذلك !

وقال آخر ، وهو يقهقه :

— وانا كذلك ، سيصبح عمرى ٤٨ لا ٥٨ !

— حبذا ، يا له من خبر سار !

— عظيم ، رائع !

وسرعان ما انتشر الخبر انتشار النار فى الهشيم :

— هل سمعت البشرى ؟ ارجاع العمر عشر سنوات !

— هذا صحيح تماما ، تقليل عشرة اعوام !

— تقليل عشرة اعوام !

وشرع الناس يخبرون بعضهم بعضا .

وقبل انتهاء وقت الدوام بساعة ، لم تكن بالمبنى عين .

رجع جى ون ياو البالغ ٦٤ سنة من عمره . وما ان دخل الباب حتى هتف باتجاه المطبخ :

— تعالى بسرعة يا مينغ هوا !

— ماذا جرى ؟

خرجت فانغ مينغ هوا مهرولة فور سماعها صوت زوجها ، وبيدها بعض الخضار لم تفرغ من تنظيفه .

وقف جي ون ياو وسط الحجرة ، واضعا يديه على خصره ، وقد اشرق وجهه بشرا . ولما سمع وقع قدمي زوجته ادار وجهه فجأة ، وقال بلهجة قاطعة وعيناه تقذفان الشرر :

ـ غرفتنا هذه بحاجة الى اعادة ترتيب . احجزي غدا طقما من الاثاث الروماني الصنع .

تقدمت فانغ مينغ هوا في عجب وريب ، وتساءلت في صوت منخفض :

ـ هل جننت يا لاو جي ؟ ما لنا الا بضعة آلاف يوان من المدخرات ، فاذا انفقناها كلها ، فماذا سنفعل . . .

فقاطعها لاو جي صائحا وقد احمر وجهه :

ـ انك لا تعرفين شيئا ! علينا ان نعيش ايامنا من جديد !

توافق الابن والبنت دون مشاورة سابقة في الخروج من غرفتيهما . لقد سمع كل منهما ما يعلن الاب بصوت عال ، ماذا حدث ؟ ماذا يفعل ابوهما المسن العصبي في هذه المرة ؟

ـ ابعدا ، ابعدا ليس في الامر ما يهمكما .

واخرج لاو جي ابنه وابنته اللذين مدا رقبتيهما ونظرا يستطلعان الامر .

وبعد ذلك اغلق الباب ، وقفز خطوتين الى الامام ، وضم زوجته الى صدره على نحو غير مألوف . فأثار تصرفه هذا دهشتها وخشيتها في آن واحد . انها لم تشهد مثل تصرفه هذا منذ عشرات

الستين . فخطر ببالها ان زوجها ليس طبيعيا : فهو منقبض الصدر كئيب المظهر فى هذه الايام نتيجة تقدمه فى السن واضطراره الى التقاعد . كان يتنهد ويتلهف على فراشه فى الليل دون اكتراث بغيره ، كأنها ليست الى جانبه . ولم يكن ليتصرف هذا التصرف المعبر عن الحب حتى فى الليل ، فكيف فى وضح النهار ؟ ! ما باله اليوم ؟ وكيف يقلد المشاهد التلفزيونية وهو فى الستين من عمره .

تورد خداها استحياء . اما لاو جى فلم يحس بأى شىء ، وظلت عيناه مشتعلتين كأنهما نار متأججة ، ومشى بزوجته المنذهلة الى كرسى الخيزران ، وهو يكاد يأخذها فى حضنه ، ثم اجلسها بيديه ، وهمس فى اذنها بسرور غامر :

ـ اليك هذا السر ، ستصدر وثيقة فى الحال ، وسوف تعود عشر سنوات بأعمار كل منا .

ـ تعود . . عشر . . سنوات ؟

وقعت الخضار من يدها على الارض ، وجحظت عيناها جحوظا عجيبا ، وقالت :

ـ ماذا ؟ أحقا ما تقول ؟

ـ ليس فى ذلك مجال للشك ، ستصدر الوثيقة توا . . .

ـ يا الهى ! يا لطيف ! يا اماه !

قامت فانغ بغتة ـ لا تعرف ماذا اصابها ـ فطوقت بذراعيها كتف زوجها الهزيل النحيف ، وطبعت لثمة سريعة على خده الطويل . لقد عادت الى ما قبل ٣٠ عاما ، ولكن فعلها هذا روع

نفسها ترويعا . ذهل لاو جى برهة ثم رفع يدى زوجته ، ودار الزوجان ثلاث مرات وسط الغرفة من غير توقف .

لم ينته هذا الدوران المفعم بالحبور الا بعد ان كفت يداها ، فربتت صدرها الممتلئ وقالت :

— يا الهى ، اشعر بدوار !

— ما رأيك يا عزيزتى ؟ أليس معقولا ان نشترى طقما من الاثاث الرومانى ؟

— والله معقول جدا .

والتمع فى عينيها الواسعتين نور ساطع .

— علينا ان نعيش ايامنا من جديد ، أليس كذلك ؟

فردت عليه بنبرة مرتعشة وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

— بلى ، انه لكذلك .

جلس لاو جى على الاريكة الصغيرة ، واغمض عينيه لحظة ، فجاش فى ذهنه ما يشبه سيولا متدفقة من الافكار والخواطر المتنوعة . وفتح عينيه فجأة ، وقال بحزم وعزم :

— طبعا ، معالجة الشؤون الشخصية امر هين ، فأهم شيء هو انه اتيحت لى فرصة لمواصلة العمل مدة عشرة اعوام . لن ادخر جهدا فى سبيل اجادة عملى هذه المرة . ما دام فى المصلحة خمول وكسل ، فلا مفر من نقد شديد لذلك وتدخل شامل فيه . وكذلك الخدمات العامة ، فمرشح مدير المكتب ليس ملائما اصلا . اما قسم السائقين فقد اصبح قسم الامراء بكل معنى الكلمة ، فلا بد من تقويمه و . . .

ولوح بذراعه ، وقد التمع فى عينيه الضيقتين ضوء انفعال لا يقاوم ، وقال :

ـ مسألة الهيئة القيادية تفتقر الى اعادة النظر فيها ، ففى الوقت الحاضر لا بد مما ليس منه بد : اختيار طويل القامة من بين القصار . تشانغ مينغ مينغ ما هو الا مولع بالكتب ، لا يتحلى بأية خبرة قيادية . عشر سنوات ، اذا كانت عندى عشر سنوات ، فيمكننى ان انظم هيئة قيادية على خير وجه . ما دمنا نتخذ سياسة الاهتمام بالشباب ، فمن الافضل اتخاذها مائة بالمائة ، سوف اختار كوادر من الجامعيين الحديثى التخرج ، الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٣ و٢٤ سنة ، وسوف اعاونهم يدا بيد طيلة السنوات العشر ، وعندما يحين ذلك الوقت . . .

لم تجد فانغ مينغ هوا لذة فى اعادة تنظيم الهيئة القيادية ، فقد كانت تتطلع الى الحياة السعيدة فى المستقبل .

ـ الاريكة ، فيما ارى ، يجب تبديلها .

ـ لا حرج عليك ، فبدليها بطاقم كامل ومن احدث طراز .

ثم نظرت الى السرير ، وقالت وقد احمر وجهها :

ـ والسرير ايضا ، علينا ان نستبدل به سريرا وثيرا .

ـ انت على صواب . فقد نمنا طول عمرنا على هذا السرير الخشبى ، فطبيعى ان نبدله الى ما يتمتع به الاجانب من الاسرة الوثيرة .

ـ النقود . . .

— النقود شيء تافه .

وقال جي ون ياو بحماسة بالغة :

— اهم شيء هو زيادة عشر سنوات ، آه ، هذا لا يقدر ولا يشترى بأى ثمن !

وفيما هما مستغرقان فى تبادل ميولهما المشتركة واحاسيسهما المتوافقة فتحت ابنتهما الباب قليلا ، وسألت :

— ماذا سنتناول فى العشاء يا امى ؟

— آه ، اطبخى كما تريدين !

كانت فانغ شاردة الفكر ، قد نسيت الاكل تماما .

لوح لاو جى بيده رافضا ، وقال :

— لا ! فلنخرج اليوم لأكل البط المشوى ، على حساب بابا . احجزى المقاعد مع اخيك الكبير اولا ، وانا وامك سنلحق بكما بأسرع وقت ممكن .

— آه !

فتحت البنت فمها الصغير . ولما وجدت ابويها غارقين فى جو من البهجة والغبطة ، لم تسأل شيئا آخر بل بادرت الى مناداة اخيها .

انطلق الاخ واخته الى مطعم البط المشوى مسرعين ، وهما يتحاوران فى الطريق . فقال الاخ انه من المرجح ان يبقى ابانا فى منصبه على الرغم من انه فى سن التقاعد . اما الاخت فقدرت ان اباهما قد يرقى الى درجة جديدة ، كما سينال مبلغا من المال . وطبيعى ان لا يهتدى اى منهما الى التقدير الصحيح ، والرجوع

بالعمر عشر سنوات ، فذلك اثمن من اى منصب او درجة بألف مرة ، بل بعشرة آلاف مرة !

كانت تتدفق الالفاظ من فمى الزوجين المسنين فى البيت كالمياه المنهمرة .

— يا مينغ هوا ، عليك ان تتزينى وتجملى نفسك ايضا ، فاذا تم ارجاع عمرك عشر سنوات ، فستصبحين فى الثامنة والاربعين فقط .

— انا ؟ ٤٨ ؟

همست فانغ مينغ هوا كأنها فى حلم . وانتعش ما توارى منذ زمن طويل من حيوية وشباب جسمها السمين المتراخى ، مما جعلها تقع فى حيرة .

— اشترى غدا معطفا مبطنا برتقالى اللون .

قال لاو جى ذلك وحدق بنظرة ناقدة الى بذلتها الرمادية الملتصقة بجسمها ، ثم قال بلهجة قاطعة لا تخلو من احتجاج :

— لم لا يجوز ان نسعى وراء الموضة ؟ انتظروا ، سأشترى جاكيتا من الطراز الايطالى كالذى يلبسه تشانغ مينغ مينغ ، حالما ننتهى من تناول الطعام . انه فى التاسعة والاربعين من عمره ، فلماذا لا يمكننى ارتداء ما يرتديه هو ؟ !

— معك حق !

سرحت الزوجة شعرها الاشيب الذاوى الذى خبا لمعانه ، واضافت :

— الى جانب ذلك علينا ان نلون شعرنا فى صالون تجميل

رفيع المستوى برغم ان ذلك سيكلفنا بعض النقود . اف ، هؤلاء الشباب يشكون اننا محافظون ، والواقع اننا نعرف التمتع بالحياة اكثر منهم ان عدنا الى ما قبل ١٠ سنوات ...

وثب لاو جي ناهضا ، ورد عليها بصوت عال :

ــ معك حق ، يجب ان نتمتع بالحياة . لا بد لنا ان نقوم برحلات الى كل من جبل لوشان وجبل هوانغشان ووادى جيوتشايقو ، ولنا ان نذهب الى البحر وان كنا لا نعرف السباحة . اننا فى العقد الخامس من العمر ، اى فى ريعان الشباب . وا أسفاه ، لم يسبق لنا ان عرفنا التمتع بالحياة فعلا .

وقالت الزوجة تحدث نفسها :

ــ هكذا يصبح عمرى ٤٩ سنة فقط بعد ارجاعه عشر سنوات ، وذلك يعنى اننى استطيع ان اعمل مدة ست سنوات ، سأعود ايضا الى المصلحة لكى ابذل قصارى جهدى فى اتقان عملى .

ــ انت ...

يبدو ان جي ون ياو فى تردد .

اما فانغ مينغ هوا فلم تزل فى انفعال :

ــ ست سنوات ، ست سنوات ، استطيع ان اعمل ست سنوات !

قال جي ون ياو اخيرا :

ــ بالنسبة لك انت من الخير ألا تعملى لأن صحتك ليست جيدة ...

ـ انا سليمة الصحة .

كانت فانغ مينغ هوا متلهفة للبدء فى العمل ، فأحست بالفعل انها تتمتع بصحة جيدة .

ـ اذا ذهبت الى العمل مرة اخرى ، فمن الذى يؤدى هذه الشؤون المنزلية الكثيرة ؟

ـ لنحضر خادمة !

ـ ماذا ! ان الخادمات الآن من عصابة مقاطعة آنهوى ، فكيف نطمئن الى تسليم بيتنا هذا اليهن ، وهن فى غاية الاهمال ؟!

فترددت فانغ مينغ هوا بعض الشىء ، وتابع الزوج يقول :

ـ بالاضافة الى ذلك يحسن بك ألا تسببى المتاعب للقيادة ما دمت قد تقاعدت ، أليس كذلك ؟ لو طلب جميع الرفاق القدامى المتقاعدين ان يعودوا الى المصلحة ، أ فلا تحدث فوضى واضطراب ؟

ولم يتمالك ان يرتعش حين خطر ذلك على ذهنه . فقالت فانغ مينغ هوا فى الحاح :

ـ غير ممكن ، لا يزال عندى ست سنوات من الوقت ، فكيف ابقى بلا عمل ؟ اذا كنت لا توافق على عودتى الى المصلحة ، فمن الممكن ان ابدل عملى . فأشتغل مثلا امينة للجنة الحزبية فى شركة ما او نائبة الامين ، ما رأيك ؟

ـ ... الشركات فى الوقت الراهن متعددة الانواع ، وهى مضطربة للغاية .

ـ بسبب هذا الاضطراب لا بد من تقوية القيادة فيها .

وبالنسبة للقيام بالعمل الفكرى فلا مندوحة من الاعتماد علينا نحن الرفاق القدامى المحنكين .

ــ اذن ، ما عندى مانع .

واعتبرت موافقة زوجها بمثابة موافقة رئيس قسم التنظيم التابع للحزب ، فهتفت بفرح وسرور قائلة :

ــ ما اروع ذلك ! هذه الجمعية تدرك ارادة الشعب ايما ادراك ! تنقيص عشر سنوات . . . كل شىء يبدأ من جديد . ان ذلك لم يخطر ببالى ، ولو فى الاحلام !

ــ ولكنه خطر ببالى ، ببالى انا ، حتى فى الاحلام !

تأثر جى ون ياو ثانية ، وقال صارخا فى حماسة بالغة :

ــ لقد سلبت "الثورة الثقافية الكبرى" عشر سنوات من عنفوان شبابى . عشر سنوات ، عشر سنوات ! كم من الاعمال كنت استطيع القيام بها فى تلك السنوات العشر ! ولكنها ذهبت سدى ، ولم يبق لى الا شعر ابيض وجسم عليل . من يعوضنى عن هذه الخسارة ؟ ولماذا انا الذى يبتلع هذه الثمرة المرة ؟ فليرجع الى شبابى ، ولترجع لى سنواتى العشر المفقودة . ما اعظم عمل هذه الجمعية ! كان ينبغى لها ان تقوم بذلك منذ زمن طويل .

سارعت زوجته الى تحويل دفة الحديث خوفا من اعادة ذكرى المرارة الماضية ، فقالت :

ــ حسنا ، هيا نذهب لتناول البط المشوى !

تشانغ مينغ مينغ ــ فى التاسعة والاربعين من عمره ــ تشتبك

فى ذهنه احاسيس مبهمة ، فرح ؟ حزن ؟ حلاوة ؟ مرارة ؟ لا يقدر بدوره على توضيحها . كأن فيها كل شىء ، وكأن فيها لا شىء.

انه مسرور من ارجاع عمره عشر سنوات . وهو يدرك قيمة الوقت لكونه كادرا اختصاصيا يمارس البحوث العلمية . ان استرجاع عشر سنوات من الوقت لهى فرصة ذهبية ، لا سيما بالنسبة اليه — مثقف كهل يقرب من حلقته الخامسة من العمر . انظر الى الذين حققوا المنجزات العظيمة فى البحوث العلمية ، وقرأوا رسائل فى الندوات الدولية اقامت الدنيا واقعدها ، تجد اعمارهم فى العشرين او اكثر بقليل ، والذين سبقوا غيرهم فى مجال معين كما اعتبروا من الثقات فى العالم اعمارهم فى الثلاثين او اكثر بقليل . ما اكثر الامثلة على ذلك ! ثم نظر الى نفسه ، كان طالبا متفوقا فى الجامعة ، يتمتع بموهبة فذة فى عين المعلم الخصوصى ، ولم يكن اساسه اضعف من غيره . ولكن للاسف لم يولد فى اوانه ، فاضطر الى اصلاح الكرة الارضية . حين التقط مؤخرا المعلومات الفنية التى قد اصبح لونها اصفر لم يحس الا بأن عينيه غريبتان عنها ودماغه فارغ من كل شىء ويديه ترتجفان . والآن عاد الى الوراء فجأة عشر سنوات ، فبوسعه ان يقوم بكل شىء من جديد . واذا ضاعف من اجتهاده وكانت ظروفه للبحث العلمى افضل ، واذا لم يضيع وقتا فى المجادلة فى الاشياء التافهة وتأدية الاعمال البسيطة ، فانه ليستطيع ان يحول عشر سنوات الى عشرين سنة ، ويظهر كل موهبته ومقدرته فى الرحلة الطويلة نحو قمة العلوم والتكنولوجيا فى العالم .

انه مسرور ، مسرور مثل الآخرين ، بل اكثر منهم سرورا ؛ ولكن زميله قال له وهو يربت على كتفه :

— ما الذى يفرحك انت يا لاو تشانغ ؟

فقال :

— لم لا ؟

— ان تم استرجاع عشر سنوات صار جى ون ياو فى الرابعة والخمسين من عمره ، فمن حقه الا يتقاعد ، وعندها ستتبخر ترقيتك الى رئيس للمصلحة .

اجل ، اجل ، لن يتقاعد جى ون ياو بعد استرجاع عشر سنوات ، لا يشاء ذلك ، يناسبه البقاء فى منصب رئيس المصلحة . اما انا فمن الطبيعى الا اجلس مجلس رئيس المصلحة ، سأستمر فى عملى الحالى مهندسا ، وازاول مشاريع البحوث العلمية ، واتردد بين المختبر والمكتبة ... ولكن مسؤول الوزارة استدعانى اول امس ، وقال ان لاو جى قد تجاوز خط العمر وانه سيتقاعد هذه المرة ، كما كلفنى بالاشراف على اعمال المصلحة ، أ فلا يعنى ما يقول ؟

حقا انه لا ينوى ان يكون كادرا . ففى استمارة سيرته ، اعلى منصب هو مسؤول خلية ، واعلى مؤهل سياسى هو الاشراف على اجتماع الخلية . لم يخطر قط بباله ان يرتبط اسمه بأى منصب ، ناهيك عن هذا المنصب العالى — " رئيس المصلحة " . كان " مولعا بالقراءة " منذ نعومة اظفاره ، وكان " شتلة التحريفية التى تسلك طريق الكفاءة فى الاختصاص دون وعى اشتراكى"

فى اثناء " الثورة الثقافية الكبرى " . بعد سحق " عصابة الاربعة " انهمك فى عمله ، وهو فى داخل المختبر ، لا يتكلم مع غيره طيلة اليوم ولو كلمة واحدة .

ولكن – لأسباب مجهولة – انتخب من عداد المرشحين للكوادر . فقد ظهر اسمه فى صدر قائمة المرشحين فى كل استفتاء من الاستفتاءات من اجل تعديل هيئة القيادة ، بقدرما حدث فى كل امتحان حين تعلم فى المدرسة او الجامعة . وبدا هذا الامر مؤكدا كل التأكيد . ولكنه مع ذلك لم يستطع ان يفهم فى قرارة نفسه : فى اى مناسبة او فى اى امر ابدى كفاءة قيادية جعلته ينال محبة من السلطة العليا وثقة واحتراما من الجماهير ؟ وبعدما قلب الامر ظهرا لبطن شعر بالخجل والحياء لأنه لم يمتلك كفاءة عمل الادارة او بالاحرى الكفاءة القيادية .

زوجته شيويه مين رو زوجة صالحة وام مثلى ، ليس عندها جمال بارز ولا قدرة فائقة ، ولكن يمكنها ان ترى بوضوح شؤون الزوج وما يدور فى مصلحته من نزاعات وجدالات . فقالت :

– السبب فى ترقيتك الى منصب القيادة يرجع الى انه تنقصك الكفاءة القيادية ليس الا .

ما هذا الكلام الغريب ؟ ذهل تشانغ مينغ مينغ اول الامر ، وبعد ان فكر فيه مليا وجد انه صحيح الى حد ما . فهو تنقصه الكفاءة القيادية : ليس عنده رأى حازم ، ولا يود الاشتراك فى المنافسة على منصب اعلى ، وهذا كله يجعل جميع الاطراف المعنية تطمئن اليه . ولعله – لهذه الاسباب بالضبط – لقى

هذه الفرصة الجميلة .

وبالطبع ، ظهرت " المعارضة " الى حيز الوجود . فقيل انهم تجادلوا حول " مسألة " تشانغ مينغ مينغ طيلة فترة بعد الظهر ، وذلك فى اجتماع من اجتماعات اللجنة الحزبية للمصالحة . لم يعرف ماذا قالوا فيه ، ولم يعرف ايضا ما " مشكلته " . لقد شعر فقط بأنه اصبح " رجل نزاع " بعد ذلك ، كما احس بأن هذا " النزاع " لن ينتهى و" مشكلته " لن تتضح الا اذا شغل منصب الرئيس يوما ما .

خلال تلك الاستفتاءات غير المنقطعة والنزاعات غير المتوقفة ، تعود تشانغ مينغ مينغ دوره تدريجيا ، كما تعود انه رجل " سيرقى الى فوق " و" رجل محل نزاع " فى عيون الناس . وعلاوة على ذلك وجد من غير وعى انه يستطيع فى بعض الاحيان اجادة عمل الرئيس فعلا ، وان لم يتول هذا العمل ابدا .

قالت زوجته :

ـ اقبل ما يأتيك من تلقاء نفسه . انك على كل حال لم تأخذه عن طريق المنازعة ولا المنافسة . واذا شغلت منصب الرئيس ، فسوف تصبح فى غنى عن زحام الناس فى السيارة العامة على الاقل .

ولكن ذلك تلاشى الآن كالوهم . فهو متأسف نزعا ما . لقد صدق ذلك القول : انه مذاق يتعذر التعبير عنه .

عاد تشانغ مينغ مينغ الى بيته ، والاحساس بالذهول لا يفارقه .

ـ لقد عدت فى الوقت المناسب ، فالطعام جاهز .

واتجهت زوجته نحو المطبخ ، ثم خرجت منه ثانية وفى يديها صينية فيها طبق من اللحم وطبق من الخضار وسلطانية من حساء البيض مع الخردل الدرنى المفلفل . اللحم لا دهن فيه ، والخضار نضرة ، وكلاهما يفتحان الشهية .

الزوجة ربة منزل قديرة وامرأة لطيفة ، تراعى مشاعره ، ولها ذكاء حاد ويد صناع . ففى فترة المجاعة التى استمرت ثلاثة اعوام كان كثير من جيرانهما مصابين اما بالتهاب الكبد واما بالاستسقاء ، بينما راحت شيويه مين رو تطبخ الحبوب الغذائية القاسية بطرائق مختلفة ، وتطبخ الحساء بالعظام ، وتعد طعاما من قشر البطيخ بدلا من الخضار . وهكذا حافظت على صحة افراد الاسرة جميعا . واليوم انفتحت سوق التجارة للفلاحين ، وارتفع سعر السمك ، فأصبحت كل اسرة تشكو من ثمنه الباهظ . ولكن شيويه مين رو لها طريقة خاصة بالشراء ومهارة فذة فى الطبخ ، وتسمى ذلك " اطعمة جيدة بنقود قليلة " . عندما رأى تشانغ مينغ مينغ هذه الاطعمة الشهية غسل يديه ، وجلس امام المائدة ، وتناول عودى الاكل وقال :

— هذا الكرفس طرى ، وثمنه غير غال ، أليس كذلك ؟ وتقول الصحيفة ان كثرة اكله تخفض ضغط الدم .

فابتسمت شيويه مين رو دون ان تنبس ببنت شفة .

— والخردل جيد ايضا ، فالحساء قد اصبح ألذ بعد احتوائه قليلا منه .

ظلت شيويه مين رو تبتسم دون ان تتكلم . واستمر تشانغ



مينغ مينغ فى مدح هذا العشاء العادى :

ــ اللحم المحمر مع الخضار المجفف ...

فابتسمت شيويه مين رو ، وهى تقاطع كلامه متسائلة :

ــ ما بالك اليوم ؟ ماذا جرى ؟

بدا تشانغ مينغ مينغ كأنما اعترته دهشة ، وقال :

ــ كلا ! لا شيء ! اقول الآن : سلمت يداك .

فقالت شيويه مين رو وهى ما تزال تبتسم :

ــ تأكل الطعام كل يوم دون ان تبدى رأيك فيه ، فماذا بك اليوم ؟

رد تشانغ مينغ مينغ فى شيء من الارتباك :

ــ ربما سبب قولى اليوم هو اننى لم اكن اقول ذلك من قبل ...

فقالت الزوجة الذكية ، وكأنها استطاعت قراءة ما فى ذهنه :

ــ لا تكتم عنى حقيقة الامر ، انك تخفى ما فى ذهنك عنى .

تنهد تشانغ مينغ مينغ ، ووضع عودى الاكل على المائدة وهو يقول :

ــ لست اكتمك متعمدا ، بل انى لم افهم فهما جيدا ، فلا اعرف كيف اخبرك .

ضحكت شيويه مين رو فى زهو . على الرغم من ان زوجها كادر اختصاصى يزاول اعمال البحوث العلمية ، وعلومه الاختصاصية

عميقة لا يدرك كنهها ، بيد انه يظل مهزوما امامها على الدوام ، سواء أكان ذلك فى مجال ادراك النوايا من الكلام ام فى ملامح الوجه ام فى التحليل النفسى .

قالت شيويه مين رو ، كأنها مدرسة صبورة تشجع تلميذها .

— لا بأس ، حدث ولا حرج .

— سمعت اليوم خبرا يقول انه ستصدر وثيقة حالا لتنقيص عشر سنوات من اعمار الجميع .

— مستحيل .

— حقا .

— حقا ؟

— اجل .

فكرت شيويه مين رو برهة ، ونظرت اليه بعينيها الواسعتين الصافيتين ، وهى تقول ضاحكة :

— لا يمكنك ان تشغل منصب رئيس المصلحة ، صحيح ؟

— اجل .

— أتشعر بالضيق ؟

— ليس بالضيق . لا اعرف ما هذا الشعور ، على كل حال انا غير مرتاح .

اخذ تشانغ مينغ مينغ العودين ، وحرك بهما حبات الارز فى السلطانية ، ثم استطرد قائلا :

— فى الحقيقة لست مؤهلا لأن اكون كادرا ، ولم احلم ان اكون كادرا . ولكن بعد الضجيج والعجيج فى هذه السنوات

الاخيرة خيل الى انه من المعقول ان اجلس على كرسى الرئيس ؟ ولكن الوضع الآن تغير فجأة ، فأشعر بشىء من . . .

وعجز عن ايجاد الكلمات الملائمة . فقالت شيويه مين رو بلهجة حازمة :

ــ دع عنك هذا ، ان حالك الحاضرة احسن . هل تعتقد ان ذلك عمل سهل ؟

رفع تشانغ مينغ مينغ رأسه ، ونظر الى زوجته التى ادهشته بقرارها الحاسم ونبرتها الحازمة . لما ابلغها قبل ايام انه سيصبح عما قريب رئيسا للمصلحة ظلت مسرورة فترة من الزمن سرورا قلبيا عميقا ، وكانت تقول له :

ــ انظر ، انك لم تشترك فى المنافسة ولا المنازعة ، ولكن اكليل هذا المنصب جاء من نصيبك .

اما الآن فقد وقع الاكليل على الارض ، فلم تشعر بأسف او عجب ، كأن هذا الامر لم يحدث اصلا .

ــ رئيس المصلحة ، رئيس المصلحة ، هو رئيس للمصلحة بأسرها ، سوف يأتيك الناس يشكون امورهم ــ مهما كانت ضئيلة ، هل فى وسعك تحمل ذلك ؟

واضافت قائلة :

ــ مثلا : تخصيص شقق ، وتقييم درجات وظيفية ، وتوزيع مكافآت مالية ، وحل نزاعات بين الموظفين ، وحسابات للشؤون المالية ، وتشغيل ابناء الموظفين ، وادخال اولادهم الى دار الحضانة . لا يمكنك ان تهرب من ذلك كله ، فهل انت قادر على هذا العمل ؟

صحيح ، لا احد يقدر على معالجة هذه الشؤون الكثيرة !

— خير لك ان تهتم باختصاصك ! سوف تكون منجزاتك الاختصاصية اوفر مما كانت فى ماضيك بكثير بالتعويض عما فاتك فى تلك السنوات العشر . . .

نعم ، نعم ، اين الثرى من الثريا ؟ !

اخذ تشانغ مينغ مينغ يحس بانشراح الصدر وهدوء القلب. ومن ثم نشأت فى فؤاده مشاعر رقيقة لطيفة .

وخلال استلقائه على السرير لينام تلك الليلة ، اعتقد انه سيستغرق فى نوم عميق . ولكن لسوء الحظ استيقظ فى منتصف الليل ، وهو يشعر بشيء من الاسف كأنما فقد شيئا ما .

انطلق تشنغ تشن هاى ، فى التاسعة والثلاثين من عمره ، عائدا من عمله الى البيت مسرعا درن توقف ، فخلع بدلته الرمادية القديمة ، ورماها على الكرسى بقوة ، لقد شعر بأن فى جسمه قوة لا تنفد فى انتظار الانطلاق . وبهذا التنقيص تبرز كثير من الامور الهامة امامه تتطلب منه وضع بداية لها فورا ، فهتف مناديا :

— انت ، هناك !

ما من مجيب ، ما زال الابن فى السنة العاشرة من عمره غارقا كعهده فى لهوه الجنونى فى الحارة . اذن اين المرأة ؟ هل ذهبت للدردشة مع الجيران ؟ اوه ، هل هذا بيت ؟

يبدو ان هذه الكنبة الصغيرة التى صنعها بيده غير متوازنة ولا متناسبة ، فلا يلتصق ظهرك بظهرها اذا جلست عليها . ومقعدها

مرتفع ، بينما جانباها منخفضان ، فلا يمكنك ان تريح ذراعيك عليهما . بل تتعبهما وترهقهما . الذنب ذنبها ، اذ راودتها الغيرة عندما رأت كنبات الآخرين ، واصرت على صنعها لعدم توفر نقود لشرائها . يا للتفاهة ! الحقيقة ان كل بيت يعرض فيه طقم كنبات من نفس النوع ، كأنما يرتدى الناس بدلات واحدة ، يا له من منظر ممل وتافه كل التفاهة !

هناك سؤال : لماذا اخترتها هى ؟ انظر الى عائلتها ، عائلة لا تهمها الا الغذاء والكساء والرواتب والعلاوات ، يا لها من مبتذلة . ان اهم شيء بالنسبة الى الانسان هو التربية العائلية ، وقد قيل ان ابن البط عوام . انها صورة طبق الاصل لأمها . فاذا تحدثت ، كان كلامها خشنا فظا . ولم تكد ترزق بولد واحد حتى اصبحت سمينة ضخمة كالبرميل ، ولم تعد تمت بأى صلة الى الوسامة او الرشاقة او حتى الملامح المعقولة . يا لحظى الاسود ، كيف وقع اختيارى عليها هى دون غيرها ؟

لا لوم على احد سواى . لماذا تعجلت كل ذلك التعجل ؟ ان العازب فى الثلاثين كجائع لا يتمهل فى اختيار الطعام . والآن بهذا التنقيص اصبح عمرى لا يزيد عن ٢٩ سنة . اذن ، لا بد ان افكر فى هذا الموضوع بكل جدية . امس ، بمجرد ان اشتريت بعض السجاير الغالية انفجرت غاضبة ، وصرخت فى وجهى مهددة بالطلاق ، الطلاق ؟ حسنا ، اهلا وسهلا ، سأعلنه بالثلاث . شاب فى التاسعة والعشرين ، تبتسم له الدنيا ، ويمر بفرصة ذهبية لاختيار خطيبة ، هل يصعب عليه ان يجد فتاة فى عمر الورد ؟

ستكون هذه الفتاة فى الثانية او الثالثة والعشرين ، خريجة جامعية حديثة ، مؤدبة ومهذبة وعصرية ، ملائمة لى ، انا الخريج الجامعى . اما هى فلم تحصل الا على دبلوم متوسط ، يا للاسف ! اننى نادم على ما فعلت !

لا بد من اعادة ترتيب الحياة . ويجب الا تستمر هذه الحياة تافهة عديمة القيمة ! الى اين ذهبت هذه المرأة ؟

انطلقت هذه المرأة بعد انتهاء الدوام الى متجر لوازم النساء مباشرة .

لقد طارت فرحا ، واطلقت لخيالها العنان ببشرى رد العمر عشر سنوات الى الوراء . يويه جيوان امرأة على عتبة الاربعين ، بطرفة عين عادت لتصبح شابة نضرة فى التاسعة والعشرين . كيف اتتها هذه الفرصة الرائعة ؟ انها لكنز ، انها لثروة لا تقدر بثمن .

٢٩ سنة ، انه سن الشباب والحيوية والتألق ! يا للدنيا من مشرقة ! طأطأت رأسها حتى رأت ثوبها القاتم الممل الذى لا يتميز بلون ، ولا ينطق بجاذبية ، فتملكها ألم شديد وحنق اشد ، فهرعت لتوها الى المتجر مهرولة ، واتجهت مباشرة الى معرض الملابس الجاهزة . وراحت تنقل عينيها الكشافتين بين الفساتين الزاهية المعلقة واحدا بعد الآخر وشعرت فجأة بسرور يشدهها ، انه فستان احمر ناصع بدنتلة بيضاء ! فطلبت من البائعة الشابة ان تناولها اياه لتجربيه ، لكن البائعة التى كانت فى عز الشباب ألقت عليها نظرة متفحصة ، وجمد وجهها فلم يتحرك ولو باختلاجة ودية واحدة ، كأنه قد من صخر ، ووراء هذا البرود ازدراء صامت

مبين . كيف ؟ ألست جديرة به ؟ شعرت يويه جيوان بضيق محبوس فى نفسها شبيه تماما كالذى ينتابها عند خروجها لشراء الرداء فى السنوات الاخيرة . كلما اختارت قطعة ، وذلك ليس بسهل طبعا ، نصحها زوجها : هذه لا تلائمك اذ تبدين اكثر شبابا فيها . هل من المعيب ان اكون اكثر شبابا ؟ يعنى فى نظرك من المستحسن ان اكون عجوزا ؟ فى كثير من الاحيان لم يتم الشراء ، بل يحدث بدلا منه شجار قد يستمر طيلة الليل . فلتكن حياتى كلها شؤم اذا عشت مع هذا النوع من المتحفظين !

لا تزعجى نفسك مع هذه البائعة ، فالشراء اخذ وعطاء ، ما علاقتها بذلك ؟ ثم ماذا تدرك هذه البنت الجاهلة ؟ هل تعلم ان قرارا رسميا سيصدر ؟ كيف لا تلبس هذا الفستان ابنة الـ ٢٩ ربيعا ؟ يا للصينيين من متحفظين ! انظر الى الاجانب ، كلما كبر سنهم اشتد اهتمامهم برونق الملابس ، فيخرجون بالملابس الزاهية وهم فوق الثمانين . ثم انا الذى سألبسه ما شأنك انت ؟ سوف ابتاعه ، سأبتاعه برغم انفك .

دخلت يويه جيوان الى حجيرة القياس بسرعة بعد ان دفعت ثمن الفستان ، وما لبثت ان لبست الفستان الجديد ، ووقفت امام المرآة ، فاذا بجسمها الضخم قد نفخ الفستان الاحمر الناصع الى اقصى حدود ، وانعكست فى المرآة مساحة حمراء واسعة ، الا انها تنم عن الحيوية والحرارة الفائقة فعلا . ما العمل ؟ ليس امامها الا " الرجيم " . ان العودة بالعمر عشر سنوات يتم بقرار يصدر عن القيادة ، لكن تخفيض عشرة كيلوغرامات من الوزن يتطلب

جهودا ذاتية شاقة ، فقد امتنعت عن الدهون امتناعا تاما ، ووضعت لنفسها برنامج حمية شديد القسوة ، فحتى الفواكه لا تتجرأ على تناولها . فكيف تحقق هذا الرجيم ؟

رجعت الى البيت لاهثة . وما ان دفعت الباب حتى اقتحمت الغرفة كالنار ، فقفز تشنغ تشن هاى فزعا ، وقال :

ــ ماذا جرى لك ؟

ــ وماذا جرى لى ؟

ــ من اين جئت بهذا الفستان ؟

ــ من المتجر طبعا ، ما رأيك فيه ؟

امسكت يويه جيوان بالحاشية السفلى للفستان ، ودارت حول نفسها كما تتحرك عارضة الازياء ، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة فاتنة .

ولكن مقابل ذلك صب تشنغ تشن هاى طستا من الماء البارد على رأسها حين قال :

ــ لا تعتقدى ان الاحمر او الاخضر يأتى بالجمال ، المهم من يلبسه .

ــ وماذا لو لبسته ؟

ــ هل يناسبك هذا الفستان ؟ أما زلت فى سن هذا الفستان ؟ كم عمرك الآن ؟

ــ اعرف ذلك ، ابتعته بعد ان فكرت جيدا . عمرى ٢٩ سنة ، انها سن التزين وسن الملابس .

ذهل تشنغ تشن هاى مرة اخرى ، وتمتم :

— ٢٩ سنة ؟

— نعم ، ٢٩ سنة ، لا زيادة ولا نقصان ، بعد العودة بعمرى عشر سنوات صار سنى ٢٩ سنة الا شهرا ، فلا ألبس الا الاحمر او الاخضر .

كانت يويه جيوان ترقص فرحا ومرحا ، كأنها مطربة محترفة الغناء الدارج تتحرك ذهابا وايابا على خشبة المسرح متصنعة الحياء والجنون ، فيما تغمز بعينها وحاجبها .

كيف تتصور نفسها ، وهى فى هذا السن وبهذا الخصر الغليظ ، حتى ولو ارتد عمرها عشر سنوات . فغمض تشنغ تشن هاى عينيه ثم فتحهما بقوة وحدق بها قائلا :

— غرض القيادة من خلال اصدار القرار ليس الا تعبئة الشباب وتحريك الطاقة الكامنة لدى الكوادر من اجل العمل بجهد اكبر لتحقيق التحديثات الاربع ، وليس من اجل الزينة والملابس !

فقفزت يويه جيوان صارخة :

— يا ترى هل الزينة والملابس تعوقان تحقيق التحديثات ؟ قل لى ، هل هناك قرار يمنع الزينة والملابس ؟

— قصدى ان اية زينة لا بد ان تلائم ظروفك الخاصة ، وتناسب قامتك ...

وهنا نقطة ضعفها ، ان يويه جيوان لا تسمح بنقدها ابدا .

— ما العيب فى قامتى ؟ اقول لك بصراحة ، انت لا تعجبك بدانتى ، أليس كذلك ؟ وانا لا يعجبنى هزالك ايضا ، انظر الى نفسك ، انك كديك ضئيل ، والتجاعيد فى جبهتك كالسكك

الحديدية ، فلا تكاد تقطع ثلاث خطوات حتى تلهث . لماذا اخترتك انت ؟ لأنك من المثقفين . لكن ما هو المثقف ؟ انه ليس الا اسما . ان الدنيا لم تضحك لى قط منذ تزوجتك ، فلا شقة لى ولا ثوب . حسنا ، عمرى الآن ٢٩ سنة ، وما زال امامى عمر طويل . فاذا اخترت اى واحد من اصحاب الدكاكين الخاصة فى الشارع ، بصرف النظر عما يبيعه ، فسيتحسن وضعى تحسنا تاما .

— تفضلى ، اذهبى واختارى !

— هذا سهل يا عزيزى ، اذا طلقتنى اليوم اسجل غدا مع آخر !

— اطلقك ! فلأطلقك !

ان اكمال هذه الجملة يتسبب فى نزول مصيبة كبرى ، فكلمة "الطلاق" كانت وقفا على شفتى يويه جيوان دائما ، ولم يكن تشنغ تشن هاى يتجرأ على استخدامها . ماذا جرى للرجل اليوم ؟ ومن اين اتى بهذه الشجاعة ؟

يرجع السبب بالتأكيد الى ذلك الاجتماع الملعون ! واشتد الغضب بيويه جيوان ، وصدمت بجسمها تشنغ تشن هاى مكيلة له سلسلة من الشتائم :

— خفت عظامك بالقرار الاخير ، أليس كذلك ؟ تطمع فى الطلاق ، وانت بهذا الشكل ؟ مستحيل البتة !

— وانت ، تتخيلين ان العالم قد اضحى ملك يديك بعد هذا القرار ؟ انك واهمة !

ـ سيقام حفل رقص غدا بقصر الثقافة يا شياو لين ، عندى لك بطاقة .

لوحت اخت لى الكبيرة ، مسؤولة نقابة العمال ، بيدها نحو لين سو فن . لكن الاخيرة لم تلتفت اليها ، واندفعت خارجة كقذيفة .

اصبحت لين سو فن فى التاسعة عشرة بعد ارجاع عمرها عشر سنوات ، فتخلصت بذلك من صفة "الفتاة الكبيرة السن" ، وعادت فتاة نضرة فى عز شبابها كوردة متفتحة تنتظر من يقطفها ، فلم رعاية النقابة ؟ ولم مساعدة دار الزواج ؟ ثم لم البحث عن شريك عبر حفلات الرقص ؟ ! انها فى غنى عن ذلك كله !

ان ابنة التاسعة والعشرين فتاة عانس ، تظل عرضة للنظرات اللاذعة التى لا تطاق حيثما ذهبت ، وهذه النظرات خليط من الاشفاق والسخرية والحذر والريبة ، اذ يشفق الناس على وحدتها وشعورها بالوحشة دون رفيق ، ويسخرون من تكبرها وشموخ انفها دون مسوغ ، ويحترسون من حساسيتها وسرعة انفعالها ، ويرتابون فى حدة مزاجها . ذات مرة طبخت طاسا من الشعيرية ، ووضعت فيه بيضتين ، فسمعت همسات من ورائها تقول :

ـ ما زالت تهتم بالحفاظ على نفسها .

ـ ليس الا تصرفا شاذا .

انها تبكى وان لم تذرف الدموع . ترى هل يعتبر تناول فتاة فى التاسعة والعشرين بيضتين بدلا من الذهاب الى المطعم تصرفا شاذا ؟ ما هذه الفلسفة ؟ ومن اى كتاب فلسفى اقتبسوها ؟

حتى كلمات الصديقات العزيزات عندما يعبرن عن عنايتهن واهتمامهن بها تختصر فى " اختارى شريكا للحياة بسرعة " ، كأنما ارتكبت الفتاة ، وهى فى التاسعة والعشرين ، جريمة كبرى لكونها لم تتزوج بعد ، واصبحت بذلك هدفا لسهام الجميع ، بل حديثا على ألسن الناس ، تتناقلها شرقا وغربا ، جنوبا وشمالا ، فى مجلس الشاى او على مائدة الطعام ، مما يجعلها شديدة الاضطراب لا تعرف الاستقرار ابدا . هل عيشها فى الدنيا لمجرد الزواج بأسرع ما يمكن ؟ أليس هناك ما هو اهم من ذلك ؟ انه لأمر يبعث على الحزن والغضب والضحك فى آن واحد !

والآن قد اطلق سراحها من هذه الهموم ، فعمرها ١٩ سنة فقط ، فتفضلوا باغلاق افواهكم جميعا . عندما تتطلع الى السماء الصافية الزرقاء ، تجد السحب البيضاء قد تحولت الى مناديل شفافة سدت افواه الفضوليين فى برهة . لشدما انشرح صدرها ! فهرعت شياو لين الى موقف الدراجات فى خطوات فرحة خفيفة ، مرفوعة الرأس لا تبالى بمن حولها ، واخرجت دراجتها ماركة " الحمامة " ، وطارت هى الاخرى كحمامة طليقة .

كان الوقت ساعة الانصراف . وكانت للشوارع مكتظة بالناس . والمحلات من القطاعين العام والخاص تراصت على جانبى الشارع ، وانبعث صوت اغنية فى الهواء : " انا احبك " ... " وانت لا تحبنى " ... " لا استطيع العيش من غيرك " ... " ولا مكان لى فى قلبك ... " . ما هذه الكلمات ؟ لتذهب كلها الى الجحيم !

لم يعد الحب بضاعة عتيقة راكدة فى المخزن ، تنتظر بفارغ الصبر من يبحث عنها . ١٩ سنة فقط ، ستجدين الاوقات وستتاح لك الفرص . اما مهمتك الآن فهى التعلم واستكمال مؤهلاتك والارتقاء بذاتك ، ولن تكون حياتك غنية وقيمة الا بعد ان تكتسبى الكفاءة الحقيقية التى تؤهلك للاسهام فى خدمة المجتمع بشىء يعود عليه بالخير والمنفعة . وعند ذلك سيأتيك المحبون تلقائيا يخطبون ودك ، ولن ترفضى طبعا . لكن لا بد ان يكون ذلك الحب خفيا ومبهما وعميقا .

الالتحاق بالجامعة ! لا بد من الالتحاق بالجامعة . التاسعة عشرة افضل سن للالتحاق بالجامعة . يجب الا تضيعى وقتك ، ولا بأس ان تكون الجامعة ليلية او عبر التلفزيون والاذاعة . فان وفقت بذلك ، فستحصلين على شهادة . لكن لا مجال للمقارنة بين هذا النوع من الجامعات والجامعات النظامية كجامعة بكين وجامعة تشينغهوا . ان الايام الضائعة فى المدرسة من افدح الخسائر فى حياتك . فى الحقيقة لم يتجاوز مستواك التعليمى الصف الثالث الابتدائى ، اذ صادفت تلك " الثورة الثقافية " ابتداء من الصف الرابع ، وكانت سنوات للعربدة والشقاوة والتسكع فى الشارع ، فتخرجت من الابتدائية . وبعد الدخول الى الاعدادية كنت تجلسين فى حجرة الدرس كأنما تركبين طائرة ، فلا تفهمين معظم ما يشرحه المدرس ان لم يكن كله . وتخرجت اخيرا مشوشة الذهن مبللة الفكر . ثم تبع ذلك الاستيطان فى الريف والعمل الجسمانى مع الفلاحين ، ففقدت حتى ذلك النزر اليسير الذى تعلمته فى

المدرسة . ولما اختتمت " الثورة " ، عدت الى المدينة ، فطال انتظارك للعمل . وبعد جهد جهيد دخلت شركة الخدمات هذه التابعة للمصلحة برغم انها تنتمى الى المؤسسات ذات الملكية الجماعية . وبعد استعراض ما مضى من مسيرة حياتك لم يبق امامك الا مسلسل واحد — الخطوبة والزواج ثم الولادة والعناية بالطفل وبالشؤون المنزلية ، ثم الخلاف والشجار ، وهكذا حتى نهاية الحياة .

أهكذا يمضى العمر ؟ ابدا ، ان لين سو فن لا ترضى بذلك ولا تقتنع . ما دمت قد جئت الى هذا العالم ، فلا بد ان تفعلى شيئا وتتركى فيه اثرا . لكن مستواك التعليمى لم يتجاوز المرحلة الابتدائية ، فأنت مثقفة بلا ثقافة . لا انت فلاحة فى الحقول ولا عاملة فى المصنع . انك كشبح وحيد يتسكع بين بنى آدم .

لتبدأ من البداية . قضت اوقات فراغها فى دورات ثقافية متنوعة ، وانفقت معظم رواتبها على الدراسة وشراء الكتب الدراسية الخاصة باللغة الصينية والرياضيات واللغة الانجليزية والرسم . لقد ارادت التعويض عن كل ما خسرته ، فدرس بعد آخر ، ودورة بعد اخرى . ما ابطأ هذا الاسلوب ، وما اشقه ! تريد نجاحا سريعا فى انجاز المنهاج ، فالعمر يهددها . اذا لم تنجح بسرعة ، فمن يكتشف انها ذات قدرة وكفاءة ؟ من يرشحها ؟ ثم متى سيكون الحظ حليفها ؟

وانهمكت فى تعلم الانجليزية فقط ، راغبة فى تحقيق نجاح مباغت . « تسعمائة جملة » و« المفهوم الجديد » والمنهاج التعليمى

الاذاعي والتلفزيوني بالاضافة الى الدورات ، تقوم بهذا كله فى آن واحد . وقبل ان يمضي شهر على ذلك وجدت ان هذا المجال مزدحم بعدد لا يحصى من المتنافسين امامها ، كلهم فى سنها ، وكلهم راغبون فى الطلوع عن اقرب طريق . الا انه ليس طريقا سهلا ابدا . حتى اذا اتقنت الانجليزية ، ما فائدتها فى بلد متخلف الثقافة مثل الصين ؟ لممارسة الترجمة ؟ من الانجليزية الى الصينية ام من الصينية الى الانجليزية ؟ ثم ما اكثر خريجي معاهد اللغات الاجنبية ! لا احد يتوقع بروز عبقري من بين منتظري الوظيفة !

انتقلت الى "كلية الآداب بالمراسلة" آملة سلوك الطريق الادبي حتى تصب على الورق هموم هذا الجيل من الشباب وحيرتهم وطموحهم وتطلعاتهم ، من خلال الروايات والقصائد ، فتعرف جماهير القراء الغفيرة ، ويعرف شباب القرن الحادي والعشرين ان فى هذا العالم جيلا تعرض فى غمضة عين من التاريخ الى ظلم عجيب ، فأضحى كألعوبة بيد التاريخ . ان ابناء ذلك الجيل ابرياء ، ضاع منهم كل ما يجب ان يملكوه ، ولم يبق لهم الا الاعباء الثقيلة التى يجب الا تلقى على عاتقهم . انهم سيمضون عمرهم كله يرزحون تحت وطأة هذه الاعباء الثقيلة .

لكن ما اصعب الطريق الادبي ! فالشباب فى سنها لا يطيقون القراءة . اذا ارادت الكتابة ، لا تعرف من اين البداية . لقد مزقت الاوراق تلو الاوراق ، مما اصاب اهلها بالذعر والارتباك ، ظنا منهم ان الشيطان سيطر عليها : يبدو انه ليس من الممكن ان يصبح كل واحد اديبا .

لعل المحاسبة تلائمك ؟ يقال ان المجتمع يواجه الآن نقصا شديدا فى المحاسبين الاكفاء ...

الحيرة والتردد والذهول والكآبة ... انها لا تعرف نفسها ولا تعرف ما تبغى . قال لها بعضهم : دعك من الاوهام ، فى هذا السن اقضى ايامك متسكعة . بينما قال لها بعضهم الآخر : سيهدأ بالك بالزواج .

لكن الزواج ابغض ما فى نظرها .

والآن انقلبت الدنيا رأسا على عقب ، واصبح العالم مشرقا رائعا ، فقد تفتحت لها الورود ، وزغردت لها الطيور . لقد اصبح عمرى ١٩ سنة بعد ارجاعه عشر سنوات . لماذا الهموم والحيرة ؟ ولماذا الكآبة والخيبة ؟ ليذهب كل ذلك الى الجحيم ! لم تتخل عنى الحياة ، وعاد العالم ملك يدى . سأغتنم كل ثانية من الآن فصاعدا ، فلا اضيعها . واحدد كل اهدافى فى الحياة فلا احيد عن طريقها . سأتعلم واتعلم ، واكتسب المعارف الحقيقية ، فليكن ذلك هدفى فى المرحلة الاولى .

نعم ، من اليوم ، من الآن ، لأمض قدما نحو هذا الهدف .

قفزت الى الدراجة ، وعلى وجهها ابتسامة عريضة ، ثم انطلقت صوب مكتبة شينهوا — القسم التعليمى .

فى الصباح الباكر من اليوم التالى سادت المصلحة حماسة وحرارة لا مثيل لهما ، فزخر المبنى كله بالنشاط والحيوية البهيجة ، واخذت كلمات الفرح وضحكات المرح تتردد هنا وهناك . حتى

المصاب بمرض القلب راح يراهن على ان يصعد الى الطابق الاعلى من المبنى ، وما لبث ان صعد فعلا الى الطابق الخامس فى خطوات حثيثة دون ان يلهث او يشتد خفقان قلبه او يمتقع لون وجهه ، فبدا كأنه لم يصب بأى مرض من قبل . اما ذلك الرفيق فوق الستين ، الذى كان يهن ويتباطأ فى النطق والكلام ، فقد اختلفت حاله تماما ، وارتفع صوته ارتفاعا غير متوقع ، وعندما يتكلم يدق سمعك صوته الجهورى ، وبوسعك ان تسمعه وانت عند طرف الممر . كانت ابواب المكاتب مفتوحة ، وكان الموظفون ينتقلون هنا وهناك كأنهم سياح فى السوق ، يعبرون عما فى داخلهم من الارتياح والانفعال والمثل والخطط اللامحدودة .

واقترح احدهم فجأة :

— هيا لنخرج الى للشوارع فى مسيرة احتفالية بالتحرر الجديد .

استجاب الجميع بحماسة . وما لبثوا ان تحركوا . هناك من يجهز اللافتات ، ومن يهيئ الاعلام الصغيرة الملونة ، ومن يخرج من المخزن طبلا كبيرا وشرائط حريرية حمراء خاصة بالرقص الشعبى . وفى برهة ، تجمعت الطوابير امام المبنى رافعة اللافتات الحمراء التى كتب عليها بمقاطع صفراء كبيرة : " احتفالا حارا بعودة الشباب ! " ، وكما كتبت على الاعلام الملونة الصغيرة شعارات تعبر عما فى اعماق قلوبهم مثل : " تأييدا حازما للقرار الحكيم ! " و" عاش الشباب" ، و" عاشت التحديثات" .

بدأت اصوات الطبل تدوى ، وبدأت القلوب تخفق بالحماسة ،

مما جعل جي ون ياو يشعر بدمائه تتدفق حارة في عروقه : وبينما وقف على اعلى درجة من درجات السلم لالقاء كلمة مشجعة قبل ان يقود بنفسه هذه المسيرة الحافلة ، فاجأه عشرات الرفاق القدامى الذين احيلوا الى المعاش ، يشقون طريقهم بين الناس ويقبلون اليه متسائلين :

ـ لماذا لم تخبرنا بشأن ارجاع العمر عشر سنوات ؟

فقال جي ون ياو :

ـ لكنكم تقاعدتم . . .

فصاح المتقاعدون في صوت واحد :

ـ ابدا ! مستحيل !

فهتف جي ون ياو رافعا يديه :

ـ لا تصيحوا يا رفاق ! لا . . .

لم يعد يسمعه احد ، فالاصوات ارتفعت كالامواج الصاخبة ، تشق عنان السماء .

ـ الجميع متساوون امام القرار ! وكل واحد رجع عمره عشر سنوات الى الوراء ! فلماذا تتركوننا جانبا دون عناية ؟

رفع جي ون ياو صوته بأقصى ما يستطيع ، وقال :

ـ لا يمكن ان نتصرف كما نشاء ، بل طبقا للوثيقة الرسمية :

ـ اين الوثيقة الرسمية ؟

ـ أرنا الوثيقة !

ـ لماذا لا ترينا اياها ؟ !

التفت جي ون ياو الى مدير مكتبه سائلا :

— اين الوثيقة ؟

فقال مدير المكتب بطيش وتهور :

— لا اعلم عنها شيئا !

وفى تلك اللحظة الحرجة تقدمت جماعة من العمال الشباب الذين اخذوا يعملون مؤخرا ، واعمارهم لا تتجاوز ١٨ او ١٩ سنة ، واخذوا يصيحون :

— نحن لا نقبل بارجاع العمر !

— انعم الله علينا بـ ١٨ سنة ، وحصلنا اخيرا على وظيفة ، فكيف ترجعنا الى الصف الثالث الابتدائى ؟ مستحيل !

وعندها هرع اطفال من روضة الاطفال التابعة للمصلحة الى جى ون ياو يصيحون كأنهم مجموعة من الكتاكيت الصغيرة ، ويحتضنون رجليه ، ويشدون بيديه متسائلين بأصوات حادة :

— ما مصيرنا بعد ارجاع العمر عشر سنوات ؟

— كانت عملية ولادتى عسيرة ، فاضطر الطبيب الى توليد امى بعملية قيصرية !

عجز جى ون ياو عن الاجابة عن الاسئلة المنهمرة عليه كالمطر ، فعاد ينادى مدير المكتب صائحا :

— الوثيقة ! ابحث عنها ، احضرها حالا !

ولما رأى مدير المكتب مذهولا مترددا ، قال له مؤدبا :

— اسرع الى مكتب الاسرار بحثا عنها !

فما لبث مدير المكتب ان ركض الى مكتب الاسرار ، وفتش جميع الملفات ، لكن لم يعثر لها على اثر .

فسأله المتحمسون فى الحال :

– ترى ، هل حفظت فى الارشيف ؟

– هل استعارها قسم من الاقسام ؟

– اللعنة ! سننتهى اذا كانت قد رميت فى سلة مهملات !

خلافا للاضطراب والفوضى والبلبلة التى نشأت بين الناس عاد جى ون ياو الى اتزانه وهدوئه ، فاذا به يوزع المهمات دون تباطؤ :

– لنبحث عنها ، فلنعبئ الجماهير ، وليتحرك التجميع ، لا بد ان نفتش عنها فى كل مكان .

فقال مدير المكتب :

– هل نفض الطوابير ؟

– لماذا نفضها ؟ لنبحث عن الوثيقة اولا !

كلمة عن المؤلفة



تشن رونغ .. ولدت فى مدينة هانكو بمقاطعة هوبى ، ومسقط رأسها اصلا فى وشان بمقاطعة سيتشوان . تعلمت فى مدارس كل من مدينة تشنغدو وبكين وتشونغتشينغ . فى عام ١٩٥١ عملت بائعة فى دار العمال للنشر فى الجنوب الغربى من الصين ، ثم عملت كادرة فى قسم القراء بدار « صحيفة العمال اليومية فى

الجنوب الغربى » فى مدينة تشونغتشينغ ، وبعد ذلك التحقت بمعهد اللغة الروسية ببكين ، وتخرجت فيه . واشتغلت مترجمة ومحررة ومدرسة ثانوية .

وقد ألفت « النور والظلم » وغيرها من الروايات ، ولها كثير من القصص المتوسطة الحجم والقصيرة مثل : « الناس الكهول » و« اسرار قرية تايتسى » و« خطأ ، خطأ ، خطأ ! » و« باقة من ازهار البرغولاريا » وما الى ذلك .

وقامت بترجمة القصة القصيرة « الكلب » للكاتب الروسى المشهور نيكولاى ايفانوفيتشى توركنيف وقصة «كلينا وجدتها » للكاتب الروسى روشن .

كوة الحب

لى قوان تونغ

(تبددت رطوبة الصيف الخانقة الى غير رجعة ، مثلها مثل الدخان المتطاير . وتساوى عدد النجوم المتألقة على سطح البحيرة مع النجوم اللامعة فى كبد السماء . وتماوجت احلام الورى مع النقيق المزعج المنبعث من الضفادع . كان يفصل بينهما - هو وهى - جدار به كوة مستطيلة على شكل المعداد الحسابى الصينى المصنوع من الخشب ، وقطعة القماش الابيض المعلقة على الكوة من جانبها تميل الى اللون الاصفر المتسخ .)

- لماذا تضرب الجدار يا من تريد ان تكسب المال عن طريق الحرام ؟ دائما ما يفكر المرء فى الشر اذا ما امتلك المال ! اوه ، الطرق اللامشروعة تؤدى الى المال . . . الصنارة والدبوس الابرى وحسكة السمك . . .

- كلامك غير مفهوم . لا اعرف النوم ، اريد علبة كبريت لو سمحت !

- انت يا ابن الزانية ! ألم تسألنى عن سبب فقر المناطق شمال بلدة بيبا الشبيهة بالاسمال البالية ؟ ها هنا علبة الكبريت !

كان اصل هذه البلدة بيبا (الربابة الصينية) متحولا من بيبا سحرية يتجه طرفها ناحية الشمال . وحدث ان هبت ريح شريرة اكتسحت جزءا من رأس البيبا ، فجاء احد الخالدين واصلحها بقطعة من خشب الحور الفاسد ، فافتقرت المناطق الواقعة شمال البلدة ، واضحت كما الاسمال البالية . اهلها طيبون يتحملون التعب والشقاء ، ولكنهم ضعاف الهمة ومقترون . انهم كالفئران ، يتوهمون الربح فى النهار والخسارة فى الليل .

— هل انتهت قصتك ؟ ما اروعها ! انها لفى غاية الروعة !

— ليس من امر سيئ ؟

— . . . يوجد ، ولكنه قليل . كان عليك ان تنهيها عندما وصلت . . . وصلت الى خشب الحور . علبة الكبريت هنا . شكرا لك .

— . . .

ثمة امور فى الحياة يصعب شرحها . كم ساعة مضت على تعارف شى لونغ والزوجة شوى شيان ؟ صارا يثرثران كأنهما صديقان قديمان قد تقابلا بعد فراق طويل . لازمت الخيبة والقنوط شى لونغ مدة طويلة بعد ان وصل الى بلدة بيبا بعد ظهر اليوم . لقد سمع الناس ، وهو فى مقاطعة شانشى ، يتحدثون باعجاب عن بحيرة ويشان التى تنتج من الاسماك فى يوم واحد ما يساوى عدة كيلوغرامات من الذهب ، وعن هذه البلدة الكبيرة المزدهرة ، وما تأسف عليه هذه البلدة فى الصيف . . . تطل هذه البلدة على البحيرة وتصطف السفن والقوارب على شاطئ البحيرة ، وفى كل

سفينة وقارب سمك : وتبدأ السماء فى انارة قناديلها فوق البلدة والظلام ما يزال مخيما على سطح البحيرة . سمك متعدد الانواع فى سلال كبيرة وصغيرة وطشوت ، وعلى الحصائر سمك متراكم فوق بعضه بعضا ، يتزاحم ويثب متألق الجسم . تبدو السوق كأنها سد من قطع فضية مختلفة الاحجام ، او جدول رقراق يلمع تحت ضوء القمر . اضافة الى ذلك ، يشعر المرء بالنشوة اذا ما استمع الى الهسهسات الحادة الصادرة من خياشيم السمك ، وشم رائحة السمك الخفيفة . وظهر من الافق الشرقى خيط رمادى سميك ، تدافعت منه تلك الرطوبة الخانقة . واخذ السد الفضى يتقلص شيئا فشيئا ، ويبهت لونه ، وخمد الجدول اللامع ، واختفت الهسهسة الحادة . وظهر على السمك سائل لزج وفاحت منه رائحة شديدة واخرى خفيفة كريهة . وعندما علت شمس النهار امتارا ، كان ثلث الاسماك ما يزال دون بيع — يصعب بيعه فى هذه الحال — وتحولت عيون الاسماك من حمراء الى بيضاء ، وتحول لون الخياشيم الحمر الى لون العجينة ، وانتفخت بطون الاسماك كأنما نفخ فيها هواء سحرى حتى تشقق بعضها ، فخرجت الامعاء بلون الطمى وسرء الاسماك على شكل حبات الدخن رويدا رويدا . وتطايرت رائحة الاسماك الفاسدة الى السماء ، فاضطر باعة السمك ، من الرجال والنساء ان يشعلوا السجائر واحدة تلو الاخرى فى شراهة . وانحلت اوراق السجائر المبللة بالعرق المتصبب من الجباه والاصابع ، فهرعوا الى اشعال سجائر اخرى على نحو مستمر . كان يدثرهم الهدوء ، بل كانوا فى حالة طبيعية لا يعرفون الهموم ولا الاحزان ،

يتبادلون الاحاديث والضحكات . اصطادوا الاسماك من البحيرة اعتمادا على قواهم ، وليست فى ايديهم رؤوس اموال . وقد اعتادوا الرطوبة الخانقة كل صباح . وصلت الشمس الحارقة الى مكان اعلى فى السماء . وكان هر مرقط ، فيه سيماء الجمال ، مقرفصا على كومة من الحصى فى السوق ، فرماه شخص بسمكة شبوط صغيرة ، ولكن هذا الهر الوسيم انف من تناولها . واعترى بعض الناس الملل من الانتظار ، فأخرجوا السمك الى الارض ، وعادوا بسلال السمك فى خطوات بطيئة . اما الذين يربون القاقم فبدت عليهم الكبرياء ، اذ كان بمقدور كل منهم ان يشترى كومة غير صغيرة من الاسماك بمبلغ خمسة قروش لا غير ، كما يمكنه ان يطلب من البائع ايصالها الى بيته . وبعد برهة ، شرع الباعة من الرجال والنساء يخرجون السمك الى الارض ، ثم انصرفوا حاملين ادواتهم الى بيوتهم . كانوا فى هذه الحال أكثر راحة مما كانوا عليه حينما اتوا الى هنا ، فعادوا يتبادلون الاحاديث ، ويضحكون ، ويكررون ذلك الكلام القديم المكرر سنين : هذا موسم فساد السمك ! خيم الهدوء على السوق غير المنسقة ، وانتشر السمك على كل شبر من ارضها . وجاء مسنون يحملون مجارف وسلالا ، ونقلوا السمك الفاسد الى كومة القمامة . لم يكونوا فى عجلة من امرهم ، لأن راتبهم الشهرى ٣٠ يوانا فقط . كانوا وحدهم يشكون هذا الموسم . تألم شى لونغ لما اصاب صيف بلدة بيبا آلاما شديدة . وتولدت فى قلبه حماسة اخذت تنمو باستمرار . واخيرا رحل مع اربعة عمال متدربين عن مسقط رأسه فى مقاطعة شانشى ،

وجاءوا الى هذه الارض تحدوهم همة عالية .

لم يخطر ببال شى لونغ ان بلدة بيبا بمثل هذه الضخامة والازدهام . فقد سار نحو ثلاثة كيلومترات من جنوب البلدة الى شمالها لاستئجار عدة غرف خالية ، ولكنه لم يحظ الا بخفى حنين . كان فى البلدة عدد غير قليل من الفنادق الخاصة ولكن لم يكن ، ولو فى واحد منها ، فناء يتسع لعدة قدور كبيرة . كانت قبة السماء اللازوردية مثل الفراغ داخل الاتون ، وتحولت الشمس المائلة الى الغروب ، وقد كبرت تدريجيا ، حتى اصبحت مثل فتحة الاتون التى تخرج منها النار الحمراء . وصار الجو فى البلدة جافا ، حتى ان المروحة لم تعد تحدث ولو تيارا خفيفا . واشتدت الحرارة والعطش بشى لونغ ومتدربيه ، واخذوا يتصببون عرقا . دخلوا مقهى صغيرا ، فلمحوا فيه عجوزا ذا لحية فضية ، يتدرب على فن الخط ، وفى يده الاخرى قدح خمر . كانت خطوطه انسيابية وقوية مثل السحاب السابح والماء الجارى . لم يتوقف عن التدريب على الخط الا بعد ان كتب خمس او ست لوحات ورقية ، ثم رشف القدح جرعة واحدة ، مما اثار الاعجاب لدى شى لونغ ، فأخذا يتجاذبان اطراف الحديث .

ولما وصل الحديث الى استئجار غرفة قال العجوز :

ـــ اسأل الزوجة شوى شيان التى تقيم فى طرف البلدة الشمالى . ولكنها تكره الرجال .

حقا ان الزوجة شوى شيان تكره الرجال . فقد حياها شى لونغ ومتدربوه فى فنائها بضع عشر مرة ، وهم وقوف هناك ، ولكنها

لم تستجب لهم ، بل لم تكلف نفسها عناء النظر اليهم ، اذ ظلت منهمكة فى صناعة اكياس من قش الارز فى غرفتها . "كوانغ دانغ !" . . . كانت تحرك الماكينة بقدميها بقوة وانتظام ، ويتحرك المكوك الخيزرانى الطويل بالقش ذهابا وايابا دون توقف ، ويندفع المكوك غاضبا كالسهم الى خارج الغرفة ، كلما احدثت الماكينة صوتا ، متجها الى الواقفين فى الفناء .

— يا شوى شيان ، نحن هنا غرباء ، وليس لنا اقرباء ، وتواجهنا الآن صعوبة . نريد ان نستأجر منك غرفة لنقيم فيها عدة ايام .

احدثت الماكينة الصوت الشديد مرتين ، وجاء رد الزوجة شوى شيان باردا :

— لا احب ان يقيم اى رجل هنا . انى اود لو يهلك جميع الرجال !

ابتلعوا ريقهم ، ودارت عيونهم ، وتحركوا فى الفناء حائرين ، والقنوط يمسك بتلابيبهم . وشخصت ابصارهم الى هذا الفناء الفسيح الذى يضم اربع غرف شبه جديدة مبنية من الطوب والقرميد ، واعتراهم شعور بصعوبة الفراق . تقيم الزوجة شوى شيان فى الغرفتين الشرقيتين ، اما الغرفتان الغربيتان فمغلقتان بقفل علته آثار الصدأ . اين زوجها ؟ أليس فى هذا البيت احد غيرها ؟ وقال شى لونغ متأثرا :

— يا شوى شيان ، كلامك صحيح ، ان فى الدنيا اشرارا كثيرين من الرجال ! ولكن امثالنا قليلون ، فنحن من الرجال الطيبين حقا .

توقفت الماكينة فجأة ، والتفت اليهم وجه ابيض لامرأة متوسطة العمر . وعلى الرغم من ان تجاعيد رقيقة كثيفة قد غضنته ، الا ان المرء يلمح لأول وهلة بقايا شباب مثير . فعينا هذه المرأة حوراوان تلتمع فيهما الشفافية ، وانفها صغير بديع الشكل ، وشفتها رقيقة حمراء ذات خطوط جميلة وملامح ناعمة مثيرة . وفيما كان لون الغرفة من الداخل قاتما يتخذ شكل خلفية لتلك الاشياء ، شعر شي لونغ انه امام لوحة زيتية مهيبة هادئة . وكانت هذه اللوحة خارج كل توقعاته ، فأغرته بالنظر اليها والاستمتاع بها . ولكنه ارتعش قلبه اذ لمح فيها اثر قرص بلون الدم ، شأنه شأن قشرة فول طويلة رفيعة حمراء قاتمة . لذلك عندما اعاد النظر الى هذه اللوحة الزيتية شعر بنوع من القسوة والبرودة والحزن .

لم تستطع الزوجة شوى شيان رؤية شي لونغ ومتدربيه بوضوح فى بداية الامر ، اذ بدوا كأنهم جذوع اشجار عارية . ولكن عندما التقت نظراتها بنظرات شي لونغ القادم من شانشى دوى فى رأسها هزيم خفيف بصورة غريبة . اوه ! عندما غمرها زوجها بحب فياض لأول مرة قبل عشرين سنة ، أ لم يدو نفس هذا الهزيم ؟ كان عليها ان تعود الى هيئتها الاصلية لتحرك الماكينة . غير ان نظراتها غامت برهة قصيرة ، ثم عادت واضحة . هناك بنية قوية ، وجه احمر وشفتان سميكتان ، تتجسد فيهما الارادة ، وعينان وقادتان بالذكاء ، مشعتان بالصدق ، مترعتان بالعواطف الفياضة . لم تر مثل هذا الرجل منذ اكثر من عشرين سنة .

دخل شي لونغ الغرفة ، وقال كأنه يمزح معها او يحاول

جادا ان يدافع عن نفسه :

– يا شوى شيان ، نحن طيبون مثلك .

– انك ابن سوء .

والقت بيدها اليسرى مفتاحا .

ثم حدقت فى يدها اليسرى مندهشة ، كأن هذه اليد لم تتناول مفتاحا كان معلقا على الجدار ، ثم ألقته الى شى لونغ بنفسها ، بل تحت قوة سحرية اخرى . كانت يدها اليسرى ترتعش امام عينيها كأنها فى قفص الاتهام . وكان يمكنها ان تقسم ان عقلها لم يأمر تلك اليد ان تناول اولئك الرجال ذلك المفتاح . لم يكن ذلك قط ! فقامت من مكانها نادمة لتسعيد منهم المفتاح ، غير ان باب الغرفتين الغربيتين قد فتح .

بدأت تحس انهم يرتبون اشياءهم فى تلكما الغرفتين ، ويتهيأ لها انهم يحفرون ويبنون . فتذكرت زوجها . أ لم تنصحه ان يبنى حظيرة فى الفناء لتربية عشرات من القاقم ؟ ولكنه رفض ، وسخر منها . وقال انها غبية وحمقاء ، لأن الفيلق الانتاجى يملك كل شىء . كما ان هناك صنارة وابرة وحسكة سمك . ونساء بلدة بيبا جميلات وخلابات . دوى فى رأسها صوت حاد ، فعاودها الصداع ، فأغمضت عينيها مرتعشة الجسم ، وتناولت كلابة قديمة بجانب ماكينة الاكياس القشية ، وقرصت بها ذلك الاثر الاحمر القاتم على جبينها وحركتها قليلا قليلا . الصداع الذى يصيبها لا يعالج الا بهذه الكلابة . وقد حدث ان شلت يداها ، وسرى فيهما الالم والخمول بسبب كثرة القرص . ولكن زوجها هو الذى جاءها

بهذه الكلابة واسدى اليها صنيعا كبيرا . لم تفارقها هذه الكلابة منذ عشر سنوات . تبقى بجانب الماكينة فى النهار ، وتوضع تحت المخدة فى الليل . فهى رفيقة مخلصة لها . اصبح مقبضاها الاسودان مصقولين لامعين من كثرة استخدامها .

اندفع اكثر من عشرين رجلا وامرأة يقيمون فى طرف البلدة الشمالى الى هذا الفناء ، فكسروا اشعة الشمس التى تفرش ارض الفناء . وارتفعت درجة الحرارة عدة درجات ، فدوت اصوات المراوح العشبية .

— عودوا الى بلدتكم مبكرا يا شباب ! لا حول لكم ولا قوة ، اذ ليس من المستحسن ان نراكم فى موسم فساد السمك تعماون اشياء غبية ، ثم تخسرون .

— يا شباب ، البقاء فى الموطن افضل ، حيث لا ريح ولا نار ، ويكفيكم ان تتناولوا الحساء الدافئ !

حاول العجوز فنغ شو تشيوان النقى الطيب القلب ان يقنع شى لونغ بأسلوب لطيف ، اذ سمع انه يريد ان يشترى كميات كبيرة من السمك الطازج ، ثم يجففه . فقلق عليهم حتى تجمعت الدموع فى عينيه . كم هو مر مصير هؤلاء الغرباء ! صلى فى قلبه من اجلهم على امل ان يقبلوا نصيحته . هذه هى طبيعته . . اذا رأى ولد جاره ابن الاربع سنوات يلعب برمح السمك تفصد جسمه عرقا من الخوف ، فيقلد الكلب فى نباحه ليترك الولد رمح السمك . وهو الآن مستعد لأن يقلد الكلب فى نباحه مدة نصف يوم ، اذا تمكن شى لونغ واصحابه من ان يكبحوا جماح فرسهم

عند حافة الهاوية .

ـ شكرا لك يا عم . ليطمئن قلبك . لم نكن لنجرؤ على المجيء من شانشي الى هنا لو لم تكن لدينا الثقة بأنفسنا .

انكمش العجوز فنغ فى ركن من اركان الفناء عابس الوجه .

وصاح رجل كهل يدعى يوى يويه بلهجة كلها احتقار :

ـ السمك فى شانشي قليل ، ربما قدمتم الى هنا لتناول حساء السمك !

فصاح بعض الناس اثر قول يوى يويه :

ـ قدمتم لتناول حساء السمك ! اشبعوا منه !

ـ اشبعوا منه ! ها ها ها .. يا اخوتنا ، الطمع ضر ما نفع !

ابتسم شي لونغ ليوى يويه :

ـ لا بد ان حساء السمك هنا لذيذ . انظر كيف اصنع السمك المجفف غدا يا اخى !

وقال يوى يويه ساخرا :

ـ كيف تصنعه ؟ بالفرن السحرى ؟ اذا تحدثنا عن السمك ، فأى مكان سمكه مثل سمك بحيرة ويشان ، سواء من حيث تربيته او صيده او اكله او تمليحه ؟ المناطق خارج ويشان لا تعرف الاساليب هنا . اما اساليب المناطق الاخرى فلا تخرج عن نطاق اساليبنا . يمكن كسب المال من تجفيف السمك ، ولكن لم يأت دوركم !

ضحك شي لونغ من قلبه وقال بصراحة :

ـ ولكن لا بد من ان نكسب المال من هذا العمل . لا اخفى عليكم ان طريق صناعة السمك المجفف يعرفها كثير من اهالى منطقتنا . سنرحل عنكم بعد ان نحصل على اربعة آلاف كيلوغرام من السمك المجفف .

ـ لا تبالغ فى كلامك . كيف تكسب من سمك ويشان ، وانت لا تعرف عنه شيئا ؟

امر يوى يويه ان يعود بعض الاولاد من السوق بعدة سمكات تفوح منها رائحة كريهة ، واشار الى سمكة منها قائلا :

ـ كم وزن هذه السمكة ؟ وانثى هى ام ذكر ؟

نظر شى لونغ الى السمكة ، ثم هز رأسه .

فارتفعت ضحكات الناس ، وارتسمت على وجوه الرجال والنساء علامات الزهو والاقتناع .

ثم صاح يوى يويه :

ـ سبع ارقيات ! وهى ذكر !

جاء شخص بميزان ، ووزن السمكة ، فوجدها سبع اوقيات بالضبط . ثم شق بطنها فلم تظهر ولو سرأة واحدة ، فهى اذن ذكر . .

هلل الناس ، وشمخ يوى يويه بنفسه ، فوضع السمكة المشقوقة البطن على بعد بضع عشرة خطوة ، وغطاها بقليل من الاعشاب حتى تبقى بين الخفاء والعيان . ثم اخذ رمح سمك قائلا :

ـ سأصيب عين السمكة بهذا الرمح !

صوب قليلا ، ثم رمى الرمح مع شتيمة بذيئة . اندفع شخص

وعاد بالرمح ، فالتف الناس حوله . صحيح ، عين السمكة اصيبت بالرمح ، مع ان الرمح لم يصب انسان العين ، ولكنه قريب جدا منها . وسأل شخص شى لونغ :

ـ ما رأيك يا اخى ؟ هل تستطيع ذلك ؟

ـ لا استطيع ، فهذه مهارة حقيقية !

تعالى صوت " او ! او ! " فى الفناء .

وفيما هم على هذه الحال صبت الزوجة شوى شيان الماء من الطشت فى الفناء ، فسكتت كل الاصوات فورا .

(كانت الليلة حارة لعينة . اصبحت الجدران لزجة . السماء ملوثة بحبر اسود ، يخيم على البحيرة الباهتة باحكام . وفى الفناء تنتشر رائحة غريبة ، تختلط فيها رائحة مسفوح النار والحلاوة . ويدوى من تحت الشجرة شخير المتدربين . يفصلهما جدار ، به كوة مستطيلة بحجم معداد الحساب الخشبى .)

ـ . . . علبة كبريت لو سمحت .

ـ دائما ما تطلب الكبريت يا ابن الزانية .

ـ لا يمكننى الا ان اطلب . والمشكلة انك تعطيننى كل مرة .

ـ كانت فى ماضى الايام فتاة شابة جميلة ، تعانى اسرتها من فقر شديد . وكان ابوها مريضا راقدا على الفراش طول السنة . وكان لها حبيب ، ثم . . . ثم جاء وغد او غنى شرير ، ومعه عدد من المرتزقة ، فخطفوها . ثم جاء سكرتير حزب احد الفيالق الانتاجية ووقع فى حبها . انه رجل ماء صاف . . .

— ما معنى رجل ماء صاف ؟

— يعنى انه ليس من الماء العكر يا ابن الزانية . لم يتزوج حتى بلغ السادسة والثلاثين من عمره . كانت منتشرة فى تلك الفترة عادة تعليق شارة الرئيس ماو على الصدر . علقت تلك الفتاة واحدة على صدرها . فخطف منها السكرتير الشارة — كانت هناك عادة خطف صورة الرئيس ماو ايضا — كانت يد السكرتير كبيرة وقوية ، امسكت بالشارة كما امسكت بنهدها . وكان ثوبها قديما باليا ، فتمزق ، وظهرت فيه فتحة ...

— ثم ماذا حدث ؟

— بكت ، لأنها كانت فى رعب شديد . شعرت بأن عليها ان تموت ، ولكن عز عليها ان تترك اباها المسن . ثم اراد السكرتير ان يتزوجها ، واعطاها نقودا كثيرة . بهرت النقود عينيها حتى لكأن الشرر كاد يتطاير امامها .

— هل تم الزواج ؟

— نعم .

— اين حبيبها ؟

— نسيته . ثم مات مرضا . اصبح الندم لا يفارقها . كانت اطهر واحسن فتاة ، كان ضميرها حيا اكثر من غيرها فى قريتها . فيبدو ان شرا قد اصابها ، ففكرت فى السلطة .. فى المال ؟ نعم ، لا بد من انها فكرت فيهما . ولكنها لم تفكر فى السلطة ولا فى المال فى الايام العادية . اصابها الصداع منذ يوم الزفاف . كانت تفكر دائما : قد يضل الانسان طريقه يوما مهما كان طيبا .

وبعض الضالين يسير مسافة طويلة ، ولا يعود الى طريق الصواب . وبعضهم يعود الى جادة الصواب . ما اروعها لو حادت عن طريق الضلال فى ذلك الوقت ! هل كلامى صحيح ؟

— . . .

— هل انت نائم يا ابن الزانية ؟

— لا ، انى افكر فى نفسى . انا الآن ايضا فى السادسة والثلاثين من عمرى .

— هل انت ايضا . . .

— لا ، لست . . . لو لم اكن ذا همة وطموح ، لو لم اتطلع الى تحقيق اعمال عظيمة فى هذه الدنيا ، ولم ارغب فى العيش معها عيشة عادية ، ونحن متلازمان فى البيت فقط ، لما كانت . . . اوه ! حالتى هذه افضل ، لا احد يستحق ان اقلق عليه . . .

— ما اطيب حالتك ! ولكن زوجها لم يكن مثلك . وسائل تحقيق الخير اليوم كثيرة ، ولكنه لم يردها ، بل فضل الحصول على كل شىء دون ان يتعب فكره او يبذل قواه . . .

— كررت فى كلامك الصنارة ، هل هناك قصة عنها ؟

— كنت اريد ان احكيها لك فيما بعد . انه حين لم يحصل على شىء فكر فى الشر . كان متوقد الذكاء . حدث فى تلك السنة ان تناول شخص الطعام دون ان يمضغه ، فابتلع صنارة يلعب بها الاولاد . فسدت الصنارة حلقه ، وتدلى الخيط المربوط بالصنارة خارج فمه امام صدره . عجز كل انسان عن اخراجها

او ادخالها . ولم يعرف الناس ممن تعلم تلك الوسيلة ، اذ طلب من ذلك الشخص ان يأكل شيئا ما ، ثم اخرج الصنارة قليلا قليلا . ولكنه طلب اربعمئة يوان من ذلك الشخص ! ما اقساه ! كان يملك وسيلة فريدة فعالة تعالج من ابتلع دبوسا او ابرة ومن سدت حنجرته بحسكة سمك . وحقق الثراء بهذه الوسيلة . ولكنه لم يعلم احدا هذه الوسيلة ، وقال انها ستفسد فى بطنه بعد ان يموت . اين هو من البشر ! لو كان البشر على شاكلته لتحولوا الى قرود بالتأكيد ! آه ، كم طيبا بين هؤلاء الرجال ذوى القدرات المعينة فى هذه الدنيا ؟

— . . .

— كم واحدا منهم لم يتلوث ضميره ؟ ان السماء تفتح عينها فى كل لحظة ، سيعاقبون بالتأكيد !

— . . .

يبدو فناء بيت الزوجة شوى شيان كأنما اصبح مركز ثقل لبلدة بيبا ، اذ لا ينبلج الفجر حتى يقف بائعو السمك فى صف طويل . كان الزوار لا ينقطعون من طلوع الشمس الى مغيبها ، منهم عجائز وشيوخ يستندون الى العكاكيز ، راصواتهم يخنقها البلغم ، وزوجات شابات يحملن اطفالا رضعا ، وزوار وتجار متجولون . . . يأتون بالتعاقب ويتزاحمون . كانت حماستهم اشد من الحماسة التى يظهرونها فى الاحتفالات ومعارض السلع وحتى فى حفلات الزفاف .

كان الصداع دائما ما يعاود الزوجة شوى شيان بسبب الضجيج والفوضى . فأغلقت باب غرفتها وبدأت تحرك ماكينة نسج الاكياس القشية . انقطعت الحبال القشية واحدا تلو الآخر فاستلقت على سريرها مضطربة الفكر ، وتحول ذلك السرير فجأة الى اناء حديدى حار مملوء بمسامير حديدية . فنهضت ونزلت من السرير ، وشربت سلطانية من الماء البارد . ولكنها وجدت الماء البارد اصبح كأنما خالط بمسحوق الفلفل ، فأصبحت اشد غضبا وحمقا ، وحاولت ان تكسر كل الاشياء ، وتطرد كل من فى الفناء . غير ان الناس الذين فى الفناء ازدادوا عددا ، ولا احد منهم يعرف سببا لغضبها . هل هى مخطئة ؟ عليها الا تبقى هؤلاء الغرباء ؟ ماذا سيجلبون الى حياتها ؟ اخذت تنظر من داخل فتحة الباب الضيقة ، فحجب نظرها ظهر انسان يتصبب عرقا كريها . فلم تجد بدا من ان تقف فوق مقعد طويل ، فرأت عالما صغيرا مثيرا ، تسوده الفوضى فى الخارج ، ووجدته فى هذا العالم الصغير . انه مشغول ، يدخل السمك فى القدر رافعا ذراعه ، وتبدو تلك الذراع العارية قوية مرنة بصورة خاصة ، فشعرت بأن ذراعها اليمنى قد سرى فيها تيار كهربائى منخفض الضغط ، فشلت وارتعشت فجأة . فتلمستها بيدها اليسرى بخفة ، كمن يخاف ان ينسى شيئا او يضيع منه شيء او ينشأ من هذه الذراع شيء . .

الكوة . . الكوة المستطيلة بحجم معداد الحساب فوق السرير . بدأت تتلمسها ، وتلقى عليها اشعة مصباح بطارية ، وتحدق فى حبات الغبار الدقيقة فوقها . فتولى عليها نوع من التوتر ، نوع

من اليأس ، لأنها لم تجد ولو قليلا من اثر الليل : اريد الكبريت لو سمحت ، ها هى ذى علبة الكبريت . كانا يمدان ذراعيهما الى داخل الكوة من جهتين متعاكستين ، ويستمران فى مدهما . واخيرا تلامس احداهما الاخرى بحذر شديد . من هذه الكوة المستطيلة بدا لها كأنها رأت بريقا لمع واختفى . كيف نسيت ان تسد هذه الكوة ؟ تناولت عدة طوبات من تحت السرير ، وسدت بها الكوة . يبدو كأن فى عينيها قذى . اندفعت اصوات الضجيج من فتحة الباب الضيقة الى داخل الغرفة ، فألقت الى الخارج نظرات باردة بقلب مرتعش وهى واقفة على المقعد . ثم قرصت جبينها بكلابتها دون وعى ، فانحدرت من عينيها سلسلتان من الدموع . . .

اثارت بنية شى لونغ القوية وشدة عمله اعجاب اناس كثيرين ، وقفوا بجانب قدور اربع ضخمة منصوبة فى صف واحد من شرق الفناء الى غربه . كان متدربوه الاربعة فى بداية العشرينات ، وكانوا فى غاية الذكاء والجد . كل واحد منهم يشعل النار تحت قدر . ان بلدة بيبا تزخر ببقايا القصب . وكان لهيب النار يتقد تحت القدور ، ويحدث هسيسا ويضيء وجوه المتدربين ، فتبدو كأنها مزينة بمساحيق حمراء . جميعهم صامتون ، لا يمسحون العرق المتصبب عن وجوههم ، ويجلسون القرفصاء امام القدور ، يلقون النظر الى داخلها بين حين وآخر . والجدار المحيط بالقدور قد بنى من الطوب على عجل ، فظهرت فيه ثقوب كثيرة . لذلك يخرج منها لهيب شديد ودخان ابيض على شكل خيوط او كرات .

يبزغ اللهيب الاحمر كخيوط مستقيمة احيانا ، ويخرج ويدخل فورا احيانا اخرى . والدخان الابيض يتلوى حول القدور مثل السحب حينا ، ويكسره البخار الساخن الذى يخرج من القدور ، فيفر ببطء حينا آخر . "كان الدخان والنار فى حركة تعدين الحديد والصلب عام ١٩٥٨ . . . " تذكر عدة عجائز فى تلك الايام الماضية . " على كل حال ، هذا العمل خطير . الانسان لن يموت ما دام امامه لقمة من الخبز ! " وعلق بعض الناس مرتاحين : " كلامك صحيح ، اى من اهلنا فى الطرف الشمالى مات من الجوع ؟ "

غلى الماء فى القدور الاربع سويا ، فالمتدربون متساوون فى مهارة اشعال النار . وخيم البخار الساخن على الفناء الصغير ، وبلل الشعر والذقون والحواجب ، فظهرت شفافة لامعة . حاول الناس ان يبددوا هذا البخار الذى يحجب انظارهم بنفخات قوية من افواههم ، لكن محاولاتهم ذهبت ادراج الرياح . كان لفوران الماء هدير كأنما الجيوش والخيول تخوض الوغى مطلقة الصرخات والصيحات مع اصوات الطبول المدوية ، فاضطر القريبون من القدور الى الابتعاد .

كان شى لونغ يقف بجانب القدر الواقعة فى الطرف الشرقى ، ويقول بلهجة الآمر :

— احضروا الاحمر !

فأجابه المتدربون بصوت واحد :

— سمعا وطاعة !

وهرعوا الى داخل الغرفة . اذا لم يجيبوا بقولهم " سمعا وطاعة " ، غضب مهما اسرعوا . انه اذا اصدر امرا ، فلا بد من ان يلبيه المتدربون . " هذا ما يسمى التعاون ! " دائما ما يؤكد شي لونغ على ذلك .

ما هذا الاحمر ؟ يقبض شعور بالغموض والحيرة قلوب المشاهدين . هل هذا الاحمر لغز يتصف به هذا الغريب ؟ يتزاحم الناس متجهين الى الامام رافعين كعوبهم ، وتتلامس اكتافهم ، وتتماوج الرؤوس بحثا عن فتحة تنفذ منها نظراتهم . كلما جحظت عيونهم المستديرة الكليلة ظهر فيها بعض الخيوط الدموية . البخار الساخن لا يتلاشى ، بل يتراكم مثل الضباب ، فتمتد كل الرؤوس الى الامام بكل ما فيها من قوة ، وتلوى الاعناق فتصبح على شكل المعازق المنحنية . ثم يسمع صوت " هوا ، هوا " مرات عديدة ، فهناك ما خفض صوت الغليان الشديد . وهذا الاحمر الذى احضره المتدربون من الغرفة ألقى فى القدور فى ومضة عين . فلم يستبين الناس شيئا .

امسك شي لونغ بعصا على شكل ذراع ، طولها نحو مترين ، وراح يحرك بها ما فى القدور ، يحرك حسب دوران الساعة قليلا ، ثم بالعكس قليلا ، يحرك بسرعة حينا ، ثم يبطء حينا آخر . مضت نحو عشر دقائق ، فذاب الاحمر كله ، واصبح لون الماء فى القدر قاتما . فغمس شي لونغ تلك العصا فى الماء ، فسال ماء رقيق من العصا الى القدر . يبدو ان ذلك الماء كثيف . تنفس شي لونغ بعض الوقت ، وزاد متدربوه فى اشعال النار ، فهدد الدخان

والنار الناس ، وتراجع الجدار البشرى المتزاحم الى الوراء قليلا .

وخلال ذلك شد شى لونغ العصا ، وطرقها لتحدث انغاما ، ثم رفع رأسه ، وشرع يغنى مرتاح القلب :

السحاب فى السماء لا يرى
جريان الماء على الارض لا يسمع
الشاب الرائع لا ينفصل عن حبيبته الرائعة
الشمس الحامية لا تخفى الاحباب . . .

ظل يغنى ويغنى ، الى ان تلاشت ملامح البسمة من وجهه ، وانخفض صوته رويدا رويدا مثل سقوط خيط قطنى من السماء ببطء . وخيم الصمت على الفناء . ان الناس لا يعرفون لماذا يجعلهم غناء شى لونغ يشعرون بنوع من الحزن . كان بينهم زوجان متلازمان ، فحرك احدهما ذراع الآخر بذراعه ، ثم تلاقى وجهاهما ، ولاقت العينان الحزينتان عينين حزينتين اخريين .

— احضروا الابيض !

غلى الماء فى القدور ، وعاد النشاط الى شى لونغ مرة اخرى .

انكمش الناس المتلاصقون فجأة ، فحدثت فوضى وضوضاء . هناك من جرح رأسه او ديست قدمه ، ومن ضغطت كتفه ، ومن اخرج الناس ولده بسبب الزحام ، ومن قلبت سلته المملوءة بالفول السودانى . كانت سيدة كهلة تحاول ان تخرج من بين الناس منحنية الظهر . وعندما مدت نصفها العلوى رافعة رأسها ، انقطع حزامها القماشى .

ادخل " الابيض " فى القدور . لم ير الناس الابيض بوضوح ، فلم يتبينوا كنهه . تراجعوا الى الوراء قليلا يتأسفون ويشهقون ، منتظرين الفرصة حتى يجمعوا قوتهم ويروا فى المرة القادمة . وحرك شى لونغ العصا بقوة .

احضر المتدربون الابيض مرة ثانية . بعد ان غلى الماء مرة اخرى رفع شى لونغ سلال السمك ليلقى فى كل قدر خمسين كيلوغراما واكثر من السمك . انتهت جميع العمليات ، ولم يبق الا السلق . فخفف المتدربون النار .

حدث ضجيج بين الناس . حاول اليائسون منهم ان يظهروا كل تخيلاتهم ، يخمنون او يعلقون ، ويتمسك كل منهم برأيه . هناك من حاول ان يذهب الى غرفة شى لونغ ليرى الامر على حقيقته ، غير ان الغرفة مقفولة . وبدأ التجار الصغار ينشطون منتهزين هذه الفرصة .

الاخ هو الشمس ، وحبيبته هى القمر
لا يمكنهما ان يتقابلا ، ولكن كيف لا يتقابلان ؟ . . .

انطلقت من العجوز المخلص فنغ شو تشيوان صرخة مذعورة قطعت على شى لونغ غناءه . ورفع العجوز ذراع شى لونغ اليسرى ، وقال بصوت مرتعش :

ــ عملك ليس هينا ، ليس هينا . لقد ظهرت فى ذراعك سبع او ثمانى نفطات من لسع النار !

وخفف شى لونغ من ذعر العجوز شاكرا له صنيعه . انه

لم ينتبه لظهور تلك النفطات ، ولم يهتم بها وهى على شكل حبات من الفول لامعة ومستديرة . واراد العجوز ان يعود ليحضر الكيروسين ، اذ قال ان الكيروسين له فعالية غريبة فى علاج الحروق . ولكن يوى يويه الذى كان يراقب ما حدث صامتا سخر من العجوز ، وقال ان الكيروسين لا ينفع فى علاج الحروق ، بل ان السائل سيخرج من النفطة بعد ان تدخل الشعرة فيها . ولهذا الاسلوب فعالية غريبة . اراد العجوز ان ينزع شعرة من رأسه ، فقال يوى يويه ضاحكا :

ــ يجب ان تكون شعرة امرأة .

مد العجوز يده طالبا شعرة من النساء :

ــ انزعن واحدة . . واحدة فقط !

خجلت النساء ولملمن انفسهن فى استحياء ، والتفتن الى اليسار واليمين رافعات ايديهن ليخفين ضحكات انطلقت من افواههن . اما الرجال فقد ركزوا نظراتهم عليهن ، وحركوا ايديهم بالاشارات ضاحكين متبجحين ، مما زاد من خجل النساء . استعجلهن العجوز فنغ مرات ، فتبادلت عدة فتيات النظرات باتفاق صامت ، ثم اندفعن سويا ودفعن السيدة المتوسطة العمر تشاى تشياو تشياو الى الامام . ان هذه السيدة جريئة دائما ، تحب المزاح والضحك مع الرجال غير مبالية بالخط الفاصل بين الرجل والمرأة . وقد حدث فى ربيع العام الجارى ان مازحها شخص قائلا :

ــ يا سيدة تشياو تشياو ، ما اكبر ثدييك !

فقالت على الفور :

ـ هل تريد ان ترضع منهما ؟

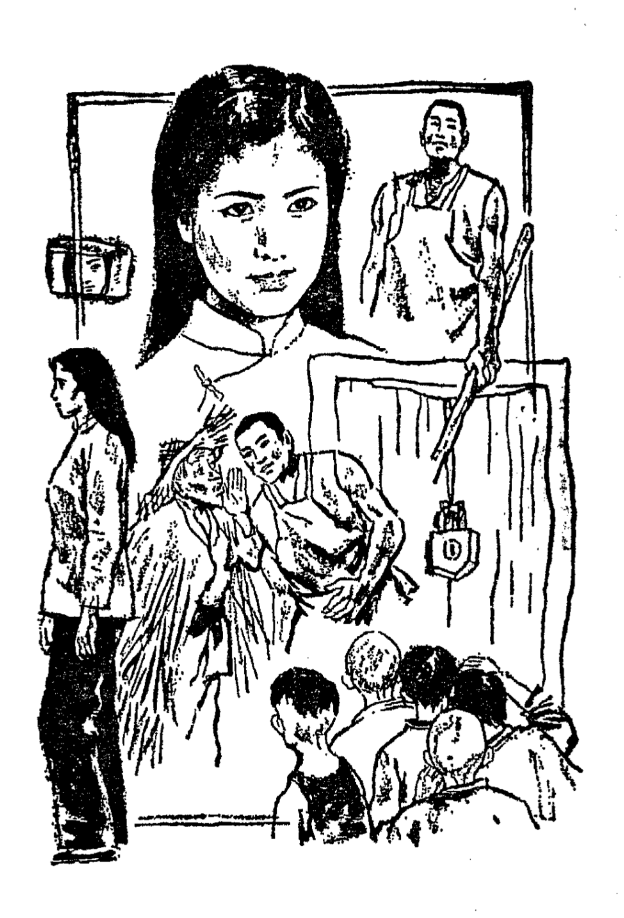
ـ اريد . . . اريد ان اراهما . اذا اريتني ثدييك ، عملت كل ما تأمرين .

فاقتربت تشياو منه ورفعت ثوبها ، فظهر ثدياها . وفيما كانت عينا ذلك الرجل مبهورتين ، لوثت تشياو تشياو غصن صفصاف بالروث ، وحاولت ان تلحق بالرجل حاملة الغصن . اندفعت تشياو تشياو الى الامام ، وألقت نظرة الى شي لونغ ، فاحمر وجهها خجلا . ودوى التصفيق بين الرجال . فتصبب جسمها عرقا ، وهي تلتفت الى الناس حولها محرجة ، بينما رفعت يدها اليمنى الى رأسها رويدا رويدا . ولكن فجأة توقفت يدها وتدلت كالمشلولة ، اذ انها التقت عيناها عيني زوجها اليائستين الخائفتين بين الرؤوس المتحركة . فاشتدت نبضات قلبها ، ثم هزت منكبيها وفرت هاربة .

انفجرت ضحكات شديدة في الفناء .

وعندها حشرت الزوجة شوى شيان نفسها بين الناس في الفتحة الضيقة المتعرجة التي هربت تشياو منها ، وتقدمت بكل برود ، ثم نزعت عدة شعرات من رأسها وقدمتها الى شي لونغ . ثم استدارت عائدة .

استغرق سلق الاسماك اربع ساعات ، ثم اخرجت من القدور ، وجففت على الحصائر المفروشة في الفناء . استغرب الناس استغرابا شديدا حتى جحظت عيونهم ، وعقدت ألسنتهم : السمك الذى



يسلق على مثل هذه النار لا بد ان يتحول الى ما يشبه الطمى او الحساء ! لم يخطر ببالهم قط ان هذا السمك ما يزال صلبا جيدا كهيئته حين ادخل فى القدور .

وادخلت الدفعة الثانية من السمك فى القدور .

جففت الاسماك المسلوقة مدة يومين ، فأصبحت صلبة ومتينة وجافة مثل لوحات خشبية . وبدأ شى لونغ ومتدربوه يجمعونها ، كأنهم يجمعون البطاطا المجففة ، وانطلقت منهم اصوات " هوا هوا لا لا" الرنانة . لقد ملأوا الاكياس واحدا تلو الآخر ، وربطوا فتحاتها .

— ما رأيك يا اخى ؟

ربت شى لونغ على كتف يوى يويه الذى طار لبه من الدهشة .

حرك يوى يويه عينيه بحسد وقال :

— يا لك من عظيم وقدير ! لقد كسبت من اموال ويشان ، واصبحت غنيا !

وصاح كثير من الناس موافقين على رأيه :

— كسبت ! واصبحت غنيا !

كان كلامهم ممزوجا بالتقدير والاعجاب مع نوع من القلق .

سمع شى لونغ هذا الكلام ، وشعر كأن بظهره اشواكا . اصابه الحزن مدة طويلة ، ثم رفع رأسه الى السماء فجأة ، وحدق فى سحابة سابحة وقال بانفعال :

ـ وقعت عقدا مع آخرين حول انتاج اربعة آلاف كيلوغرام من السمك المجفف . بعد ان اوفى العقد ، سأرحل الى مسقط رأسي لأزاول عملا آخر . لا يمكنني ان آتي الى هنا سدى ، على الا اخيب آمال بحيرة ويشان وبلدة بيبا . كما ينبغي لي ان اكون جديرا بضيافة واكرام المسنين والشباب هنا . سأعلم الجميع اسلوب سلق السمك دون تحفظ . ارحب بزيارتكم قبل سفرنا بيوم ، وسأعلن عن ذلك الاسلوب . . .

فانفجر في الفناء تصفيق قوي كالرعد .

اقترب يوي يويه من شي لونغ في حيرة ، وقال :

ـ هل كلامك حقيقي ؟

ـ لم لا يكون حقيقيا ؟

وحدق يوي يويه الى شي لونغ بنظرات ماكرة وقال :

ـ هل تجرؤ ان تقسم ؟

ـ لماذا لا اجرؤ ؟ قل لي كيف اقسم ، وسأفعل ذلك حسب العادات هنا .

ـ هل تجرؤ ان تقسم بأكثر الطرق اقناعا لدينا ؟

ـ حسنا ، كما تشاء . في الحقيقة لا داعي الى هذا .

اخذ يوي يويه رمح سمك ، وضغط باحدى سنيه وسط احدى كفي شي لونغ ، وقال :

ـ في الواقع ، يجب ان اضغط بها جبينك . طيب ، زد من قوة يدك ليسيل قليل من الدم .

حبس الناس انفاسهم محدقين الى هذا الغريب . تقدم

العجوز فنغ شو تشيوان للحيلولة دون ذلك ، فأمسك يوى يويه برسغه . دنا العجوز من وجهه وشتمه قائلا :

— تحاول ان تضره بكل وسيلة ! انك ستعاقب وسيصعقك الرعد .

تردد شي لونغ قليلا ، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة مفتعلة ، ودفع كفه الى الامام دفعا خفيفا . وسحب يوى يويه رمح السمك الى الوراء بخفة فدوت الاصوات فى الفناء .

اهتز باب غرفة الزوجة شوى شيان فى ارتعاش ، ثم اغلق باحكام .

(صافحت الريح المنعشة وجه البحيرة الكبيرة . ليس من فصل ريحه اطيب من الريح الصيفية ، وليس من مكان ريحه ألطف من ريح بحيرة ويشان . الريح فى هذه الليلة ليست شديدة ، بل خفيفة ، لطيفة ، تثير العواطف ، كأنها حدثت بفعل جر الفتيات ذيول اثوابهن ، او كأنها انبعث من تحت اجنحة الاوز البرى الخافقة . لقد صبغها القصب الاخضر ، وطيبتها رائحة ازهار اللوطس الكثيفة ، كما اضاءتها نار الصيادين الباهتة الغامضة . سكرت بلدة بيبا ، وخامرت النشوة تلك الكوة التى بحجم معداد الحساب الخشبى .)

— ممن تعلمت الاغانى التى غنيتها . . . يا ابن الزانية الصغير ؟

— تعلمتها بنفسى ، بل ألفتها بنفسى . لماذا تشتمينني مرة اخرى بقولك " ابن الزانية الصغير " ؟

— هل تعرف تأليف الاغانى ؟ . . . الصغير هو الصغير .

ـ نعم ، اعرف . انها تنساب من قلبى الى الخارج : الاغانى التى ألفتها اغان حقيقية .

ـ هل من الممكن ان تعيد غناءك مرة اخرى ؟

ـ الاخ هو الشمس وحبيبته هى القمر ، لا يمكنهما ان يتقابلا ، وكيف لا يتقابلان ؟

ـ ماذا حدث لك ؟

ـ لا شىء . ما حدث فى الماضى محزن . ثمة قول مفاده ان كل انسان يفكر فى الشر فى فترة من فترات حياته ، هل هذا القول صحيح يا شوى شيان ؟ ارى انه صحيح مئة بالمئة .

ـ لقد قلت ذلك من وقت طويل . . . هل تعرف : ان تلك الفتاة الجميلة كانت حياتها لا بأس بها فى السنوات الاولى بعد زواجها من ذلك السكرتير . كان السكرتير يعتبرها درة ثمينة بين يديه ، لذلك اعتنى بها ودللها . ان الامور بين الزوجين يصعب وصفها . كانت تفكر احيانا : عليها ان تعترف بأنها محظوظة لأنها تزوجت من هذا الرجل الذى يعتنى بها ويدللها . لكنها ما لبثت ان رأته بأم عينيها مع امرأة اخرى ، فأغمى عليها . وفى يوم آخر رأته يندفع مع امرأة اخرى الى حقول القصب ، يصعدان زورقا فى وضح النهار ويتشابك جسماهما العاريان معا . كانت طيور الاوز البرى تحلق فوق حقول القصب ، فاسود كل شىء امام ناظريها . حاولت ان تحرك زورقا آخر ليصدم زورقهما ، ثم تموت معهما . غير ان زوجها لم يغضب ، بل استمر فى ذلك امامها . يا له من وقح ! ثم قفز امامها بعد ان ارتدى ملابسه ،

وضمها الى صدره . وقال انه لن يضربها ولن يشتمها ولن يطلقها طوال حياته ، وطلب منها فى نفس الوقت الا تتدخل فى شؤونه متظاهرة بأنها لم تر شيئا . الذنب ذنبها ، فكل ذلك بسبب ضعفها . ماذا تريد منه خلاف ذلك ؟ واخذت تعيش معه مغمضة عينيها . وعاودها الصداع :

ـ الناس مختلفون فى هذه الدنيا . آه ، لا يمكنهما الا يتقابلا . . . لا يمكنهما . . . لا يمكنهما . . .

ـ هل تبكى ؟ انت رجل ، على من تبكى ؟

ـ ابكى من اريد ان ابكى من اجله . ماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ ثم قلت فى الفيلق الانتاجى الاشياء التى يمكنه ان يكسب منها . فبدأ يعالج بعض الامراض الغريبة مثل انسداد الحنجرة بحسك السمك او بغير ذلك . لم يكن عدد المرضى كثيرا ، ولكنه كسب منهم كثيرا ، وانفق كل ما كسبه على الموبقات . وعندما قبض عليه فى السنة الماضية عرف الناس انه قد نام . . . نام مع كثيرات . .

ـ هل حكم عليه بالاعدام ؟

ـ حكم عليه بالسجن مدة عشر سنوات . وقد زارته زوجته مرة فى فرقة اصلاح المجرمين ، ونصحته بأن يبوح بوصفة علاج تلك الامراض الغريبة . فاسود وجهه غضبا ، وقال ان بوسعه ان يعيش على هذه الوصفة طول حياته بعد ان يخرج من السجن . ثم زارته زوجته مرة ثانية ، ومعها خبز محشو . وكان نهما ، فلم

يكد يتفوه بكلمة حتى تناول الخبز وقضم منه لقمة . وبعد هذه اللقمة فقط ألقى بنفسه من الطابق العالى بالعمارة ولفظ انفاسه . لم يخطر ببالها انه كان يعرف ان الموت افضل خيار لرجل من امثاله ! لقد كان الخبز محشوا بالقش .

ـ عظيم ! ما اعظم القش .. ما اعظم القش !

ـ اشتد الصداع عليها بعد ذلك . بدأت تشعر بأن خطوتها هذه لم تكن جيدة ...

ـ بل كانت خطوتها هذه جيدة تماما ، جيدة جدا .

ـ الانسان ... يصعب وصفه .

ـ صحيح ... الانسان يصعب وصفه حقا .

كان وقت الفطور . ظهر من سطح البحيرة الواقعة فى الغرب البعيد صفوف من السحب السود ، كأنها جبال شامخة غريبة الاشكال . ثم بدأت تتضخم وتنتشر بسرعة عظيمة فى كل الجهات ، وتخيم على الارض كلها . ومن بعيد دوى هزيم الرعد المخنوق عدة مرات . ثم هبت العاصفة فجأة ، واشتدت تدريجيا هازة الأشجار بجنون ، وانخفضت درجة الحرارة كثيرا . كان الناس يهنئون بعضهم بعضا مهللين فى الافنية والشوارع . خلع الرجال كل ملابسهم الا ما يستر عوراتهم . وحركت النساء ملابسهن حول اجسامهن بخفة . واشتدت الريح حتى ترنح الناس . فأصبحت الاجسام اللزجة ناعمة وزال الحصف . ثم هدأت الريح تدريجيا وخيم الظلام على بلدة يبيا ، فبدت السماء شديدة الانخفاض

كأن الاسوار الخيزرانية تلامسها . والتمع البرق فى السماء ، ودوى الرعد . ثم نزل المطر ، وانتشر فى كل بقعة .

واخذ صوت ماكينة الزوجة شوى شيان لنسج الاكياس القشية يتردد : "كوانغ دانغ ! كوانغ دانغ ! " فيبدو كصوت رجل مصاب بالربو .

لم يتسن لشى لونغ ومتدربيه ان يسلقوا السمك ، فظلوا فى الغرفة يتجاذبون اطراف الحديث . وعندما تحدثوا عن مسقط رأسهم ، ثار فى قلوبهم الحنين العميق . اما شى لونغ فحدق فى تلك الكوة المستطيلة مثل غبى معتوه .

اظلم مدخل الباب حين دخل شخص يحمل ممطرة قشية ويلبس قبعة خيزرانية ، شكله شكل قنفذ كبير ، فتجمع الماء تحت قدميه .

ــ لماذا اتيت فى هذا الجو يا عم ؟

طلب شى لونغ من العجوز فنغ شو تشيوان ان يجلس ، وقدم له المتدربون التبغ والشاى .

ــ جئت لزيارتكم .

بدت على العجوز امارات الجمود . لم يدخن ، ولم يشرب الشاى ، حتى انه لم يأخذ مكانه على المقعد ، بل جلس القرفصاء قرب الجدار واضعا يديه على ركبتيه . كان يبدو كأنه شكل فنى منقوش على الخشب .

ــ ما اسوأ هذا الجو مع انه منعش ! ولكن المطر .. لا داعى لكل هذا المطر الغزير . من المفروض الا يستمر المطر

الذى يرافقه الرعد وقتا طويلا . ولكن السحب السوداء اليوم كأن جذورها قد تأصلت فى السماء . هل ستغرق بلدة بيبا مرة واحدة ؟ ويل لهذا الجو ! هل ستنتهون من سلق السمك سريعا ؟

— نعم . انك طيب القلب يا عم .

— لو كان الجو صافيا لما تأخرتم . ان الغريب المسافر اذا صادف مثل هذا الجو ، اصبح كالقابع فى غياهب السجن ! انكم طيبون ، لماذا تعارضكم السماء ؟ يا له من جو خبيث ، شيطانى ...

ظل العجوز يكيل السباب واللعنات للجو دون توقف . واحس المتدربون بشيء من اللطف فى كلامه ، فتركوه يلعن على هواه. اشتد حقد العجوز على الجو ، واخذت لعناته تشتد وهو ينظر الى المطر الذى يثير الضباب .

فكر شى لونغ : ربما لم يأت العجوز ليجاذبنا اطراف الحديث . ثم قال :

— لينزل ! كأنه يمنحنا اجازة لنستريح . كل عمل يؤديه الانسان دون راحة يؤدى به الى الهلاك . لا تغضب من الجو يا عم .

— كلامك صحيح . على الانسان ان يستريح قليلا مهما عمل .

اسبل العجوز جفنيه ، كأنه راح فى النوم قليلا .

— كيف جروحك التى سببتها النار ؟ انها شديدة الايلام . لقد اصابتنى جروح ، ولكنها ليست كثيرة مثل ما عندك . جروحك تفزع الناس ، تفزعهم .

لمس العجوز ذراع شى لونغ ، ثم اسبل جفنيه مرة اخرى ، كأنه نام ثانية .

ــ هل من خدمة تؤديها لك يا عم ؟ ليس لدينا الآن عمل ، انما قوتنا جبارة .

ــ شكرا . كيف اطلب منكم خدمة ؟ لا اريد ، استريحوا . سأغادر الآن .

وفيما ساعد شى لونغ العجوز على تناول ممطرته القشية واوصله الى الباب ، تساءل فى نفسه : لماذا اتى العجوز ؟ انك تستشف ان لديه ما يصعب عليه قوله لو دققت النظر الى ما يكسو وجهه من خجل . دوى صوت ماكينة نسج الاكياس القشية من الجانب الآخر للكوة المستطيلة ، وبدا اشد فى هذه المرة .

اظلم مدخل الباب ثانية حين عاد العجوز صاحب الممطرة القشية الى داخل الغرفة قائلا :

ــ ربما لا يستمر هذا المطر اللعين وقتا طويلا . فقد ظهر النور فى الغرب .

ــ يا عم قل ما عندك بكل صراحة .

ــ اية خدمة اريدها منكم ؟

ارتعش جانب من وجهه فى تشنج ، كما ارتعدت اسنانه . واضاف يقول :

ــ لا اجرؤ ان اطلب خدمة منكم حتى ولو كانت هناك خدمة .

لمعت عينا العجوز فجأة ببريق الامل والخوف ، واخذتا

تحدقان الى شى لونغ تحديقا جامدا .

فصافحه شى لونغ بحرارة صادقة قائلا :

— لا بد ان نساعدك . عليك ان تأمر يا عم !

تأثر العجوز كثيرا فبدا جسمه اكثر تقلصا . كانت زاويتا فمه ترتعشان . ثم امسك بذراع شى لونغ ، واخذ يهمس فى اذنه ، بينما حنا الاخير ظهره ليستمع اليه . واستمرت هذه الحال دقيقتين . كان العجوز يريد ان يقول شيئا ، ولكنه حبسه قبل خروجه من فمه عدة مرات . فلم يستطع شى لونغ ان يكبت ضحكاته المدوية . مسح الشيخ ما على وجهه من الماء ، واستجمع شجاعته ، وسحب شى لونغ الى ركن بالغرفة وقال :

— اريد خدمة منك .

كان صوته واهنا ، حتى ان شى لونغ لم يسمعه بوضوح .

— انا ضعيف . . انسان من الذين لا فائدة منهم . لا اعرف اى تجارة غير صيد السمك . زوجتى مريضة ، وولدى مشلول ، وبنتى تزوجت . اقول لك بصراحة ودون خوف من ان افقد ماء وجهى ان حياتنا بائسة تعسة . . .

— هذه خدمة بسيطة يا عم . يبدو عليك انك من الناس الطيبين والمستقيمين فى الحياة ، فلنكن صديقين .

اخرج شى لونغ من حقيبته السوداء مئة وخمسين يوانا ودسها فى يده بقوة :

— لا تؤاخذنا ، فهذا المبلغ ضئيل ، وليس معنا سوى نفقات عودتنا . لنتصل ببعضنا بعضا دائما عن طريق المراسلة .

احمر وجه العجوز فجأة ، وارجع النقود الى يد شي لونغ بقوة ، وقال متلعثما :

— لم اقصد هذا . اذا كان هذا قصدى ، فلتعاقبنى السماء وليصعقنى الرعد ! انى اعيش من عرق جبينى . لن آخذ نقودا من غيرى دون سبب . اريد منك ان تعلمنى طريقة سلق السمك . . . تعلمنى . . . وحدى .

دهش شي لونغ دهشة شديدة ، وشعر بدوار خفيف ، فتساقطت الاوراق النقدية من يده مثل اوراق الاشجار المتساقطة . وارتسمت على فمه ابتسامة مرة ممتزجة بشيء من التوتر . وغامت الرؤية فى عينيه ، فلم يعد يستبين وجه العجوز ووجوه المتدربين بوضوح . كما لم يستطع رؤية المطر والضباب وتلك الكوة بجلاء . وبعد هنيهة اختفت اصوات الريح والمطر جميعا ، وسمع فى غير وضوح نبضات شخص ثقيلة . فركز قوته وانتباهه للتمييز ، واخيرا عرف انها ليست الا اصوات "كوانغ دانغ ، كوانغ دانغ" التى تدوى فى الغرفة الشرقية . ما اشد تلك الاصوات ! اتجه العجوز الى باب الغرفة منكمشا ، فبدا كأنه يضم شيئا الى صدره ، لا يريد ان يريه لغيره ، مما اثار قلق الناس واشفاقهم عليه .

تبعه شي لونغ صائحا :

— انتظر يا عم !

توقف العجوز خارج باب الغرفة ، غير آبه بقبعته الخيزرانية التى دفعتها الريح الى ظهره . وانتفخت ممطرته القشية بفعل الريح ، فبدت كالقنفذ الذى يعيش فى ذعر دائم . كان المطر يهطل ،

كأنه يصب من السماء على رأسه . وظهرت تحت قدميه امواج خفيفة ، بللت نصف ساقى بنطاله .

اعاد شى لونغ قبعته الى رأسه ، وهز العجوز رأسه بين الشك واليقين ، وتحرك فى خطوات مترنحة واختفى بين المطر والضباب .

وسأل المتدربون معلمهم شى لونغ :

ـ أحقا ستعلمه وحده يا معلم ؟

ألقى شى لونغ بنفسه على السرير بقوة :

ـ المطر ينزل . . لا يمكننا ان نعمل . اذهبوا واشتروا بعض الخمر !

لم يمض الا وقت قليل حتى اصبح الخمر والاطباق جاهزة . جلس المعلم والمتدربون الاربعة فى حلقة صغيرة ، يشربون كأسا بعد كأس صامتين . وقبيل ان ينفد لتر من الخمر اصيب شى لونغ بنوع من السكر ، فبدأ يغنى بكلمات غير واضحة :

السحب فى السماء لا ترى
جريان الماء على الارض لا يسمع
الشاب الرائع لا ينفصل عن حبيبته الرائعة
الشمس الحامية لا تخفى الاحباب . . .

وبينما هم كذلك دخل رجل ضخم يحمل ممطرة ، وقال :

ـ اوه ، انتم تشربون !

ثم استدار وخرج .

لم يأبه شى لونغ بذلك ، بل واصل الغناء . ثم وصل الى

مسمعه صوت سقوط شيء فى الغرفة الشرقية ، فاندفع نحو الكوة ، فلاحظ مقعد الزوجة شوى شيان قد سقط ، وهى مستلقية على جانب من جسمها على سريرها وتقرص جبينها بالكلابة . فهرع شى لونغ واحد المتدربين الى الخارج . وقبل ان يدخلا الغرفة الشرقية سمعا بابها يغلق .

عاد الرجل صاحب المطرة ، واذا هو يوى يويه عاد بأربع قارورات من الخمر الممتاز ولحوم دجاج وبط محمر ، واخرج من جيبيه اكثر من عشرين بيضة مكلسة .

— اليوم الممطر يوم شرب الخمر ، فلنشرب يا اخوتى !

ملأ يوى يويه كأسه حتى فاضت . واشعل عود كبريت وألقاه على الارض ، فظهر لهب ازرق يتذبذب .

— الخمر ممتاز ! قوى !

— لقد شربنا كثيرا ، فلا نستطيع ان نشاركك فى الشرب يا اخ يوى .

— يصعب على الغرباء ان يتقابلوا يا اخ شى ! انكم جئتم من شانشى . لقد احتقرتكم فى البداية . ولكنى اقتنعت بكم فى الايام الاخيرة . ستسافرون عما قريب . لا اريد ان اتحدث معكم حول اى موضوع . اعتبروا زيارتى هذه وداعا مسبقا . لا تضعونى فى موقف حرج .

رفع يوى يويه كأسه . وضرب بها كأس شى لونغ ، وشرب معه كأسين .

ثم شرب كأسين مع كل من المتدربين . كان احد المتدربين

شابا ابيا لا يخضع لاحد ، فلعب مع يوى يويه لعبة التخمين بالاصابع . وبعد ربع ساعة ، لم يحدد من الغالب . ولكنهما شربا ٦ اوقيات من الخمر . فحرك يوى يويه يده قائلا :

— لنترك هذه اللعبة . فمهارتنا متقاربة . انها لعبة مملة . لنشرب خمس كؤوس متتالية معا .

وقال ذلك المتدرب متأثرا مسرورا :

— اذن ، نشرب سبع كؤوس مثلما جرت العادة فى مسقط رأسنا .

— حسنا ، سبع كؤوس ، يبدو ان لقاءنا مقدر .

شربا سبع كؤوس من الخمر ، فأصبح وجه يوى يويه بلون العناب ، واخذ يهز رأسه باستمرار ويتجشأ قائلا :

— انا فاشل ، لقد شربت اكثر مما ينبغى .

كان لون وجه المتدرب طبيعيا ونظراته خافتة ، فقال مداعبا ومبتسما :

— لنشرب كأسين اخريين !

— حسنا ! جدير بنا ان نشرب حتى ولو متنا من هذا الشرب . نشرب كأسين .

وشربا كأسين اخريين ، فأمتقع لون وجه ذلك المتدرب ، ومال جسمه الى الارض .

وخلال شربهما كان المتدربون الثلاثة الآخرون متجمدين كالدجاج الخشبى . اما شى لونغ فهو منحنى الرأس غارق فى

تفكير عميق . عندما سقط ذلك المتدرب ثملا ، اسنده الثلاثة الى السرير ، وسقوه ابريقا من الشاى لينام . وبدا يوى يويه ثملا هو الآخر ، وانطلق الى الفناء بخطوات مترنحة ، واخذ يشرب من المطر بنهم رافعا فمه الى السماء واضعا يديه على خاصرتيه ، فأسنده المتدربون الى داخل الغرفة . ابعدهم من حوله ، وتناول قارورة الخمر وشرب منها مباشرة .

تأثر المتدربون الثلاثة لحاله . وشرب كل منهم عدة كؤوس ، ثم سكروا واحدا تلو الآخر ، وذهبوا الى اسرتهمليناموا . اما يوى يويه ، فاشتدت حماسته فى الشرب ، وملأ كوبى شاى كبيرين بنصف لتر من الخمر . ودفع واحدا منهما الى شى لونغ . ثم رشف من كوبه جرعة ، ونهض الى دورة المياه وهو يغنى . لحس شى لونغ كوبه ، واذا برائحة الخمر تتخلل خياشيمه . غريب ان رغبته فى الشرب اليوم شديدة . وقد اشتد عليه النعاس حتى صعب عليه ان يصمد ، فنام مستندا الى الجدار . توقفت حركات الماكينة فى الغرفة الشرقية ، بينما ظل المطر يسقط بغزارة والريح تعصف بشدة . مد يوى يويه يده وحرك شى لونغ فأيقظه ، وبدأ يطلب منه ان يشرب — او قل يعاقبه بالشرب — فيصدمان كوبيهما ، وهما يضحكان ، ويتبادلان كلمات السكر . واخيرا افرغ الكوبان فى معدتيهما . وبعد ان ابتلع شى لونغ الجرعة الاخيرة امسك بكوبه الفارغ مندهشا ، لم يستعذب الطعم الا فى هذه الجرعة الاخيرة . لقد تحول ذلك الكوب من الخمر القوى الى ماء صاف ! يا للغرابة . . .

لقد شرب شى لونغ كثيرا قبل هذا الكوب على كل حال . وسرى مفعول الخمر فى جسمه ، فاستلقى على ظهره فوق السرير فى فتور وعلا شخيره .

اطلق يوى يويه نفسا طويلا ، وابتسم ابتسامة ماكرة ، ثم اخرج من تحت ابطيه قطنتين مبتلتين . وعصرهما ، فسال منهما ماء تفوح منه رائحة الخمر اللاذعة . ان امره عجيب غريب ، اذا شرب الخمر تعرق ابطاه كالنافورة ، وخرج الكحول من غدد العرق ، لذلك لا يسكر حتى لو شرب لترا من الخمر القوى . لقد مسح وجه شى لونغ الآن ، ثم سقاه الشاى ، وحرك منكبيه بخفة مقتربا بفمه من اذنه ، وقال بصوت خافت :

— يا اخى شى لونغ ، لقد توقف المطر ، اسرع بسلق السمك !

— لا ، لن اسلق .

— انك كسبت نقودا هائلة ! طريقتك فى سلق السمك جيدة وفعالة !

— لا ريب فى ذلك . . .

— جاء كل الناس .. شيوخا وشبابا ، ليستمعوا الى شرح طريقتك فى سلق السمك !

— هل جاء . . . جميع اهالى . . . بلدة بيبا ؟

— نعم ، جاؤوا كلهم ! قل بسرعة !

فتح شى لونغ عينيه فجأة ، وألقى الى يوى يويه نظرة حائرة ، ثم اغمضهما باحكام مرة اخرى . ارتعش يوى يويه ، واخذ يلدرع

الغرفة ذهابا وايابا . وشرع شى لونغ يضحك كالاحمق دون ان يفتح عينيه ودون اية حركة . فقط يضحك ويضحك ، حتى استراح من كثرة الضحك . وتساقطت من عينيه سلاسل من الدموع ، واصبح الجو فى الغرفة مخيفا مظلما .

ما زال المطر ينزل ، والجو يزداد حلكة .

سقى يوى يويه المتدربين الشاى وغطاهم . وسقطت مخدة المتدرب الذى سكر قبل غيره ، فتناولها يوى يويه ونفض عنها التراب ، ثم وضعها تحت رأس صاحبها . وبدأ شى لونغ يضحك كالغبى مرة اخرى .

ـ اعد طريقة سلق السمك مرة اخرى يا اخ شى لونغ . لقد قلتها مرة . ولكن الناس لم يسمعوا بوضوح .

ـ انها سهلة . . . سهلة . . . السكر الاحمر ، الملح . . .

فقال يوى يويه مبتهجا :

ـ السكر الاحمر والملح معروفان . هناك شيء ثالث . . .

ـ الثالث هو . . .

ـ ما هو ؟ قل !

اشتد الصداع على شى لونغ ، واحس بأن رأسه سينشق . انه لا يريد ان يقول شيئا ، ولا يريد ان يسمع شيئا . كانت افكاره مضطربة مثل خيوط الكتان المتشابكة ، فقد اخذ يفكر بصورة غير واضحة فى مرارته وحزنه السابقين ونجاحه اليوم ، فى مسقط رأسه وبحيرة ويشان الجميلة ، وفى متدربيه وذلك العقد الذى وقعه مع الآخرين ، وفى العاصفة الرعدية ، وفى الاهل فى طرف

بلدة بيبا الشمالى ، وفى طريقته فى سلق السمك ، ثم تذكر كوب الماء الكبير— ماذا كان سيحدث له لو كان الكوب مملوءا بالخمر .

الح يوى يويه فى سؤاله مرة ثانية ، ففتح عينيه المرهقتين بصعوبة ، واذا بأشباح سوداء امامه . ومض برق فى السماء ، فآلمت هذه الومضة الباهرة الغريبة عينيه ، فأغمضهما فورا . وتضايق من إلحاح يوى يويه فى سؤاله ، فقال يلومه :

— هل نسيتها ... بهذه السرعة ... السكر الاحمر ... الملح ... و... و

— وماذا ايضا ؟

سمع شى لونغ من بين صوت "ونغ ونغ" الذى يدوى فى رأسه واصوات الريح والمطر صوتا غريبا يبدو بعيدا وعميقا ، وحيدا وجميلا . وخيل اليه انه يرى شخصا يتجه اليه بخطوات هادئة وثابتة . فصحا ، ورأى تلك الكوة . واتفقت نبضاته مع اصوات "كوانغ دانغ ، كوانغ دانغ" . لماذا حدث هذا الاتفاق؟ لماذا ؟

احس يوى يويه بضيق شديد فى صدره ، كأن الخمر الذى شربه يشتعل فيه . وسأل مرة اخرى :

— ماذا يضاف الى السكر الاحمر والملح يا اخى شى لونغ ؟

— يوجد ...

شعر شى لونغ بأن شيئا ما يلمع فى رأسه ، فعادت يقظته وذكاؤه الى طبيعتهما :

— القلى ، القلى ، لا تنس ابدا ... نسبته ١٠٪ ...

بدا يوى يويه كأنه نزع اشياء ثقيلة عن كتفه فغطاه بالفراش :
ثم نظر الى المتدربين الاربعة ووجد لونا احمر هادئا قد ارتسم على وجوههم ، فسقاهم شايا ، ثم تركهم مسرورا .

توقف المطر وهدأت الريح فى الساعة الثامنة ليلا ، وبقيت السحب تسبح وتتفرق ببطء . وبدت النجوم المتلألئة كأنها ستهبط من السماء . وغمرت رائحة طيبة خفيفة كل نواحي بلدة بيبا . صحا شي لونغ والمتدربون من السكر ، واعدوا العشاء . وفضل المتدربون ان يناموا فى الفناء ، لذلك بدأوا يرتبون المفارش والناموسيات بعد العشاء . اما شي لونغ فبقى فى الغرفة يحتسى الشاى ، يبتسم متأسفا .

جاءت السيدة تشاى تشياو تشياو ، واصبحت اكثر مما كانت عليه فى ذلك اليوم جرأة وعدم ارتباك . فقد دفعت بصدرها الممتلىء ذراع شي لونغ ، واخرجت مئة يوان قائلة فى صراحة :

– سمعت الناس يفضلون شراء "براءة الاختراع" اليوم . فأريد ان اشترى طريقتك فى ساق السمك بمئة يوان . انت غبى ان لم تبعها . اذن . . اتفقنا . قل ، ان ذاكرتى قوية !

تظاهر شي لونغ بأنه يتكلم جادا :

– لا يمكننى ان آخذ منك النقود ، لا يمكن ابدا . ولكن يمكننى ان اعرفك بالطريقة .

وقال لها ما قاله ليوى يويه . اصرت تشاى تشياو تشياو على ان تدفع له النقود .

فرفض بلباقة ، مما اثار اعجاب تشاى تشياو تشياو كل

الاعجاب . ثم عادت الى بيتها من طريق موحل .

بعد وقت قليل ، رمى شيء بحجم بيضة حمامة الى الغرفة سقط على جسم شي لونغ ، فأخذه مستغربا ، واذا به رسالة ملفوفة قد كتبت بخط رديء : ضع طريقة سلق السمك داخل جرة ، وارسلها الى بسرعة فى زورق قديم على بعد ثلاثين مترا فى الجهة الغربية . ممنوع اعلان الطريقة . حذار من مخالفة ذلك !

تبادل المعلم والمتدربون النظرات ، ثم ضحكوا معا دون اتفاق مسبق .

(ادلهمت السماء بالغيوم مرة اخرى ، واشتدت الرائحة الخفيفة . هذه ليلة خمر ترى فيها احلام جميلة . هناك نار الصيادين على سطح البحيرة فى غربى البلدة ، وتتصاعد من هناك اصوات التجديف الى السماء .)

— انت ماكر يا ابن الزانية !

— هل عرفت مجيئهم ؟

— عرفت كل شيء ، كل شيء حقيقي ومزيف .

— اذن ، لا داعي ان اعرفك بتلك الطريقة ؟

— لقد عرفتها . لا داعي .

— سنرحل عما قريب . لقد اتعبناك فى هذه الايام !

— . . . بعد ان ألقى زوجها بنفسه من عمارة عالية ، جرى خلفها كثير من الرجال ، بينهم من طلب يدها عن طريق الخاطبة ، ومن حاول استرضاءها بالنقود والهدايا ، ومن اراد الاعتداء عليها ، حتى ان احدهم طلب منها ان تأتيه الى حقل القصب ليلا ،

وهددها بالذبح ان لم تمتثل لأوامره .

— هل ذهبت ؟

— يا لك من رجل سوء ! كانت تكره الرجال كرها شديدا ، ولا تريد ان ترى ايا منهم !

— انت مخطئة يا شوى شيان ، فنحن الخمسة والجم الغفير من رجال البلدة طيبون حقا .

— . . .

— اريد ان اسمع ملاحظاتك عن عيوبى ، سأرحل عما قريب .

— . . .

— سأرحل عما قريب !

— . . .

— انت طيبة جدا يا شوى شيان . . اريد علبة كبريت لو سمحت .

— تفضل ، خذ .

(امتدت ذراعان عاريتان الى داخل الكوة سويا . لم يأخذ علبة الكبريت من يدها ، وهى لم تتركها . الكوة تفصل بين كتفيهما . اقتربت احدى الذراعين من الاخرى ، فارتعشتا دون برودة . سرت الحمى فى جسميهما ، وثقل تنفسهما . استمرت هذه الحالة طويلا والصمت مطبق . ضم شى لونغ ذراعها بيديه فجأة ، رشدها الى جانبه بقوة محاولا ادخال رأسه فى الكوة بعناد . وتمزقت القطعة القماشية البيضاء الصفراء الوسخة المعلقة على

فتحة الكوة من جانبها . وقبل يدها بجنون ، فسالت الدموع على ذراعها . اصيبت بالدوار كأنها قضت قرنا جميلا دافئا . ولحست فتحة الكوة دون وعى ، فوجدت طعمها مرا وحلوا . كانت لا تعرف ماذا سيحدث لهذه الكوة ، لو لا صوت الرعد المدوى الذى جعل الصداع الشديد يعاودها . فتناولت الكلابة ، وقرصت بها ذراعه قرصة شديدة .)

لم تنم الزوجة شوى شيان طويلا حتى ايقظتها ضجة شديدة . كان ستار الليل كحرير شفاف رقيق ، والسحب قد تلاشت كلها ، والنجوم تضاءل عددها . فتح باب الفناء حيث يتزاحم بائعو السمك ويعلو ضجيجهم . فوجدت الزوجة شوى شيان باب الغرفتين الغربيتين مقفولا . فوجهت نظرها الى الكوة بسرعة ، واذا الغرفتان خاليتان ، وفى الكوة ثمانون يوانا تحتها ورقة كتب عليها : انى راحل ! انى لشديد الاسف . هذه هى الاجرة وتكاليف الحطب . الى اللقاء !

جرت الزوجة شوى شيان مترنحة حتى وصلت الى البحيرة حيث الامواج تلمع وتتلاطم ، والزوارق تسبح ذهابا وايابا فى هدوء خالية من الهموم ، والناس مشغولون ، منهم من يقتطف الكستناء المائية ، ومنهم من يقطف غيرها من الثمار ، ومنهم من يراقب الشباك .. الخ . ان البحيرة فى الصباح الباكر دنيا موسيقية . اسراب الحجل تتحلق صاعدة فى السماء احيانا ، وتحط ببطء احيانا اخرى غير خائفة من البشر ومطلقة صيحات رخيمة . واصوات بط المندرين واللقلق الرقيقة ترن رنات مثيرة مبشرة بصباح جميل صاف . وغناء

بنات الصيادين يأخذ بالالباب ، شأنه شأن قوس قزح طويل يتلوى فى حقول القصب ، ويتجول بين ازهار اللوطس ، ويحلق فى السماء الصافية . ثم ينزلق الى الماء ، فتحمله الامواج الخفيفة المتلألئة ليدخل الى القلوب بخفة . هل هناك شيء محزن فى هذا الصباح الجميل ، وفى هذا المنظر البديع ؟

ان تخيلات كثيرة تظهر امام عينى الزوجة شوى شيان ، فصورته المتكررة تملأ سطح البحيرة ، وصوته يدوى فى كافة انحائها . البحيرة عميقة العواطف .. كثيرة الاحزان والهموم . قرصت جبينها بالكلابة باذلة كل جهدها . فسقط الى البحيرة بجانبها ما يشبه اللآلئ . ثم سقط ما يشبه حبات الفول الحمراء . فظهرت فى مياه البحيرة سحب حمراء تسبح ببطء وخفة .

كثر الذاهبون الى السوق لشراء السمك فى اليوم التالى . اشترى الاهالى مئات بل آلاف الكيلوغرامات من مثل ما عمله شى لونغ ومتدربوه ، فالسمك بخس الثمن .

بعد الفطور تواصل انفجار المفرقعات فى طرف بلدة بيبا الشمالى كأنما الناس فى عيد الربيع . لقد نصبت اكثر من عشر قدور كبيرة عند اربع او خمس اسر ، وبدأت حزمات من القصب تشتعل تحت القدور ، فانعكست اضواء النار على وجوه الناس . ودوى صوت الغناء منبعثا من جهاز تسجيل . غلى الماء وضج الناس . ولام غالبية الاهالى هناك ذلك الغريب الذى كشف طريقته لقلة قليلة من الناس . وقال عجوز هرم فى تأثر معلقا على ذلك : "كنا منهمكين فى حركة تعدين الحديد والصلب عام

١٩٥٨ ...»

بعد الظهر خيم السكون على طرف البلدة الشمالى فجأة ، وانتشر جو من اليأس والحيرة . اربدت وجوه الاهالى الذين سلقوا السمك رجالا ونساء ، كبارا وصغارا . وارتاح الذين لم يسلقوا ، حابسين ضحكاتهم ، غير عاتبين على ذلك الغريب الذى سافر من غير ان يودع الناس .

انتشر فى بلدة بيبا كلها خبر يقول ان السمك المسلوق قد اصبح مثل طين لين على شكل اعشاب مقطوعة . لقد جف سريعا بعد اخراجه من القدور ، واسود لونه مثل مسحوق الفحم الذى بلله المطر مدة طويلة ، وفاحت منه رائحة احتراق كريهة تثير الغثيان . وبدا العجوز فنغ شو تشيوان الطيب الصادق كأنما افاق من كابوس ، واخذ العرق البارد يتصبب من جسمه بلا انقطاع ، فاختفى فى ركن به قليل من الناس . من حسن حظه ان شى لونغ لم يخبره بطريقة سلق السمك ، والا ... وشكر شى لونغ فى سره شكرا جزيلا .

اتجه يوى يويه ، وهو يغلى من شدة الغضب ، مع جماعة من الناس نحو بيت الزوجة شوى شيان ، معتقدا انها بالتأكيد تعرف الطريقة الصحيحة وتعرف عنوان ذلك الغريب . لن يدع يوى يويه واصحابه الامر هكذا ، ولكنهم وجدوا باب بيت الزوجة شوى شيان مقفولا ، كما كانت غرفتها مقفولة ايضا . نظر يوى يويه من فتحة الباب الضيقة الى الداخل ، فوجد ماكينة نسج الاكياس القشية على حالها ، والسرير والمفروشات منظمة ومرتبة

والكلابة التى كانت تحملها فى كل مكان ملقاة وسط الغرفة على غير عادتها .

اين الزوجة شوى شيان ؟ ذهب بعض الناس الى البحيرة او الى حاضرة البلدة يبحثون عنها . وبدأ كثير من الناس فى التفكير والتخيلات والتخمينات . وخفضت الحماسة التى اثارها غياب الزوجة شوى شيان اليأس الذى حدث بسبب الفشل فى سلق السمك .

هبت ريح شديدة قبيل غروب الشمس ، واشتدت فى طرف البلدة الشمالى . وبدأت قطع السمك السوداء تتحرك وتتصاعد ، وتتطاير فى الفضاء على هواها كأسراب العصافير وجماعات الذباب التى تلقى اظلالا كثيفة على الارض . كما سمع رنين خفيف غير واضح . لقد جاء الاهالى المقيمون فى وسط البلدة وجنوبها ليتمتعوا بهذا المنظر الغريب النادر . كلهم يضحكون . منهم من ضحك ساترا فمه بيده ، ومنهم من ضحك منحنيا بجسمه الى الامام والخلف ، ومنهم من ضحك حتى شكا من شدة الضحك . ومنهم من سالت دموعه من كثرة الضحك . وكان بينهم عجوز بلحية فضية ، يتدرب على فن الخط ، وقد عرفه شى لونغ منذ قدومه الى البلدة . وقف هذا العجوز مبتسما ، يمسد لحيته .

لم يعرف الاهالى فى طرف البلدة الشمالى الا فى هذه اللحظة ان العجوز ذا اللحية الفضية قد خط بريشته بضع عشرة نسخة لطريقة سلق السمك ، وألصقها فى اماكن تلفت الانظار فى بلدة بيبا . ولقد كتب فى هذه النسخ :

السكر الاحمر ١٠٪ ، الملح ٣٠٪ ، الشب ١٠٪

...

ـ الشب ، يا له من ملعون !

ـ ليس قليا ، ليس قليا ، يا له من ملعون !

ـ لقد قلت سابقا : ما دام هناك لقمة من الخبز ، فلن يموت الانسان جوعا . ما رأيكم ؟

ضج الناس وصاحوا فى عصبية ، ثم ارتمست على وجوههم ابتسامة مرة ، امتزجت بالاسف ، وهم ينظرون الى السماء فى حيرة واضطراب .

كلمة عن المؤلف



لى قوان تونغ . . من ابناء يويتاى بمقاطعة شاندونغ ، ولد فى اكتوبر ١٩٤٩ . وبعد ان تخرج فى المدرسة الثانوية عمل فلاحا وفنيا ومعلما وكهربائيا . وقد التحق عام ١٩٧٧ بكلية اللغة الصينية لمعهد لياوتشنغ للمعلمين فى مقاطعة شاندونغ .

وبدأ ابداعه الأدبى عام ١٩٨٠ ، فنشر كثيرا من الروايات والقصص ، كما نشر مجموعتى قصص تحت عنوان « حين تعود السنونو» و« كوة الحب » فازتا بجائزة ادبية على

مستوى المقاطعة ، وقد فازت قصة «كوة الحب» بجائزة وطنية للقصص القصيرة الممتازة فى عامى ١٩٨٥ و١٩٨٦ .

ويعمل لى قوان تونغ اليوم كاتبا محترفا ، وهو عضو فى اتحاد الكتاب الوطنى وعضو فى فرع شاندونغ لاتحاد الكتاب ونائب لرئيس دائرة الابداع الأدبى .

ابو الشاحنات

يوى ده تساى

اعتدنا نحن الذين نعيش بين الجبال الواقعة فى شمالى شبه جزيرة لياو الشرقية ان ندعو الشواطئ المطلة على البحر الاصفر " البحر الجنوبى " ، بينما هؤلاء الذين يستوطنون " البحر الجنوبى " يطلقون على بلدنا " الجبال الشمالية " . فبطل قصتنا هذه قد جاء من البحر الجنوبى الى بلدة شياماليتسى فى الجبال الشمالية ، واصبح " ملك الشاحنات " صاحب الشهرة الواسعة الانتشار .

١

ما انقضت ساعه حتى ملئت الشاحنات الثلاث بمسحوق الفحم ، وكل منها مزودة بمقطورة . ثم غرز صاحبنا جياو بينغ خه المجرفة فى كومة الفحم ، وخلع قميصه المبلل بالعرق والمتسخ بغبار الفحم الاسود ، ثم جمعه وعصره ، فتساقطت منه قطرات من سائل اسود لزج . ونفضه وجمعه ثانية ، وراح

يمسح به وجهه وعنقه بشدة ، ثم يجفف فى عدم اكتراث ذراعه المفتول وصدره الضخم .

وبسرعة صعد الحمالون جميعا الى الشاحنات ، وراحوا يدكون بمجارفهم الفحم المكوم المرتفع عن صندوق الشاحنة ، ويفعلون ذلك بكل ما اوتوا من قوة ، كأنهم حدادون يضربون بالمطرقة فى حركة منتظمة . يحنى الواحد منهم جسمه الى الامام قليلا ، والمجرفة بين يديه ، ثم يرفع صدره فيتقلص بطنه وتشتد عضلاته . ومع صيحة قوية يلوح بالمجرفة فى الهواء ، ثم ينزلها فتمر من فوق رأسه راسمة دائرة فى الهواء لتقع بقوة على الفحم ، فتظهر عليه حفرة عميقة مربعة . كان لا بد من دك الفحم مرارا وتكرارا حتى اذا انطلقت الشاحنات فى الطريق ، وهبت الريح على الفحم المكور ، فلا تذروه .

رمى جياو ، ابو الشاحنات ، قميصه المكور المتسخ على الارض ، واشعل سيجارة ، واخذ نفسا عميقا ، ثم راح ينفث الدخان ببطء وراحة ، وجلس ينظر هادئا الى الحمالين وهم يشتغلون : كانوا عراة الا من بنطال قصير ، وكان العرق اللزج المالح يتصبب منهم ، من قمة الرأس الى اخمص القدمين ، فيترك آثارا واضحة على اجسامهم المغطاة بغبار الفحم .

ظل جياو ينظر اليهم نظرة رب العمل ، نظرة من يتسلى بما يرى . نعم ، انه الآن سيدهم .

يكسبون منه بجهودهم وبعرق جباههم . وبالنقود التى يكسبها هو بطريقة شرعية او غير شرعية يستأجرهم . اذا دعاهم اقبلوا ،

واذا صرفهم ذهبوا فى حال سبيلهم .

يبدو انه لا عدل فى ذلك .

لكنها حقيقة واقعة .

ألمهم كيف نفهم العدل .

— يكفى .

رمى السيجارة المشتعلة الى نصفها ، وهب واقفا يصيح بمن فوق الشاحنات .

قفز الحمالون من فوق الشاحنات كأنهم مجموعة من الشياطين السود ، واقبل رئيسهم المدعو ليو بانغ تسى ، يمسح بيده وذراعه العرق المتصبب عن وجهه وعنقه ، ثم وقف امامه .

فتح جياو المحفظة المثبتة على حزامه الجلدى واخرج منها ثلاثة اوراق نقدية من فئة عشرة يوانات ، وقدمها لليو قائلا :

— خذ ، هذه ثلاثون يوانا .

انه لتكافؤ بين الجهود والنقود . يدفع الآخرون لهؤلاء الحمالين خمسة يوانات مقابل ملء شاحنة واحدة . اما هو فيدفع لهم عشرة يوانات ، اى ضعف ما يدفع غيره . ولكن بشرط ان ينهضوا من الفراش قبل الفجر بوقت طويل لينتهوا من الشحن قبل الساعة الرابعة صباحا . فالطريق فى هذا الوقت هادئ وخال من السابلة والسيارات ، فتسير شاحناته سريعة والسرعة تعنى النقود .

— بعد غد ، هنا ، فى نفس الوقت وبنفس الاجرة .

فرد عليه ليو يقول ، وهو يتناول النقود :

— حاضر .

ثم لوح بالنقود قائلا :

— هيا يا جماعة لنستحم !

جرى الحمالون وراء ليو ، وهم يجرون مجارفهم ويتصايحون قاصدين شاطئ النهر . التفت اليهم جياو بينغ خه يمعن النظر الى ظهر ليو العريض ، ذلك الاعزب الذى تجاوز الاربعين ، فتقلصت شفتاه ، ورفت عليهما ابتسامة مرة . ثم ادار رأسه فورا ، ودس فى يد احد السائقين رزمة من الاوراق النقدية وهو يقول :

— لا تتناولوا الفطور الا بعد وصولكم الى مخرج النهر . يجب ان تصلوا مدينة شنيانغ قبل الظهر . ثم احملوا حديد التسليح عقب تفريغ الفحم ، وانفقوا كل هذه النقود فى الطريق وكلوا ما طاب ولذ ، ونلتقى هنا غدا بعد الظهر .

— حاضر .

تحركت الشاحنات تهبط المنحدر ، وهى تهتز مخلفة وراءها اصواتا مزعجة .

بعد ان رأى الرجل شاحناته تنطلق فى طريقها شعر بالتعب يستولى عليه ، فانحنى فى تراخ ، وتناول عن الارض قميصه ومجرفته ، ثم اتجه يجرجر ساقيه نحو الشاطئ مترنحا .



نشر الضباب رداءه الثقيل على صفحة النهر ، فلم يعد من

السهل تمييز الماء من الضباب .

قفز الحمالون الى النهر ، وراحوا يدعكون اجسامهم بقوة ، ويصبون عليها الماء . كان الضباب ثقيلا يحجب نظر احدهم عن الآخر ، لكنهم يسمعون اصوات بعضهم بعضا ، وهم يصبون الماء على اجسامهم ويدعكونها بقوة ، وكذلك اصواتهم وهم يخرجون من الماء واحدا بعد الآخر ويصعدون الى الشاطئ .

كان الواحد منهم اذا صعد من النهر حرك لباسه فى الماء ليزيل ما عليه من رماد الفحم ، ثم يعصره وينفضه ويلبسه مبتلا .

وجلسوا على الشاطئ يلهثون ، محملقين فى الضباب الذى يغطى صفحة النهر ، دون ان ينبسوا بكلمة .

وفى ذلك الحين اقبل عليهم ليو بساقيه الغليظتين ، وقال وهو يضرب بيده على بطنه الخاوى :

ــ يا جماعة ، جاء دور أر قو فى دفع ثمن الفطور ، فلنأكل اليوم على حسابه .

ثم تحول الى أر قو قائلا :

ــ ماذا تطعمنا صباح اليوم ؟

فرد الاخير عليه فى صوت خافت ينم عما فى جوفه من قلق وخوف :

ــ اللبن الصناعى من الصويا والفطير المقلى . ماذا يمكن ان نجد فى المطعم غير ذلك فى هذا الصباح الباكر ؟

ــ أف ، الفطير المقلى ! طعمه يشبه المطاط .

ــ أو نتناول الرغيف الصينى ، فهو يسد الجوع .

– عليك اللعنة ! الرغيف جاف صلب كالنعل ، ألا تستطيع ان تتحمل نفقات فطورنا ؟

فنظر أر قو اليه نظرة من يحس بأنه مظلوم ، وقال :

– اني استوضح رأيكم لا غير .

عندها اقبل رب العمل جياو ، يتمايل في مشيته ويتحسس صدره الممتلىء . وتدخل في الحديث قائلا :

– أر قو صاحب الدعوة ؟ طيب ، اذن نأكل البيض المسلوق مع الشاى ، ولكل واحد عشرون بيضة ، هل هذا يكفيكم ؟

لم يكد أر قو يسمع ذلك حتى تقلصت عضلات وجهه من الخوف ، وقال متلعثما وقد تعلقت عيناه بصاحب العمل :

– مثل هذا . . . مثل هذا الفطور يكلفنى عشرات اليوانات ، وامى . . .

فهب ليو منتصبا وقال :

– دعوه يا جماعة ! لا تخوفوه ! هيا بنا نأكل الرغيف صباح اليوم ، ونوفر له بعض النقود .

لكن أر قو لم يتحرك ، بل اسند رأسه المشعث على ركبتيه ، وقوس ظهره ، فبرز عموده الفقرى وعظام منكبيه بروزا واضحا . ولوى ذراعه اليابسة الى الخلف ، واخذ يحك ظهره فى صوت مسموع .

رأى جياو ذلك ، فربت على منكبه النحيل يقول فى نخوة :

– هيا ، هذا الفطور على حسابى انا .

انه غنى كريم ، يملك ما يسمح له بالكرم والسخاء .

رفع أر قو بصره الى جياو فى حيرة واستغراب ، وطرف بعينيه الدامعتين ، ثم نهض عن الارض ببطء ، ومشى وراءه مطرقا . انه ليس سخيا ، ذلك ان الحرمان مخيم على البيت ، وكل ما عنده الآن ام مريضة طاعنة فى السن ، وزوجة مع ثلاثة اولاد ، او ثلاثة بطون تنتظر لقمة طعام .

سار الحمالون يتلمسون طريقهم فى الضباب .

التفت ليو الى جياو وتساءل :

ـ ايها المعلم جياو ، كيف اصبحت غنيا ؟ وكيف نمت ثروتك ؟ ألا يمكنك ان ترشدنا الى تدبير امورنا ؟

صمت جياو ، ولم يقل شيئا ، بل ضيق عينيه وهو ينظر الى الضباب الكثيف امامه فى عدم اكتراث ، ووجهه خال من اى تعبير .

فاستطرد ليو قائلا :

ـ لقد استمت فى هذا العمل المرهق منذ سنتين ، ولكن كل ما ادخرته خلالها بعد نفقات الطعام اقل من خمسمئة يوان .

خرج جياو من صمته ، وقال فى عدم اكتراث ، وعيناه ما تزالان مثبتتين على الضباب امامه :

ـ أ تريد . . . تريد ان تحذو حذوى ؟

ـ نعم ، اننى احترمك واحب ان اسمع رأيك .

لوى جياو فمه ولم يتفوه ، بل سار فى طريقه متمايلا يشق كتل الضباب امامه ، فلا تلبث ان تلتئم وراءه .

ـ اريد . . . اريد ان اشترى شاحنة ايضا .

فقال جياو فى سره : تريد ان تشترى شاحنة ، وتكسب بها مبلغا كبيرا من النقود ؟ يا لك من رجل عظيم الهمة ، ولكن متى تستطيع ان تدخر ما يكفيك لشراء الشاحنة ، وانت تكسب النقود بشحن الشاحنات ؟ ! هيهات يا ولد ! انك ما تزال غضا ، لم تركب المخاطر والاهوال بعد . وعندها نظر اليه من طرف عينه فى اشفاق ، ومط فمه يقول :

– يستحسن ان تدخر مبلغا وتتزوج اولا . هذا هو رأيى .

فضحك ليو فى خجل ، وقال :

– لا تمزح يا معلمى . اريد حقا ان اقترض عشرات الآلاف من اليوانات لشراء شاحنة ، ولكنى منذ فترة طويلة وانا اطلب من مدير التسليف ، فلم يقرضنى ولو قرشا واحدا !

ظل جياو ينظر الى الضباب امامه فى شرود ، وقال :

– انت . . . ليس بمقدورك ان تحذو حذوى .

– . . . ؟

ثم استطرد يقول ، وهو يديم النظر الى الضباب امامه :

– ينقصك الى الآن الفهم الصحيح والشجاعة اللازمة ، فلا تستطيع ان تحذو حذوى قبل ان تعرف الدنيا على حقيقتها ، وتستخف بكل شىء حتى بحياتك وروحك .

قال ذلك وقد تشنج فمه بشدة ، ثم علته ابتسامة تقطر مرارة ، وان غطاها الضباب الكثيف . لقد عرف هو هذه الدنيا على حقيقتها ، واستهان بكل شىء ، وخاطر بحياته ، ونجح فى ذلك . لكن . . . لكنه الآن يشعر بالملل والسآمة .

— ؟؟؟

اصغى ليو اليه وهو يحملق فى وجهه فى حيرة . ان كلامه غامض مثل الضباب ، الضباب الكثيف امامهم .

وساد بينهما الصمت .

...

شخصا ببصريهما الى الامام حيث الضباب .

واخيرا بلغوا محلا للاطعمة الخفيفة ، فوقف جياو امام صاحبه الاعرج وو ، وحياه بضربة على رأسه النحيل قائلا :

— يا اعرج انت اليوم محظوظ ، سأهديك بعض النقود .

وكاد الاعرج يسقط على الارض من هذه "التحية" ، لكنه بادر الى استقبال زبائنه قائلا :

— تفضلوا ، تفضلوا بالجلوس .

فدعا جياو الحمالين الى الجلوس ، وسأل الاعرج قائلا :

— يا اعرج ! انظر الى هؤلاء الجياع ! أعندك ما يكفيهم من البيض ، ام اقودهم الى محل آخر ؟

— عندى ، عندى ما يكفيكم .

قال الاعرج ذلك ، واسرع الى مسح المقاعد مخافة ان تضيع منه فرصة كسب النقود . ثم اخذ طشتا فخاريا ليحمل فيه البيض ، وقال :

— اجلسوا ، اجلسوا سأحمل اليكم البيض حالا ! المعلم جياو صاحب الدعوة ؟ اذن سأخفض سعر البيضة وابيعها بأربعة وعشرين فنا اكراما لحضرتك .

قذف جياو قميصه جانبا ، وقال :

ـ دعك من الكلام المعسول يا ولد ، سأدفع لك عن كل بيضة خمسة رعشرين فنا ، بل حتى مئتين وخمسين ! هات بسرعة .

انه لا يهمه السعر ، اذا كان الطعام يعجبه . ولم يفعل ذلك ليتظاهر بأنه صاحب المال ، فهو فعلا صاحب المال . وهذه حقيقة يعرفها جميع ابناء البلدة كبارا وصغارا .

عاد الاعرج وبين يديه طشت مملوء بالبيض المسلوق مع الشاى . وما ان وضعه على المائدة حتى تزاحمت عليه الايدى ، فأخذ هذا ثلاثة وذاك خمسة .

تناول أرقو من الطشت بيضة كبيرة ، قشرها ، ودسها فى فمه دفعة واحدة ، فغص بها ، واتسعت عيناه ، وراح يمد عنقه ليبتلع البيضة ، فبدا كديك بائس فى حلبة الصراع .

اشاح جياو بوجهه ، وقد آلمه منظر أر قو وهو يحاول ابتلاع البيضة ، وتحركت مشاعر الحنان والشفقة فى صدره ، فهذا الوجه الذابل الذى تعلوه صفرة الجوع وهذا الهيكل العظمى قد ذكراه بحاله فى الماضى .. قبل ثلاث سنوات ...

واقبل أر قو عليه وفى يده اربع بيضات ، قدمها اليه وهو يقول :

ـ تفضل ايها المعلم !

فرفع جياو ذراعه ، وابعد اليد الممدودة امامه ، وقال :

ـ لا اشعر بالرغبة فى الاكل . كل انت .

لا يريد ان يأكل ، لم يعد يشعر بالرغبة فى اكل اى شىء ؛ لقد امتلأ بطنه بما لذ وطاب ، فلا يستطيع اى طعام ان يفتح شهيته . اخرج من جيبه علبة السجائر ، واشعل لنفسه سيجارة ، ورمى بأخرى الى الاعرج ، فانحنى هذا ، وتلقفها ، وألقى نظرة الى الماركة المطبوعة عليها ، ثم وضعها بحرص خلف اذنه ، وهرع الى القدر ليضع مزيدا من البيض فى الماء الذى يغلى والذى يبدو احمر غامقا من اثر اوراق الشاى كأنه ماء ملوث بالصدأ .

انتظر جياو الى ان فرغ أر قو من اكل البيض ، ثم اخرج ورقتين من فئة عشرة يوانات ودسهما فى يده قائلا :

ــ يا اخى ، اذهب الى دكان ابى الشعر الابيض ، واطلب منه ان يأتينى بزجاجات من الزعرور البرى .

مد أر قو لسانه يلعق فتات صفار البيض عن شفتيه ، وتناول النقود ، ثم سأل :

ــ كم زجاجة تريد ؟

ــ بقدر هذه النقود .

ــ نأكل ؟

ــ نعم ، نأكل !

ــ يا سلام . . .

تحسس أر قو الورق النقدى بأصابعه الهزيلة ، وتمتم فى عجب ، ثم ذهب . وبعد لحظات عاد وبين يديه صندوق ورقى ، وضعه على احد المقاعد فى حرص شديد ، وقال لجياو :

ــ ابو الشعر الابيض يتشاجر مع امرأته الآن ، فتركنى

آخذ البضاعة بنفسي : هذه اثنتا عشرة زجاجة ، وهذا اليوان هو الباقي .

— دع الباقي لك . اذهب وهات وعاء .

اخرج جياو من الصندوق زجاجتين واخذ بكل يد واحدة ، ثم ضربهما ببعضهما بعضا فوق الوعاء ، فكسرت الزجاجتان ، وسال ما فيهما الى الوعاء . فرمى الزجاجتين ، والتقط باصبعين زعرورة ، وضعها فى فمه يلوكها . ثم تناول الوعاء ، وشرب من العصير جرعة ، وقدمه لأر قو يقول :

— خذ اشرب .

رأى رئيس الحمالين ليو ذلك ، فهرول اليهما ، ومد يده الى داخل الصندوق ليأخذ زجاجة ، فصاح به جياو فى حدة :

— لا تمسه !

سحب ليو يده فى ضيق ، وقال :

— ألم تشتر لنأكل جميعا ؟

— اشتر انت بنفسك ، اذا اردت ان تأكل .

اكل الحمالون الثمانية مائة واربعين بيضة ، فأخرج جياو اربع اوراق نقدية من فئة عشرة يوانات ، ورمى بها الى الاعرج وهو يقول :

— هات لى عشرين بيضة اخرى ، ضعها فى الصندوق ، ودع الباقى لك .

تناول الاعرج النقود وقد التمعت عيناه ، وقال فى نفسه : صفقة رابحة ! ثم اسرع ينجز ما طلبه جياو .

مر جياو بيده الكبيرة على شعره القصير ، ثم التفت الى ليو يسأله قائلا :

— يا اخى ماذا ستفعلون ؟

فقال ليو وهو يمرر كفه على فمه ويتجشأ :

— سنذهب الى وانغجياياو لشحن الشاحنات ، فماذا نستطيع ان نفعل غير ذلك ونحن حمالون بسطاء .

نقل جياو بصره فى الحمالين وهم بالحديث ، لكنه لم يقل شيئا . لقد اثار كلام ليو فى نفسه ذكريات قديمة يوم كان واحدا من هؤلاء الحمالين . كان يعمل بالمجرفة مثلهم ، ويحمل الفحم مثلهم ، ويكسب مثلهم ما لا يزيد عن خمسة او ستة يوانات كل يوم . اما الآن فهو يربح كل يوم بشاحناته الثلاث ما لا يقل عن الف يوان بمجرد ان يلوح بيده او يحرك فمه .

ثم نهض من مقعده ببطء ، ونادى أر قو ، وقال له وهو يركل المقعد الذى وضع فوقه الصندوق المملوء بالزجاجات والبيض .

— تعال يا أر قو ، خذ الصندوق الى بيتك .

— ايها المعلم ، وهذا . . .

— افعل ما قلت لك !



اخذ الضباب يتدافع ويرتفع الى السماء يطوى ستاره عن

الارض ، فظهرت سفوح الجبال هادئة معتمة وقورة مثل حائط حديدى ، كما ظهرت القرية القابعة فى احضانها . استمر الضباب فى الارتفاع حتى اذا ما وصل الى منتصف السماء ، اخذ يتشقق ويتصدع وينقلب الى قطع من السحاب الداكن . وكانت الشمس تطل على الارض بوجهها اللامع من بين شقوق السحاب ، فتترك فيها شرائط ضوء لامع تبهر العيون هنا وظلالا خضراء قاتمة هناك . اما الضباب المنتشر فى الوادى او وسط الجبال فراح يسبح فى الفضاء تائها متحيرا لينقشع ويتلاشى بعد حين .

جلس جياو ابو الشاحنات على جذع شجرة عند مدخل القرية يردد نظره بهدوء بين هذا الضباب وذلك السحاب . ان الضباب اذا ارتفع ، انقلب الى سحاب ، واذا لم يستطع ذلك تطاير متوحدا حتى يتلاشى ويختفى عن الوجود .

انه ينتظر رجلا .

اقبل عليه رجل بدين ضخم الجثة ، على رأسه الكبير قبعة قش قديمة ، ويرتدى قميصا ابيض مفتوحا من الامام ، ينحسر عن صدرة ممزقة ذهب العرق بلونها الاصلى ، وقد طبع على يسارها بضع كلمات : " طليعى من بنوك الزراعة " . وتحتها كلمة اخرى اكبر قليلا : " جائزة " . ويلبس تحت القميص بنطالا فضفاضا موسخا من الالبسة العسكرية وصندلا بلاستيكيا ، تآكل كعبه وانقطع شريطه . هذا هو الرجل الذى ينتظره جياو ، ويدعى وانغ بينغ تشنغ ، مدير مكتب التسليف التابع لبنك الزراعة فى البلدة .

رفع جياو بصره الى وجه الرجل . انه وجه سمين ترتسم عليه ابتسامة لطيفة دائمة ، عيناه منتفختان ضيقتان ، تنبعث منهما نظرة باهتة ، فيخيل للناظر اليه انه فلاح مسن لطيف ومسالم .

تبادل الرجلان نظرة دون ان يسلم ايهما على الآخر .

وهب ابو الشاحنات واقفا ، ومشى نحو الرجل ، وقال دون ان يرفع بصره اليه :

ـ غدا ستصل شاحناتى بثلاثين طنا من الحديد الى المنجم الحكومى ، اعطنى المبلغ فورا .

فأجابه الرجل بالايجاب دون ان يلتفت اليه ، ولكنه ما لبث ان قال فى شىء من الحرج :

ـ ألا يمكن ان تنتظر اياما ؟ فليس فى المكتب الآن نقود ، كما ان البنك متشدد معنا فى الفترة الاخيرة .

ـ لا ، انا بحاجة الى هذا المبلغ .

نظر اليه الرجل من طرف عينه وقال :

ـ هذه مشكلة صعبة .

فقال جياو ونظره لا يزال ممتدا الى الامام :

ـ هذا شأنك ، وهو لا يعنينى . كل ما يهمنى هو ان تعطينى المبلغ فى حدود ثلاثة ايام .

ـ هذا . . . حسنا .

ثم انصرف الرجل منعطفا الى اليمين حيث يقع مكتب التسليف . الا ان جياو صاح به بغتة ، فتوقف دون ان يلتفت اليه ، فقال جياو :

ـ هل تحدث معك رئيس الحمالين ليو عن الاقتراض ؟
ـ نعم .
ـ انه تحدث معى عن هذا الامر ايضا . فأقرضه المبلغ انت !
ـ هذا مستحيل ! ليس لدينا اعتمادات على الاطلاق !
ـ اذن دبر الامر انت . لقد وافقت انا على طلبه .
ـ هل تتعمد ان تضايقنى ؟
ـ من يضايق الآخر ؟ قل لى بصراحة ، كم من العمولة تريد ان تأخذ منه ؟ انا اعطيك !

ثم اخرج سيجارة وراح يدقها على ظفر ابهام يده ، ومد بصره الى الجبال البعيدة .

فقال الرجل بصوت باك :

ـ لا انا ولا احد يضايقه ، اسأله ان لم تصدقنى . حقا ليس لدينا اعتمادات !

وضع جياو السيجارة بين شفتيه فى حدة ، وقال :

ـ اذن يذهب اليك فى هذه الايام لاكمال الاجراءات .
ـ لا ، لا ، اجل الامر الى حين ، الى ما بعد شهر واحد .
ـ حسنا ، شهر واحد !

ثم اشعل السيجارة وانصرف دون ان ينظر اليه . فنظر الرجل الى ظهره ، وفتح فمه يهم بأن يصرخ ، ولكن تلاشى صوته على شفتيه ، فدلك وجنته فى استسلام ، واطرق رأسه واتجه الى باب المكتب .

سار ابو الشاحنات فى طريقه يلوى شفتيه بشدة ، واخذ من السيجارة نفسا عميقا ، ثم نفث من انفه دخانا كثيفا وهو يشتم فى سره : الويل لك ايها الخبيث ! هل تريد ان تخدعنى وتضحك على ؟ جرب اذن ! ألا تعرف اى صنف من الرجال انا ؟ . . .

. . .

لقد حدث فيما مضى مد بحرى كبير ، اكتسح الحوض الذى شيده جياو حديثا لتربية الجمبرى ، وهذا يعنى ان المد ذهب بعشرة آلاف يوان ، ذلك المبلغ الذى حصل عليه من مدير التسليف فى ناحيته بشرط دفع عشرة فى المائة من المبلغ عمولة . فعاد الى مدير التسليف يطلب منه ان يقرضه عشرة آلاف يوان اخرى ليعيد بناء الحوض . فقال المدير وهو يرفع امامه ثلاث اصابع :

— هل تريد ان تقترض مرة اخرى ؟ هذه المرة لا يمكن ان يكون القرض رخيصا مثل المرة السابقة .

— العمولة ستكون ثلاثين فى المائة ؟ !

قال ذلك واتسعت عيناه دهشة . لقد ابتلع المد عشرة آلاف يوان ، وابتلع مدير التسليف ألفا . ولم يكتف بذلك ، بل يريد هذه المرة ان يبتز مبلغا اكبر ! الويل له ! لقد مات ضمير هذا الكلب ! وثارت ثائرته ، وصاح فى وجه المدير غاضبا :

— اذن ، لا اريد الاقتراض . عليك ان ترد الى الالف يوان .

— ارد اليك الف يوان ؟ وبأى حق تطلب منى الف يوان ؟

— العمولة ! العمولة التى اخذتها منى !

ـ اى عمولة ؟ من اخذ منك عمولة ؟

ـ انت . أتنكر ما اخذته منى عمولة ؟ ! سأرفع عليك دعوى ايها الكلب !

ـ لك ما تشاء ، وانا فى الانتظار ! ولكن لا تنس ان تجهز الادلة : فى اى وقت وفى اى مكان اخذت منك العمولة ؟ وبأى اجراءات ؟ ومن الشاهد ؟ وان لم تستطع ان توفر لاتهامك كل هذه الادلة فلا تلومنى اذا دافعت عن نفسى واتهمتك بأنك تلفق على تهمة كاذبة !

جمد جياو فى مكانه ذاهلا ، انه يعرف الوقت والمكان ، ولكن لم تكن هناك اية اجراءات فضلا عن الشاهد !

فاستطرد الرجل يقول بشماتة وخبث :

ـ يا مسكين ! ما رأيك فى ان ابحث لك عن عمل حمال حتى تستطيع ان تكسب اربعة او خمسة يوانات فى اليوم وتسدد بها ما عليك من الديون ؟

ـ انت . . .

انفجر جياو غاضبا ، فحدج مدير التسليف بنظرة نارية ، والرعشة تسرى فى اوصاله ، وشفتاه تحتقنان وترتجفان بشدة . ولم يستطع ان يكبح النار المتأججة بين ضلوعه ، فطار صوابه ، وشد قبضته ، وانهال بها على رأس الرجل .

اكفهرت السماء عند الغسق فخيم ضباب كثيف على صفحة البحر القاتم . كان جياو جالسا القرفصاء على اطلال حوضه واضعا رأسه بين يديه ، وهو يزعق ويشتم ويولول . ثم سكت فجأة ،

ولم يلبث ان دق رأسه بقبضتيه كالمجنون ، واخذ يشتم نفسه : هل انت رجل ؟ ! اين رجولتك . لماذا تطلب من الرجل ان يرد اليك النقود التى اعطيته اياها ؟ اذا كنت رجلا ذا قدرة ، فاكسب ما خسرت ، اكسب الف يوان وعشرة آلاف بل مائة الف .

وظل جياو عند الحوض الى ما بعد منتصف الليل ، ثم عاد يجرجر هيكله العظمى الى بيته القمئ القابع على شاطئ البحر .

بيت سقفه من القصب وجدرانه الاربعة من الطين . كان الاولاد نائمين ، فألقى جياو نظرة عليهم ودس بصمت فى يد زوجته ثلاثمائة يوان ، هى كل ما يملكه الآن . فكفكفت دموعها وتناولت النقود ، ثم اخذت نصفها ودسته فى يده ، وقالت وقد انهمرت الدموع من عينيها .

— لا تنس ان تكتب الينا !

— نعم !

وتجلد فحبس الدموع ، ثم قال لزوجته وقد تشنج وجهه الذى بدت كل عضلة فيه تنطق بما يقاسى من آلام وحقد :

— قولى للمن يسأل عنى اننى ذهبت الى الغابة لنقل الخشب او الى المنجم لحمل الفحم ، ودعيهم يطمئنوا . سأسددهم كل ما على من فائدة مضاعفة بعد سنتين .

وهكذا غادر جياو بيته وقدم الى بلدة شياماليتسى فى الجبال الشمالية حيث مناجم الفحم الحديثة .

تغير جياو تماما فأصبح يستميت فى حمل الفحم . واذا كان غيره يحمل طنا من الفحم كل يوم ، كان هو يحمل طنين .



وكان الآخرون يرسلون الى بيوتهم النقود ، اما هو فبدا كأنه نسي البيت ونسي الاهل ونسي مسؤوليته تجاه اسرته . وصار ينفق النقود بلا حساب ، في المقاهي وفي الحانات ، عليه وعلى من حوله فما لبث ان جمع حوله اصدقاء كثيرين ، واتسعت شهرته بالكرم والشهامة ، واستقرت مكانته في هذه البلدة الغريبة .

واصبح يكثر التردد الى حيث يجتمع ارباب المناجم واصحاب الشاحنات او اصحاب المطاعم والحانات ، فيجلس القرفصاء الى جانبهم ، مضيقا عينيه الحمراوين ، مصغيا الى ما يدور بينهم من حديث عن اعمالهم وعن الاسعار والمكاسب ، والى تذمرهم . واخذ يهتم بعراك السكارى ، فينصت الى شتائمهم . ويذهب ايضا الى ادارة التجارة والصناعة في حكومة البلدة او فرع بنك الزراعة، فيجلس على الكرسي عند المدخل ، يدخن السيجارة صامتا ، بينما يرهف السمع الى كل ما يدور فيهما من حديث ، ويرى كل ما يجري من نشاطات .

الى ان كان يوم ...

فرمى سلة الفحم ، واخذ معه كيلوغراما من خيار البحر ، ودلف الى بيت وانغ بينغ تشنغ مدير التسليف في البلدة ، يطلب منه ان يقرضه اربعين الف يوان ، فهو يريد شراء شاحنة ، يريد نقل الفحم الى خارج المنطقة ، يريد كسب ارباح باهظة .

فقال لوانغ بلا لف ولا دوران :

ــ لقد راقبت وقلبت الامر على كل الوجوه ، فوجدت ان فتح مطعم او منجم لا يربح كثيرا كما يربح نقل الفحم .

فأجابه الاخير يقول :

ـ صدقت يا اخى ، ولم تخدعك عيناك ، ولكن من الاسف ان ليس لدى مكتب التسليف مبالغ كافية للاقراض ، وعلى كل حال سنناقش طلبك ونحاول .

ثم اعاد خيار البحر الى جياو ، وقال بلهجة صادقة مؤثرة :

ـ خذ الخيار معك يا اخى ، ولا تعاملنى بهذه الطريقة ، ولا تعرض اسمى للعار . اننى لا آخذ اموال الناس عندما يطلبون منى القروض .

لم يتأثر جياو بكلامه بتاتا ، بل ضحك ضحكة عصبية غريبة ، ثم كف عن الضحك بغتة وقال بنفس الجد والصدق :

ـ ايها المدير وانغ لا تعاملنى انت ايضا بهذه الطريقة ! لقد تفتحت عيناى على خبث الدنيا ، وفطنت الى ما فيها من الاسرار ، فكل مكان سواء . قل لى بصراحة ، ماذا تريد ؟

لقد فهم الدنيا على حقيقتها فكل مكان . . البحر الاصفر او الجبال الشمالية . . سواء ، ومن لا يفهم هذه الحقيقة فلا امل له فى جمع الثروة !

ذهل المدير ، وسأله قائلا :

ـ ماذا تقصد بكلامك ؟

ـ لم اقصد شيئا ، كل ما اريده هو ان تقرضنى مبلغا من المال .

ثم ربت على كتف المدير كأنه صديق قديم له ، واجلسه على المقعد ، ثم جلس بجانبه ، وواصل الحديث :

ـ لا حاجة الى ان تتظاهر امامى بالتمنع يا اخى . كن مطمئنا ، فأنا رجل صريح صادق ، ولن ابيع الصديق . فكر جيدا ستساعدنى ام لا ؟ اذا ساعدتنى ، فلن اتركك تخرج من الصفقة صفر اليدين . قل ، ماذا تريد ؟ عمولة ام اسهاما فى المشروع دون ان تدفع شيئا ؟

نهض المدير من مقعده ، ثم عاد وجلس ثانية ، ونظر الى جياو فى لطف ، وقال وهو يضحك :

ـ لم اكن اتصور انك تعرف هذه الاساليب كل هذه المعرفة .

ـ لم تتصور ؟ لقد علمنى الآخرون امثالك هذا الدهاء ، واين انا منك ايها المدير !

ـ ...

جمدت الابتسامة اللطيفة على وجه المدير وانغ ، وانبعثت من عينيه الضيقتين نظرة حادة مخيفة .

والتقت عيونهما ، وراح كل من الرجلين يرمق صاحبه بنظرة فاحصة نفاذة . ثم لان نظر جياو ، وقال وهو يضحك ضحكة مجلجلة :

ـ ارى ان الاسهام لا يناسبك لأننى اذا خسرت ، فلن تستطيع ان تربح شيئا . يستحسن ان تأخذ عمولة وهذا اضمن .

ظل المدير يحدد النظر اليه ، وعضلات خديه متشنجة ، واصابع يده تنضم ببطء حتى صارت قبضة ، ثم قال فى اقتضاب وهو يحدج جياو بنظرة ثاقبة :

— اتفقنا . العمولة عشرون فى المائة . تعطينى النقود ، واعطيك الشيك ، ولا نخلف وراءنا اى اثر !

اهوى جياو بقبضته على المائدة ، ووقف منتصبا ، ثم مال على المدير وقال :

— اتفقنا ، تقرضنى ثمانية واربعين الفا ، واعطيك ثمانية آلاف ، ما رأيك فى ذلك ؟

فقال المدير وهو ينهض من المقعد .

— حسنا ! متى ؟

— غدا . فى الساعة الثانية عشرة ليلا .

— اين ؟ هنا ؟

— كلا ! هنا يأتى الناس دائما .

— اين اذن ؟

— فى غرفتى حيث المكان هادئ ، فلا احد يذهب اليها وخاصة فى منتصف الليل . ولن يزعجنا احد ، لا انس ولا جان .

كان جياو فى ذلك الحين يسكن فى دكان لاصلاح الاجهزة اللاسلكية . وكان صاحب الدكان قد جنى اموالا طائلة ، فتزوج من عهد غير بعيد بعد ان عاش اربعين سنة حياة عزوبية . لذلك اصبح يترك الدكان لجياو ، ويعود الى عشه ليقضى الليل مع عروسه .

ارخى الليل ستائره السود ، وشمل الهدوء البلدة التى تظل طوال النهار والمساء زاخرة بالحركة والضجيج والعجيج . فأغلق جياو الشبابيك ، وغطاها من الداخل باللحاف حتى لا ينساب

الضوء الى الخارج . وبعد ذلك رتب التلفزيونات وآلات التسجيل والميكروفونات ، التى تم اصلاحها والتى تنتظر الاصلاح ، وضغط زر آلة تسجيل مع زر مروحة بعد ان وصلهما بالكهرباء .

وصل مدير التسليف فى الموعد المحدد ، فدفع الباب الموارب فى حذر ، ودلف الى الغرفة بسرعة ، ثم اغلق الباب وراءه باحكام . انه يفكر فى جمع الثروة ايضا ، ولا يطيق ان يرى الاموال تسيل من بين يديه مثل المياه الى جيوب الآخرين ثم تنمو وتتضخم ، وهو لا يحصل على اى فائدة ، ولكنه لا يتجرأ على الاختلاس . ولما لم يجد طريقة اخرى فى كسب الاموال فقد بدأ يبتز . انه يعرف ان هذا يخالف القانون ايضا ، ولكن ما حيلته . انه لا يستطيع العيش هو واسرته على راتبه الضئيل .

القى نظرة متفحصة الى اركان الغرفة ، وقد اكتنفه الاضطراب ، فقال :

ــ اغلق المروحة ، انها تحدث صوتا مسموعا !

فأجابه جياو وهو يمد يده تحت المخدة ، يخرج لفة ورق :

ــ اطمئن ، لا احد يسمع ولو صرخنا فى الغرفة !

ثم فتح اللفة ، ووضعها امام المدير وقال :

ــ ثمانية آلاف يوان راجعها ! لقد استعرتها اليوم بالذات .

واخرج المدير بدوره غلافا من جيبه ، ووضعه بيده المرتجفة امام جياو ، وقال بصوت متهدج :

ــ تمت جميع الاجراءات . هذان شيكان ، واحد بأربعين الف يوان ، والآخر بثمانية آلاف . انظر !

— لقد تمت صفقتنا دون اى شاهد ؟

— دون اى شاهد !

وتحت ضوء المصباح الخافت ، ومن فوق النضد ، تبادلت اليدان ، اليد القصيرة الغليظة الغامقة اللون ، واليد السمينة المرتجفة ، موضعيهما .

تمت الصفقة دون ان يعلم بها انس ولا جان .

وفور حصول جياو على المبلغ اشترى شاحنة جديدة .

وذات صباح جلس جياو فى هدوء على جذع الشجرة الذى يجلس عليه اليوم ، يجيل بصره الى الضباب والسحب الى ان رأى المدير وانغ مقبلا عليه ، فنهض من جلسته فى صمت ، ومشى بجانبه واعطاه لفة من الورق .

فتساءل الاخير فى حيرة وهو يتناول اللفة :

— ما هذه ؟

فقال جياو وهو يرسل بصره الى الجبال البعيدة :

— شريط سجلت فيه اغانى اباحية .

— انت . . .

— عد به الى البيت ، واستمع اليه ، ولا تفشى سرنا لأحد !

ثم انصرف لا يلوى على شىء .

تردد المدير لحظة ، ثم استدار على عقبيه ، وهرول الى البيت . وهناك وضع الشريط فى آلة التسجيل وخفض صوتها ، ثم ادار فى حذر مفتاح الآلة ، فانبعث منها صوت .

— آه !

ندت من فمه صرخة ذعر ، واستولى عليه الرعب .

وبهذه الطريقة سيطر جياو على المدير سيطرة تامة .

ثم طلب منه جياو ان يقرضه ثمانين الف يوان اخرى لشراء شاحنتين ، ففعل كما طلب . ثم طلب منه ثانية ان . . . ففعل وفعل وفعل كل ما طلبه منه .

وهكذا اصبح مدير التسليف مذعورا ، ولم يعد يتذوق طعم الراحة فى الليل او النهار . لقد ندم على ما فعل ، وفضل ان يرد الى جياو آلافه الثمانية ليتخلى له عن الشريط المسجل . لكن جياو قال له وهو يطلق ضحكات خبيثة مخيفة :

— تريد ان ترد لى العمولة ؟ حسنا ، لو اعدت لى ثمانية آلاف او حتى ثمانين الفا ، فسأقبلها ! اما الشريط فلا يمكن ان اعطيك اياه . كن مطمئنا ! اننى عند كلمتى التى قلتها لك : لن ابيع الصديق اذا كان مخلصا وامينا !

وهذه مغامرة جياو الاولى .

وهذا نجاحه الاول .

ثم بدأ مغامرته الثانية والثالثة .. الخ ، وسيطر بطرق مماثلة على رئيس ادارة التجارة والصناعة ومدير الضرائب ومراقب المواصلات و . . . حتى اصبح طاغية الطغاة ، وملك الشاحنات المشهور يحترمه جميع الناس ويخافون منه !

هل هو عديم الاخلاق والضمير ؟ نعم ، انه يعترف بذلك . ولكن ما فائدة الاخلاق وما فائدة الضمير ؟ انه الآن لا يفكر الا فى نفسه . فالذين استطاعوا ان يستقروا فى البلدة ويجمعوا

الثروة بفتح منجم وبالشاحنات او بطرق اخرى قلما تجد بينهم من يفكر فى الاخلاق والضمير . ان الذين يضعون الاخلاق والضمير نصب اعينهم ، سيكون مصيرهم العمل بالمجارف وحمل الفحم للآخرين . وقد فهم جياو هذه الحقيقة ، واراد ان يعيش دون ان يلوح بالمجرفة او يحمل الفحم للآخرين . اراد ان يستقر فى البلدة ، ويثبت اقدامه فيها ، ويكسب ارباحا باهظة ، بل اراد ان يسيطر على كل شيء فى البلدة ، ويجعل كل امر فيها رهن اشارته ! والآن حقق امنيته هذه ، واصبح رجلا من النوع الذى ظل يتمناه . انه حاول ان ينقلب الى هذا النوع من الرجال منذ اول يوم وصل فيه الى البلدة . وها هو ذا قد انقلب الى ذلك الرجل فعلا !

كانت طرق البلدة مزدحمة بالناس والسيارات ، وتعج بالصخب والضجيج . سار جياو فى طريقه يهز قامته الطويلة يحيى هذا او ذاك بهزة من رأسه وهو يقول فى سره : الويل لك يا وانغ ، هل تريد ان تضايقنى بما تملك من سلطة ؟ سأدعك تعيش قلق النفس مدى الحياة ، لا تنعم بالراحة طوال بقائي فى هذه الدنيا !

قبل قليل حاول اجباره على تقديم قرض لرئيس الحمالين ليو لما يكنه له من عطف . ولكن هناك سبب اهم ، وهو ان يتسلى بمضايقة هذا المدير ، وينفس عنه كربه الذى طالما يجثم على صدره ويضغط اعصابه .

وها هو ذا يتجه الآن نحو ذلك البيت خارج القرية . فهناك امرأة تنتظره لتتناول الفطور معه . انها تنتظره كل يوم حتى الساعة

الثامنة او التاسعة . يا لها من امرأة !

وقبل ان يدخل الى البيت ، جاءه صوت من الوراء يقول :

— ها قد وجدتك اخيرا !

ثم شعر بيد تجذبه من منكبه ، فعطف رأسه ، والفى صاحب المنجم المدعو لى يقول له وهو يلهث :

— يا اخى جاءنى ضيف كبير لصفقة مربحة ، تعال معى لتحضر المأدبة التى اقيمها على شرفه .

ان من عادة الناس فى البلدة ، سواء أكانوا من ارباب المناجم او اصحاب الشاحنات والحانات ، ان يدعوا جياو الى مآدبهم المعدة للصفقات الكبيرة . ذلك ان غنى جياو وشهرته يرفع مكانتهم ، ويبيض وجوههم . ثم ان وجوده يسهل عليهم اتمام الاجراءات والمعاملات الرسمية .

٤

ثلاث غرف مفتوحة على الجنوب مسقوفة بالقرميد مع غرفتين جانبيتين قابعتين فى الفناء . وبداخل الفناء وخارجه على منحدر الجبل ، تصطف اشجار الزعرور البرى التى ما تزال ثمارها صغيرة فجة ، تلسع بالمرارة لسان من يتذوقها . ان ثمن الزعرور مرتفع ، كل كيلوغرام بيوانين اثنين . وقد زرع جياو لها هذه الاشجار ليضمن لها حياة رغدة طيلة عمرها ، فلا تخشى الفقر والحرمان .

انها ارملة او على الاصح امرأة تعاشر الرجال بغير زواج : تسكن فى الغرف الثلاث ، وتؤجر الغرفتين الجانبيتين لجياو مقابل عشرين يوانا شهريا ، ولكنه يعطيها خمسين يوانا ، ويوفر لها الطعام والكساء . اما هى فتطبخ له وتغسل ، وتمنحه كل ما تملكه المرأة . انها عشيقته .

كانت الشمس قد مالت للمغيب حين دخل جياو الى الفناء مترنحا زائغ البصر . ولما وقعت عينا الارملة عليه ، هرولت الى الباب لاستقباله ، وقالت وهى تمد يديها لتسنده :

– لماذا تفرط فى الشراب ، ولا ترحم نفسك ؟

فقال جياو ، وهو يدفع يديها عنه :

– اذهبى وافتحى ... الباب !

فخفت الى غرفته وفتحت قفل الباب ، ثم عادت واسندته ، وادخلته الى الغرفة . فتهالك بجسمه الثقيل على الفراش ، ثم اسرعت ووضعت السكر والخل فى كوب من الماء المغلى ، واخذت تسكب الشراب من كوب الى آخر ، وتنفخ فيه بلا انقطاع حتى اذا ما فتر الشراب ، رفعت بساعدها رأسه ليشربه ويخفف عنه اثر الخمر ، فشرب مستسلما . وتناولت فوطة مبللة بالماء البارد ومسحت بها جبينه وصدره . ثم اخذت المروحة ، وشرعت تروح له وهى شبه راقدة بجانبه .

ما اشد عنايتها بهذا الرجل ! تمدد جياو على الفراش تاركا الارملة تدلك جسده حتى سرى الاسترخاء فى اوصاله ، فأغمض عينيه ، ولكن لم يمس النوم جفنيه . وهم بالجلوس ، ولكن خانته

قواه ، ففتح عينيه فى تثاقل ، ورفع يده فى تكاسل الى منكبها المستدير ثم انتقلت الى صدرها . انها امرأة هيفاء ممشوقة القوام ، تتثنى كغصن رطيب داعبه النسيم . ولكنها لا تستطيع ان تشتغل فى الحقول ، وتبكى دائما لأتفه الاسباب ، فيرق لها قلبه ، لا يطيق ان يصرخ فى وجهها . اما زوجته فداكنة البشرة قوية الجسد فى غير تنسيق ولا تفصيل ، ليس عندها من الانوثة ما تتمتع به هذه الارملة . ولكنها صامدة وقادرة ، فيمكن ان يترك اعباء الاسرة لها مطمئنا . انه متزوج ، وحتى لو كان غير متزوج ، لا يستطيع ان يختار مثل هذه المرأة زوجة له ، فعلى زوجته — هو وامثاله الذين يعيشون على عرق جبينهم — ان تكون يده اليمنى ، تساعده فى تدبير شؤون البيت ، وتتحمل غضبه . وقد سبق لجياو ان صارح الارملة بهذا الكلام ، انه لا يخفى عنها شيئا ، ولا يخاف من غضبها . كما حاول اقناعها باختيار رجل مناسب ، تتزوجه ، وتعيش معه حياة طبيعية . وقد ساعدها فعلا فى الاختيار .

لم تغضب الارملة من كلام جياو بل ازدادت حبا له . انها تحب شهامته ، وتحب صراحته ، فالرجل فى نظرها يجب ان يكون هكذا قوى العزيمة كريم اليد . اذا اشتغل ، بذل كل ما اوتى من قوة . واذا التمس المتعة ، اطلق لعواطفه العنان . ولكن الرجال من امثال جياو قليلون . وما اكثر الرجال المنافقين الذين يشتهون جسدها ، بينما يرتجفون خوفا من الفضيحة . لقد كانت عشيقة لبضعة رجال ، ولكن جياو هو اول من وقعت فى حبه .

كانت حفيدة لأحد الطغاة فى القرية ، فهى لذلك من العناصر " السوداء " . فلم يكن احد يجرؤ على الاقتراب منها ولا على مساعدتها . وذات ليلة لم تطق الجوع الذى تقاسيه ، فتسللت الى الحقول ، وقطفت كوزا من الذرة الطرية واكلته ، فقبض عليها جندى من الميليشيا كان يحرس المحاصيل فى الليل ، واغتصبها وهى فى الخامسة عشرة من عمرها . ومنذ تلك الليلة لم تعد تعرف الشرف . فالانسان لا يفكر فى العفة والشرف وهو يموت جوعا ، وهذا ينطبق على الرجال والنساء على حد سواء . ومضت ايام عبث بها فيها الرجال المحترمون او غير المحترمين . ثم تعلمت ، بل اجادت كيف تعبث بالرجال ، وتجعلهم درعا لها لكى تعيش ويشبع بطنها . وقد نجحت فى ذلك ، فعاشت وحصلت على هذه الدار ، وهى الاجر الذى دفعه لها الرجال " المحترمون " الذين كانوا يسيطرون على البلدة . اما الآن ، وقد ذهب اولئك المحترمون وغير المحترمين بسبب العوامل السياسية لا بسبب سوء سلوكهم ، فاستقرت بعد ان قاست ما قاست ، وعاشت فى هدوء ودار بخلدها ان تختار رجلا طيبا ، تتزوجه وتعيش معه حياة طبيعية مثل جميع النساء ، ولربما ترزق بولد . ولكن جياو اقتحم فجأة حياتها ، فأحبته بكل جوارحها ، وهامت به حبا . تعلم انها ستتزوج عاجلا او آجلا من رجل آخر . ولكنها ليست متعجلة فى الزواج الآن . انها تفضل ان تعاشر جياو مدة اطول ، وتبقى معه الى اليوم الذى يكرهها فيه او يفارقها . انها لا تريد ان تفارقه قبل ان يتركها ! يا للحب الذى تكنه له هذه المرأة ! انه حب

لا تكبحه قواعد السلوك او العقل ، حب لا يمكن تفسيره !

وراحت الارملة تذرف الدموع . ولاحظ جياو دموعها . فانفعل ، وحز فى نفسه ما تعانيه ، فجلس معتمدا على ذراعه ، وطلب منها ان تعد له كوبا آخر من الشراب .

كفكفت الارملة دموعها ، ونهضت ، ثم عادت وفى يدها الكوب ، قدمته لجياو ثم جلست بجانبه .

وفجأة بدا عليها انها تذكرت شيئا ، فتملصت من حضنه وقالت :

— اوه ، كدت انسى ان اخبرك : لقد جاءنى صباح اليوم شخص من البحر الجنوبى ، يريد ان يتحدث معك .

— من هو ؟

— لم اسأله . قال لى انه سيزور زميلا قديما له فى البلدة ، ثم يعود اليك بعد الظهر .

— اوه . . . ألم يذكر لك شيئا آخر ؟

— ابدا !

. . .

زفر جياو زفرة طويلة ، ثم بدا عليه الوجوم فى جلسته ومال كوب الشراب فى يده .

انقبضت الارملة ، ونظرت الى جياو فى قلق : لقد احست بأن شيئا غير سار سيحدث . . . عند ذلك سمعا صوت الباب يفتح وصوت رجل يسأل :

— هل عاد جياو ؟

٥

نظر جياو الى الزائر فى ذهول ، وخيل اليه ان وجه الرجل مألوف لديه . اما الزائر فشخص ببصره فى دهشة وارتياب الى الارملة ، وهى تخرج من الغرفة مضطربة مطرقة الرأس ، ثم التفت الى جياو وقال :

ــ هل حضرتك جياو ؟ اسمى قوان جى شنغ .

عندها تذكر جياو ان الزائر هو عضو لجنة فحص الانضباط فى مسقط رأسه . ولكن ما الذى دعاه الى هذه الزيارة المفاجئة ؟ فكر جياو فى ذلك وهو يقول :

ــ تفضل ، تفضل بالجلوس .

جلس الزائر وتناول المروحة ، وجعل يروح بها فى قوة ، بينما ادار عينيه متفحصا اركان الغرفة . فوضع جياو امامه علبة السجاير ، وفتح اناء السكر ، وراح يصب الماء فى الكوب بيد مرتعشة ، وذهنه يعمل بسرعة : ان لم يكن لديه امر هام ، فما الذى يجعله يتعب نفسه فى قطع هذه المسافة لزيارتى ؟ هل اكتشفوا جريمة ارتكبتها ؟ ولكن اية جريمة ؟ الرشوة ؟ نعم لقد رشوت عددا كبيرا من الكوادر كبارا وصغارا فى المحافظة او فى الناحية او فى القرية . الابتزاز ؟ نعم اننى ابتززت من ابتزوا اموالى من قبل ، وابتززت من ضايقنى او اعاقنى عن جمع الثروة . اتخاذ عشيقات ؟ نعم ، ولكن لم اتخذ الا عشيقة واحدة هى

الارملة ، وبرضى الجانبين .

— يا جياو ! لقد عملت عملا لا بأس به فى هذه السنوات ، واصبحت اغنى الناس فى المنطقة .

— بين بين ، فقط احسن حالا من امثالك الذين يعيشون على الراتب .

ثم قدم كوب الماء الى قوان ، وجلس الى الطاولة ، واخرج ببطء سيجارة ، واشعلها بيده المرتعشة ، وهو يقول فى نفسه : هذه هى كل ما ارتكبت من الجرائم ، ولكنها تكفى لأن يحكم على بالسجن ثلاث او خمس سنوات اذا لم يرحمنى حظى هذه المرة . حسنا ، فليكن ما يكون . ولكن لماذا لا يفحصون افعال المدير وانغ وغيره ، ويحققون معهم ويسجنونهم ؟ ! والآن ، لا خوف ولا شيء يستطيع ان ينقذنى ، فمن المفروض ان اواجه الواقع . ثم فتح الموضوع مباشرة ، فقال :

— اى امر مستعجل دفعك الى زيارتى يا قوان ؟

فاعتدل قوان فى جلسته ، وقال :

— لقد جئتك لأتحدث معك فى امر .

فرفع جياو رأسه ، وركز عينيه على قوان ، وسأله :

— ما هذا الامر ؟

— اولا ، دعنى اشكرك على . . .

— تشكرنى ؟

— نعم ، لقد تبرعت لمدرستنا بعشرة آلاف يوان مرة واحدة و . . .

خف توتر جياو ، وشعر بالراحة ، ثم اطرق رأسه فى اضطراب ، ونفخ دخان السيجارة بعنف . لقد تلقى رسالة من ابنه الكبير ذات يوم ، يقول فيها ان حجرات الدرس بالمدرسة الثانوية فى بلده قد انهار بعضها بعد مطر غزير ، وكاد يدفن تحت الانقاض . وما ان قرأ جياو الرسالة حتى أرسل الى المدرسة عشرة آلاف يوان لاصلاح الحجرات .

ولكن سرعان ما عاد جياو ينظر الى قوان فى ارتياب ، ويقول وهو يطلق ضحكات باردة :

ــ ولكن ، ما علاقتك انت ، عضو لجنة فحص الانضباط ، بشؤون المدرسة ؟

ــ ألا تعرف يا اخى اننى قد انتقلت الى المدرسة الثانوية منذ مدة ، وانا الآن امين فرع الحزب هناك .

ــ اوه !

ــ يا اخى لماذا لم توقع اسمك على الشيك ، فهل تفضل ان تكون بطلا مجهولا ؟ لقد قدرنا انك انت الذى ارسل الينا الشيك ، فاتصلنا تلفونيا بهذه البلدة ، واتضح لنا اننا لم نخطئ فى التقدير .

ــ حقا ؟

تساءل جياو ، وقد مد يديه الى اقصاهما يتمطى . وبعد ان تثاءب فى راحة نهض من جلسته فى تراخ ، وتحرك نحو طرف السرير وجلس عليه مسندا ظهره الى الحائط الفاصل بين الغرفتين رافعا رأسه ينظر الى السقف ، ويده تدلك كتفه وصدره . كانت

الشمس تبعث اشعتها الرقيقة من خلال النافذة الى الغرفة والى جسمه ، فينعكس على وجهه وصدره المكشوف بريق برونزى ناعم .

اخيرا هدأت نفس جياو ، وقال لقوان معاتبا :

— هذا امر تافه لا يذكر ، لا داعى لاتعاب نفسك فى قطع كل هذه المسافة الطويلة .

رمى قوان عود الكبريت الذى اشعله حين مس كلام جياو اذنيه ، وقال وهو يسحب السيجارة من فمه :

— أهذا يعتبر امرا تافها لا يذكر ! يا اخى اريد ان اعرف ما الذى دفعك الى ان تقدم الى المدرسة مثل هذا المبلغ الكبير من المال ؟

— لماذا ؟

قدح جياو زناد ذهنه ليتذكر ما دفعه الى ذلك ، ولكن دون جدوى ، فهز رأسه بالنفى . انه لا يعرف لماذا فعل ذلك .

اشعل قوان سيجارته ، وهو يصوب عينيه الى جياو منتظرا اجابته . وفجأة انتاب جياو القلق ، واحس بأن كلام قوان يحمل معنى آخر ، فسأله :

— لماذا توجه الى مثل هذا السؤال ؟

— لنسجل قصتك ونرسلها الى الصحف او الى محطة الاذاعة ، من المؤكد ان مثل هذه القصة الرائعة ستنشر فى العمود الاول للصفحة الاولى من كل صحيفة .

ارتبك جياو حين سمع كلام قوان ، فهو يعرف ان الثناء فى الصحيفة امر طيب يبيض الوجه بالنسبة للآخرين ، ولكن بالنسبة

اليه فقد يثير شكوك الناس فيه ويكشف حقيقته . فأسرع يقول لقوان معارضا :

ـ لا ، لا يمكن .

ـ يا اخى قل لى بصراحة : لماذا قدمت الينا المبلغ ؟

تريث جياو قليلا ، ثم سار الى جانب الطاولة ، وسحب سيجارة ونقرها على الطاولة عدة نقرات ، ثم قال :

ـ لماذا ؟ لأن اموالي كثرت الى حد لا اعرف كيف انفقها !

ـ يا اخى ارجو منك ان تصارحنى بقصدك الحقيقى .

استطرد جياو يقول ، وهو يأخذ من الطاولة علبة السجاير والكبريت :

ـ ما قلته لك هو الحقيقة . وهناك سبب آخر ، هو ان ابنى الكبير يتعلم الآن فى هذه المدرسة الثانوية . والآن ، اذا لم يكن لديك امر آخر يا قوان ، فتعال معى لنتناول بعض الطعام والشراب !

فأمسكه قوان من ذراعه وقال :

ـ لا تستعجل يا اخى ! لقد شربت فى بيت زميلى القديم عند الظهر . ولا ازال الآن شبعان ، ارجو منك ان تفتح قلبك امامى ولا تغشنى !

بدا على جياو الضجر ، فقال وهو يجذب قوان من ذراعه متوجها نحو الباب :

ـ لقد قلت لك كل ما فى قلبى ، هيا بنا .

ـ على مهلك . قل لى : هل هذا كل ردك حقا ؟

انقبض جياو ، وقال لقوان وهو يترك ذراعه بحدة :

— انت . . تريد ان تعرض اسمى للعار ؟

— كيف اعرض اسمك للعار ؟ انك تمد يد العون لقضية التعليم .

— ما فكرت ، ولا افكر الآن فى قضية التعليم بتاتا ، بل لست اتمتع بهذا الوعى العالى !

— اذا كنت لا تريد ان تتحدث عن نفسك ، فسأكتب قصتك على حقيقتها .

— لا ! حرام عليك ان تكتب شيئا عنى ! واذا اصررت على ذلك . . .

وهنا اخذت شفتا جياو ترتجفان بشدة ، وانعقد لسانه ، ثم انفجر غاضبا ، وصاح فى حنق وهو يمزق الكبريت والسجائر فى قبضته :

— من يكتب قصتى فسألعن جده بل جد جده !

ذهل قوان ، واربكته المفاجأة . ونظر الى وجه جياو المحتقن دون ان ينبس بكلمة . يا له من رجل غريب !

القى جياو بالسجائر والكبريت على الارض ، وداسها بقوة ، ثم زفر انفاسا ثقيلة وقال :

— ارجو الا تذكر هذا الموضوع ثانيا .

وتنهد تنهدا طويلا .

٦

انتهى العشاء ، فسار جياو مع قوان الى الفندق الذى نزل فيه .

ثم استدار عائدا الى البيت . سار فى طريقه منقبض الصدر : وفجأة وجد نفسه امام سقيفة صديقه لى مصلح الراديوهات . لقد كانت مأواه فى ايامه الصعبة . دقق جياو نظره اليها ، فألفاها متداعية اكثر من السابق تكاد تنهار من صوت كحة . فأقبل عليها ، ووقف امام نافذتها المغلقة ساهما ، يمد بصره الى الحارة الغارقة فى ضوء المصابيح والتى تموج بالضجة والحركة ، وظل واقفا هناك صامتا .

اشارت الساعة الى العاشرة ليلا ، وكان من المفروض ان يشمل الهدوء القرى الجبلية لتهجع فى هواء الليل المنعش . ولكن حارة هذه البلدة فى هذا الوقت اكثر حرارة واشد ازدحاما وضجة مما هى عليه فى النهار ، فقد غص الطريق بالحانات والمطاعم والفنادق فى غير نظام ولا ترتيب ، اذ تزاحمت كلها فوق قطعة ضيقة من الارض : وتوقفت السيارات والشاحنات على اختلاف اشكالها واحجامها المشحونة منها والفارغة عند جانبى الطريق المتعرج . وتدفق الرجال الذين يقضون سحابة نهارهم فى حمل الفحم والتلويح بالمجارف على قمة الجبال وفى اعماقها ، تدفقوا الى هذه الحارة الصغيرة حيث يفرطون فى شرب الخمر والتدخين والمقامرة والعربدة واللهو مع النساء ، يطلقون العنان — بعد عملهم المرهق — لغرائزهم البهيمية فى هذه الاضواء الساطعة المتلألئة وبين تلك الجبال العالية ؛ لقد قضى جياو ثلاثة اعوام تحت هذه الاضواء وبين هؤلاء الرجال المستهترين . وخلال تلك الفترة بذل كل جهده فى العمل وفى جمع الثروة ، وانتهز كل فرصة فى التمتع بملذات الحياة . . . مكث

بمفرده فى هذه البلدة الغريبة البعيدة ثلاثة اعوام ، فعل خلالها كل ما يستطيع فعله ، ونال كل ما يقدر على نيله ، وتمتع بكل انواع المتع ، الشرعى منها وغير الشرعى ، والشريف وغير الشريف . لقد ذاق هنا كل الوان الحياة ، مرها وحلوها . وفى هذه البلدة حصل على ما كان يتمناه ، بينما ضاع منه ما يجب وما لا يجب ان يضيع . . . الى ان تسرب الملل الى روحه وأجهده السأم ، فلم يعد يهتم بشيء . انه اليوم فاتر الهمة متبلد الشعور حائر . . .

كيف حصل له هذا الانقلاب ؟ ثم ما هو قصده ؟

تساءل جياو بينه وبين نفسه ، ولكن دون جدوى .

كانت غرفة الارملة مضاءة ، وحين وصل الى بابها تردد فجأة . لم يسبق ان تردد فى دخول غرفتها ابدا ، لكنه اليوم شعر لأول مرة بالتردد . ثم دفع الباب ودخل . كانت الارملة تكوى بنطالا له فى الغرفة . وحين رأته توقفت عن العمل ، وذهبت فى صمت لتعد له الشراب . وما هى الا لحظات حتى عادت بالشراب ، وقدمته له فى صمت ، ثم جلست ترمقه بعينيها المتورمتين الحمراوين . وهمت بالحديث ، ولكن امسكت عن الكلام .

تربع جياو على طرف السرير ، واطرق رأسه يدخن ، فنظرت اليه فى لهفة دون ان تعرف لماذا يظهر الضيق والوجوم على وجهه فى هذه الايام . . ماذا اصابه ؟

وترامى الى المسامع صرصرة حشرات الليل . وما لبث ان خيم على الغرفة صمت مطبق لا يطاق .

اطفأ جياو السيجارة التى اشعلها لتوه ، وألقى على الارملة

نظرة ، ثم قام وهو يقول :

ـ اعود الى غرفتى .

ثم دار على عقبيه ليدفع الباب فصاحت فيه بصوت متهدج :

ـ لحظة ! ألا يمكن ان تجلس هنا دقائق اخرى ؟

توقف مستجيبا لطلبها ، وعاد الى حيث جلس ، واطرق رأسه ، ويده تدعك سيجارة .

جلست هى الى الطاولة ، وسألته وهى تحملق فى وجهه :

ـ هل حدث شىء ؟

هز رأسه بالنفى ، فزفرت فى راحة ، واستعادت هدوءها وتابعت تقول :

ـ يستحسن ان تعود الى بيتك وتسكن فيه اياما حتى تطمئن عليه ، ثم ان زوجتك ...

وتوقفت قليلا ، ثم استطردت :

ـ هل انت .. يا حبيبى .. تكرهنى ؟

فرفع اليها عينيه ، كأنما لم يفهم كلامها ، ثم اطرق .

وظلت ترنو اليه . وفجأة ارتمت على الطاولة منفجرة بالبكاء ، وقالت وهى تولول وجسمها يرتعش :

ـ انت .. لماذا لا تكرهنى ؟ ولماذا لا ...

فرفع رأسه ينظر اليها فى ذهول . عضت الارملة على شفتها السفلى لتكتم البكاء ، ورفعت اليه عينيها الدامعتين ، ثم اغمضتهما وقالت فى صوت تخنقه العبرات :

ـ عد الى غرفتك ، لقد اشعلت لك الموقد .

تسمر جياو فى مكانه ، ولم يتحرك . وبعد صمت طويل قال لها بغتة :

– ارجو منك ان تتزوجى ليو رئيس الحمالين . انه رجل طيب لا يكرهك ، وقد استطلعت رأيه فى هذا الموضوع .

فأخفت وجهها بين يديها ، وعادت الى البكاء .

فاستطرد يقول :

– لقد استقر رأيى على العودة الى البحر الجنوبى ، ولن ... اعود .

فكفت عن البكاء ، ورفعت وجهها وقد اتسعت عيناها الدامعتان ، واخذت تحدق اليه فى دهشة وفزع كأنما لم تفقه ما قال . فكرر قوله :

– بعد ان اغادر ادعى ليو للسكن هنا معك ، وعليكما ان تدبرا شؤونكما تدبيرا جيدا وتعيشا حياة سعيدة ، وسأترك لكما شاحنة هدية .

وقبل ان يكمل كلامه استرسلت فى البكاء ، وقالت وهى تدفن وجهها بين راحتيها :

– لا تقل هذا الكلام ... يكفى ... يكفى ...

فنهض جياو من جلسته واجما ، وخرج من الغرفة فى صمت ، واغلق الباب وراءه فى خفة .

لم يشعل جياو مصباح غرفته ولم يتهيأ للنوم كالمعتاد ، بل تهالك على السرير بملابسه .

وفى الظلام ، رأى ضوء المصباح ينبعث من نافذة غرفتها

وينعكس على سور البيت . وسمع صوتها تسترسل فى البكاء .

فركبه الهم ، وانقبض صدره ، وراح يفكر فى اسى : ما هذا الامر ؟ لماذا حدث كل هذا ؟ واحس بسحابة تنسدل على عينيه . وبدا له انه فى حلم ، لا يميز فيه بين الماضى والحاضر . واحس ايضا كأنه يعيش بين الوجود والعدم . . . ربما كان من الواجب ان لا يأتى الى هذه البلدة بتاتا ، وربما كان عليه ان يغادرها مبكرا . لكنه جاء الى هذه البلدة ولم يغادرها حتى الآن . فما الذى جاء به الى هذه البلدة الغريبة ؟ هل جاء من اجل الارملة ؟ لا ، ابدا . هل جاء من اجل النقود ، ام من اجل ان يبرهن على كفاءته ، ام من اجل الانتقام ؟ وخيل اليه ان هذه هى الاسباب التى دفعته الى المجيء . ثم عاد واحس كأن هذه ليست هى الاسباب الحقيقية . وشعر عندها بفراغ . شعر بأنه ضائع ، يستبد به الضجر والضيق والاسى . . آه ! لماذا كل ذلك ؟ لماذا بحق السماء ؟

وفجأة لف الغرفة ظلام دامس ، ماذا حصل ؟ اوه ، لقد اطفئ ضوء المصباح فى غرفتها . لقد توقفت عن البكاء ! متى تم ذلك ؟ هل نامت ؟

واغمض جفنيه . نعم ، عليه ان يعود ، يعود الى بيته فى البحر الجنوبى . لقد جاء الى هذه البلدة على كل حال ، ومكث فيها ثلاث سنوات . انه مثل عجلات الشاحنة ، يدور بسرعة وبلا انقطاع . وقد دار ثلاث سنوات تماما . وخلال هذه الفترة جمع ثروة طائلة ، وقهر من يريد قهره . ولكن مشى التعب فى اوصاله وتسرب الملل الى روحه . ليذهب المال الى جهنم . اللعنة على هذه البلدة .

انه يريد العودة الى البيت .. الى جانب ابويه .. الى جانب زوجته واولاده ليعيش معهم حياة هادئة . ولكن كيف تعيش هى ؟ عليه ان يساعدها على اتمام الزواج من ليو . ان ليو فقير وضعيف الشخصية ، ولكنه يعرف قيادة الشاحنة واصلاحها . ماذا يهم فقره وضعف شخصيته ! انه لا يكرهها ، سأهديهما شاحنة لكى لا احس بالذنب نحوها . لا ، بل سأحس بالذنب لأنى ضيعت وقتها فى اختيار الزوج ، والآن سأهجرها واجرح مشاعرها ... يا لقلب الانسان !

رفع جياو يده وألقى نظرة الى الساعة فى الظلام دون ان يتبين عقرب الساعة وعقرب الدقائق فلم يستطع تحديد الوقت بدقة . اوه ، هذا ليس مهما ! لماذا يشعر بهذه الحرارة ؟ وما هذا الصداع ؟ هل اصيب بالزكام ؟ النافذة لا تزال مفتوحة .

نزل عن سريره والنعاس يداعب جفنيه . التمس المجرفة فى الظلام ، وتناول بها كتلة من رماد الفحم المخلوط بالماء ، وغطى به النار المتأججة فى الموقد ثم اغلق النافذة ، وخلع حذاءه ، وعاد الى السرير يسترسل فى تفكيره المشوش : غدا سأبدأ فى ترتيب الشؤون هنا ، وبعد ان انتهى ذلك اعود الى البيت فى البحر الجنوبى .

لكن الغد لم يمهله .

ففى صباح اليوم التالى جاءت الارملة لتدعوه الى تناول الفطور ، فوجدت يديه وقدميه قد اصبحت باردة . لقد عاجله الموت وهو نائم ! لقد مات مختنقا بغاز الفحم .

مات ميتة فظيعة : فقد مزق قميصه اربا اربا وانشب اظافره في صدره وادماه .

وحين ألبسته الملابس الجديدة عثرت تحت حصير السرير على كثير من الرسائل المرسلة اليه من بيته في البحر الجنوبي ، وفوقها رسالة منشورة جاء فيها :

" . . . التحق ابننا الكبير بالمدرسة الثانوية الرئيسية في المحافظة ، وابننا الثاني متفوق في امتحان السنة الدراسية . لقد استأصلت الاعشاب في حقول الارز مرتين ، فالارز ينمو نموا جيدا . . . ابوك وامك واولادك مشتاقون اليك . اننا نتحدث عنك كل يوم ، حبذا ان تعود الينا اذا كان لديك وقت لتمكث معنا اياما . . . "

ولم تحتمل ان تقرأ البقية ، فاندفعت الى الخارج راكضة . حتى اذا ما وصلت الى شجرة الصفصاف المعوجة على جانب النهر ، استندت اليها وانفجرت في البكاء .

واخذ الضباب الثقيل يتصاعد من سفوح الجبال الى السماء ليتحول الى قطع من السحاب !

كلمة عن المؤلف



يوى ده تساى . . من ابناء قومية مان ، ولد فى يوليو ١٩٥٠ فى المنطقة الجبلية شرقى مقاطعة لياونينغ . درس فى المرحلة الاعدادية ، ثم اصبح فلاحا . وفى عام ١٩٦٨ انخرط فى الجيش ، ورقى فيه الى منصب كادر وضابط ركن . ويشتغل الآن صحفيا فى محطة الاذاعة الشعبية بمدينة داندونغ .

ومنذ عام ١٩٧٦ نشر كثيرا من القصائد والمقالات الساخرة ، وتجاوز كل منها المائة . وبدءا من عام ١٩٨٠ نشر كثيرا من القصص التى فازت بجوائز للاعمال الأدبية الممتازة المنشورة فى المجلات ، كما فاز بعضها بجائزة " السنة الأدبية " لحكومة مقاطعة لياونينغ الشعبية مرتين . وقصته « أبو الشاحنات » فازت بجائزة وطنية للقصص القصيرة الممتازة فى عامى ١٩٨٥ و١٩٨٦ .

وقد نشر الجزء الاول « الدم الاصيل » من الرواية المسلسلة « الحب فى القرى الجبلية النائية » ، وسينشر الجزء الثانى منها « العواطف الاصيلة » وكذلك الجزء الثالث « الروح الأصيلة » .

شعيرية الارز

بانغ تسه يون

تتميز مقاطعة سيتشوان الوسطى بكثرة المأكولات وتنوعها ، منها مثلا "الفطيرة المحشوة هون دون" و"الفطيرة الكروية لاى" و"جبن فول الصويا ما بوه" و"الشعيرية دان دان" .. الخ . فلا تتسع عيناك لها جميعا ، ويكاد يسيل لها لعابك .

اما اشهر المأكولات هناك فهو "شعيرية الارز الزوجية" فى بلدة يويتشن . ومع ان هذه الشعيرية لم يرد ذكرها فى الكتاب ولا فى اى قائمة بأسماء الطعام ، الا ان شهرتها قد طبقت الآفاق منذ زمن بعيد . فيعلم الناس مما يرويه المسنون ان الشعيرية الزوجية قد بدأت تطبخ منذ عهد الامبراطور قوانغ شيوى (١٨٧٥ — ١٩٠٨) ، حيث كان رجل اعرج يدعى باو يعيش مع زوجته باو لوه ، يعملان بكل تفان لاتقان تلك المهارة وادارة كشك شعريتهما على خير وجه ، حتى تمكنا اخيرا من طبخ الشعيرية على شكل الازهار البيضاء ، مما جعل ألفاظ الثناء على هذه الشعيرية تتردد على كل لسان . ولم يمض وقت طويل حتى ترامت شهرة هذه الشعيرية الى مسامع حاكم مدينة ياتشو التى تبعد عن

البلدة عشرة كيلومترات : فذهب الحاكم فى رحلة خاصة الى هذه البلدة راكبا المحفة ليتذوق بنفسه طعم هذه الشعيرية . ولما التهم ثلاث طاسات منها انبرى يشيد بها ويبدى اعجابه الشديد بروعتها ، ثم سألهما قائلا :

— ما اسم هذه الشعيرية ؟

فوقع الزوجان فى حيرة وارتباك ، وبعد برهة من التفكير اجابا للحاكم :

— هذه الشعيرية طعام شعبى نطبخه لملء بطون عامة الناس ، وليس لها اى اسم .

فقال الحاكم وهو يمسد لحيته مبتسما :

— انها شعيرية لذيذة بكل معنى الكلمة ، ولا يصح ان تكون مشهورة دون ان يكون لها اسم . على كل حال سأطلق عليها انا اليوم بوصفى حاكما اسما رسميا .

وعلى الفور امر احد خدمه باحضار ورقة وقلم ، وكتب على الورقة ثلاث كلمات : " شعيرية الارز الزوجية " . فطار الزوجان فرحا كأنهما قد حصلا على كنز لا يقدر ثمنه ، وطفقا يسجدان للحاكم عرفانا بجميله . وفى اليوم التالى تم على يد احد النحاتين المهرة نقش هذه الكلمات الثلاث على لافتة علقت فوق الكشك . ومنذ ذلك اليوم بدا كشك الشعيرية الزوجية يشهد ازدهارا متزايدا مع مرور الايام .

وظلت هذه الشعيرية الزوجية تتوارث جيلا بعد جيل فى عائلة باو . واليوم بلغ فن طبخ الشعيرية ذروته بعد ان ورثها الطباخ

باو دا شاو وزوجته اللذان لم ينجبا ، وبذلك اصبحت الشعيرية الزوجية اسما على مسمى .

وكشك الشعيرية الزوجية يتألف من مائدتين مثبتتين بواسطة شرائح من القرميد موضوعة تحت قوائمهما ، وعدة كراس خيزرانية ، ومقاعد خشبية وحجرية مختلفة الاحجام ، بالاضافة الى الطاولة المستطيلة التى توضع فوقها الصحون والطاسات والتوابل وغيرها من مستلزمات المطبخ . وهناك ايضا قدر مثبتة على فرن طينى ، وفوقها قمع خشبى فيه ثقوب صغيرة كثيفة . فما فائدة هذا القمع يا ترى ؟ وفقا للاسلوب التقليدى فى طبخ الشعيرية الزوجية لا يجوز استخدام مواد الشعيرية المجففة لفقدانها اصالة الطعم والليونة ، وانما يلزم ادخال العجينة فى القمع وضغطها لتخرج من الثقوب الكثيفة شعيرية رفيعة الى داخل القدر التى تغلى فيها المياه ، فتتحول الى شعيرية مطبوخة طرية لامعة .

يقع كشك الطباخ باو على جانب احد الشوارع ، حيث نصبت خيمة من القماش الابيض المائل الى الصفرة ، لا تخلو من رقع زرقاء . وهذه الخيمة تستخدم لحجب اشعة الشمس ولتقى من المطر واوراق الشجر المتساقطة . وخلاصة ما تقدم ان كشك الشعيرية الزوجية هذا متواضع ، او بالاحرى رث نوعا ما ، بالاضافة الى وقوعه فى شارع جانبى ضيق لا مجال لمقارنته بالشوارع الرئيسية المزدهرة . ومع ذلك ينطبق عليه المثل الصينى : " الملابس الرثة لا تقلل من جمال الحسناء " ، لهذا يتهافت الكثيرون على كشك باو للتمتع بنكهة الشعيرية الزوجية

جلوسا او وقوفا ، متزاحمين من احد جانبى الشارع الى جانبه الآخر ، بينما يعانى مطعم "الزهرة" الحكومى للشعيرية من قلة الزبائن على الرغم من وقوعه فى شارع مزدهر .

وجرت العادة ان يعمل الزوجان فى كشكهما نصف يوم وذلك ليس لخوفهما من التعب ، بل لأنهما بحاجة الى تخصيص النصف الآخر من اليوم لاعداد توابل الشعيرية . فالمثل الصينى يقول "ان لذة الطعام تتوقف على قوة النار وتوقيتها" ، والشعيرية الزوجية تطبخ اساسا بالاعتماد على تنوع التوابل التى ينفرد بها الزوجان عن الآخرين . فما الميزة فى هذه التوابل ؟ يستخدم الزوجان بالطبع ، شأنهما شأن الآخرين ، مواد التوابل الاعتيادية كالصلصة والزيت والخل والبصل والزنجبيل والثوم والسكر ومسحوق الفلفل .. الخ . ولكن هناك مادتان غير مألوفتين لدى الآخرين يستخدمهما الزوجان فى طبخ الشعيرية ، وهما الفلفل المطفل وحساء سمك يايوى .

وليس الفلفل المطفل هذا من بين انواع الفلفل العادية التى تنبت حبة حبة ، وانما هو نبات خاص ينمو على جبال تشينغشى على بعد سبعة كيلومترات من بلدة يويتشن ، وهو يثمر حبتين حبتين احداهما كبيرة والاخرى صغيرة ملتصقة بالكبيرة ، مثل ام تحمل طفلها . ويتميز الفلفل المطفل بسماكته وكثافة زيته وجمال لونه . وما ان يتذوقه الزبون حتى ينتابه شعور بالحرارة والنشوة . ولكن هذا الفلفل نادر الوجود هناك ، اذ لا يتجاوز عشر شجيرات . وحتى هذه الشجيرات القليلة العدد تتناثر بين عدد كبير لا حصر له من شجيرات الفلفل العادية على امتداد جبال تشينغشى .

فتصور كم يكون هذا الفلفل المطفل بعيد المنال !

اما سمك يايوى الذى يعيش فى نهر تشيانغجيانغ بالقرب من البلدة ، فهو نوع غال من الاسماك لما يتميز به من رقة اللحم وانعدام الحسك وشدة الطراوة ولذة الحساء . وكان سمك يايوى قديما يقدم هدايا نفيسة الى الاباطرة فى عهد اسرة تشينغ (١٦١٦ — ١٩١١) ، لذلك حظى بلقب "السمك الامبراطورى" . ومن عادة هذا السمك ان يتربع كالامبراطور داخل شقوق الصخور الواقعة على جانبى النهر والمعرضة لضرب الامواج العاتية . ومنذ بدء طبخ الشعيرية الزوجية اصبح اصحاب كشك باو يتعرضون للمشقة والخطر فى تسلق الجبال لجمع الفلفل المطفل وفى خوض مياه النهر لصيد السمك الامبراطورى ، ولو لا ذلك لما كانوا جديرين حقا بلقب "اصحاب كشك باو" .

وقد جرب عدد من الناس طبخ الشعيرية وفقا لأسلوب الزوجين مستخدمين كافة التوابل المستعملة فى كشك باو ، لكن دون جدوى ، اذ لم تستطع شعيريتهم المطبوخة ان تماثل الشعيرية الزوجية اطلاقا . فراحوا يتساءلون فى دهشة : "عجيب ! كيف يطبخ الزوجان شعيريتهما ؟"

ان هؤلاء الناس يعرفون جانبا من الامر ، بينما يجهلون الجانب الآخر . فعلى الرغم من استعمالهم جميع التوابل فى الطبخ ، الا انهم لا يعرفون كيف يتم اعداد هذه التوابل بنسب صحيحة . فذلك مثل اعداد الوصفة الطبية او خلط طينة الجدران على اساس النسب الدقيقة والصحيحة . اذن ما النسب الصحيحة التى يستخدمها

الطباخ باو ؟ ويظل هذا السؤال بلا جواب ، وان كان السائل رشيق اللسان . وتتناقل ألسنة الناس ان الطباخ باو لا يعد توابله الا بعد منتصف الليل ، حيث يغلق الباب والنوافذ اغلاقا محكما ، حتى انه يسند مصراعى الباب بجسمه خشية ان يختلس الآخرون النظر الى ما يفعله ، وحتى ان زوجته لم يطلعها على سر عمله هذا . فوفقا لوصية الاسلاف يتم توارث نسب التوابل بين الاجيال الذكور دون الاناث ، وذلك خشية افشاء السر الى عائلات امهاتهن . فما عليهن الا القيام بغلى الماء وصنع الحساء وغسل الصحون وتنظيف الموائد واستضافة الزبائن .

وكان من بين الزبائن الذين يترددون الى كشك باو رجل مسن يدعى الشيخ يوان ، وكان يعمل ذواقا للخمر فى احدى شركات الخمر والسجائر ، وعنده بالطبع حاسة تذوق قوية تدهش الناس ، فمن جرعة او جرعتين يستطيع معرفة اسم الخمر وانواع الحبوب المخمرة دون حاجة الى القاء نظرة على ماركته . كما يستطيع تمييز الخمر الصافى من الممزوج بالماء ، ويستطيع تحديد مقدار المياه الممزوجة دون عناء . وبهذه الحاسة القوية تفوق الشيخ يوان على الآخرين دقة وجدارة فى تذوق الشعيرية وصدقا وصوابا فى تقديرها . ومنذ عدة سنوات وهو يعيش متقاعدا ، لا يمارس تذوق الخمر الا قليلا ، فاقتحم اكشاك المأكولات فى بلدة يوينتشن ليتذوق مختلف الوان الاطعمة تذوقا دقيقا ، فيبدو كأنه يتذوق مختلف انواع الخمر ، مطبقا بذلك المثل الصينى : " اذا عرفت

شيئا عرفت مماثله " . فيسهل على مطربة السوبرانو مثلا ان تتعلم اوبرا بكين ، وكذلك لا يعانى عازف الوتريات فى تعلم عزف العود الصينى ، اذ يكفى قليل من الممارسة ليتم التعلم . ونفس الحالة بالنسبة الى الشيخ يوان ، فهو لم يستغرق وقتا طويلا حتى تذوق جميع اصناف المأكولات ، وقدم تقديرا دقيقا لكل منها .

وذات مرة قال الشيخ يوان للطباخ باو وهو يمسك عود الكبريت لتخليل اسنانه بعد انتهائه من تناول الشعيرية الزوجية :

— رائعة هذه الشعيرية ! لذة مع حرارة ، وحرارة مع حموضة ، وحموضة فى حلاوة ، وحلاوة فى ملوحة ، وطراوة فى لذة . رائعة جدا ، كدت ابتلع لسانى مع الشعيرية !

ومع انتهاء الشيخ يوان من كلامه اشرق وجه باو بالبهجة والسرور ، فكأنه قد لقى اعز اصدقائه . لذلك سرعان ما اعد للشيخ يوان مقعدا خيزرانيا مركبا ، لا يفتح الا اذا جاء ليجلس عليه .

ومع ازدهار كشك باو دخلت جيوب الزوجين باو اموال كثيرة ، فقالت الزوجة لزوجها :

— هلا نبدل اثاثنا الذى اضحى عتيقا رثا ؟ فالحصان — كما تعرف — يحتاج الى سرج ، والانسان يحتاج الى ملابس ، فقد حان الوقت لتجديد ملامح كشكنا .

فرد عليها الزوج قائلا :

— لكن الكلب يغلف لحمه بفرائه ، والسلحفاة بدروعها ، اما كشكنا فيجب مراعاة تعليمات اسلافنا بشأنه ، فتظل مقاعده مضطربة وخيمته مرقعة .

وهذه التعليمات موجودة فعلا ، ويرجع تاريخها الى زمن بعيد ، اذ كان اصحاب الاكشاك فى الصين القديمة يحاولون عمدا اظهار اكشاكهم بمظهر بائس رث ، لكى يدفعوا اقل قدر من الضرائب المتنوعة الفاحشة . وشيئا فشيئا صارت هذه الحيلة خبرة تجارية يتوارثونها جيلا عن جيل . واليوم وان كان الزمن قد تغير ، الا ان الطباخ باو ظل مصرا على التمسك بالتقاليد الموروثة والمحافظة عليها كما كانت فى الماضى غير قابلة للتغيير .

وقالت زوجته بفارغ الصبر :

ـ اذا رفضت تغيير ملامح كشكنا فلنمدد وقت دوامنا من نصف يوم الى يوم كامل . واذا كان الجميع اليوم يسعون وراء كسب الاموال ، فأنا لا اطلب ان نكون فى طليعتهم ، ولكن ينبغى لنا الا نتخلف عنهم .

فأجابها الزوج ساخرا بسذاجتها :

ـ تمديد الدوام الى يوم كامل ؟ اذن ، من الذى سيصيد السمك الامبراطورى من اجلنا ؟ وكيف نواصل دوامنا فيما بعد من دون صيد ؟

ـ آه ، انك عنيد كأنما سبك عقلك من حديد ، فيتعذر فتحه حتى ولو سددت اليه اشد الضربات . لماذا لا نستبدل بالسمك الامبراطورى السمك الاعتيادى الذى يباع بكثرة فى الاسواق ؟ فاعداد حسائه اسهل واسرع بكثير من اعداد حساء السمك الامبراطورى ، ويوفر لنا الوقت ايضا فى اعدادها على نار هادئة حفاظا على درجة حرارة مطلوبة ، لا شديدة ولا واهنة ،

مما يجعلنا لا نشبع النوم كل ليلة .

وجد الطباخ باو شيئا من الانفعال والاثارة فى كلام زوجته ، وود لو يفجر غضبه تجاهها . ولكن حين قابلت نظرته نظرتها تراجع وكظم غيظه ، لأنه يعرف مزاج زوجته معرفة جيدا كمعرفة الراعى لبقرته ، فزوجته شبيهة بالبقرة فى مزاجها ، تظهر وديعة فى اغلب الاحيان ، وهائجة فى حالة استثنائية هياجا يبلغ حد الركل . ولما لاحظ الطباخ باو الحمرة فى عينى زوجته دليل الهياج ، قال متصنعا الابتسامة وبصوت لا يخلو من نبرات رقيقة :

ـ هيه هيه ! كيف نبدل حساء السمك ؟ تعرفين ان اسلافنا لم يضعوا قواعد التبديل ، اضافة الى ان التبديل قد يجلب لنا العار اذا اكتشف الزبائن هذا الامر .

ـ آه ، انت ، انت . . .

لم تجد المرأة كلمة مناسبة لاكمال الجملة ، فقفزت عنها الى جملة اخرى :

ـ أليس هؤلاء الزبائن متسرعين فى التهام الشعيرية ، ينتهون منها بعدة بلعات ؟ لا وقت عندهم ليمضغوها ويتلذذوا بها رويدا رويدا .

ـ هل تقصدين انهم عاجزون عن كشف الامر ؟ والشيخ يوان عاجز ايضا ؟

ـ الشيخ يوان ؟ وما علاقته بنا ؟

صحيح ، ستكون تجارة الشعيرية الزوجية مزدهرة باستمرار مهما كان الشيخ يوان . واذا تبدل حساء السمك فى الحالة التى

ذاعت فيها شهرة الشعيرية الزوجية ، لا يستطيع الزبائن العاديون ان يحسوا بذلك ، لا سيما اولئك الذين يأتون الى البلدة جماعة اثر جماعة فى رحلة عملية او سياحية ، وهم يجهلون دقائق الشعيرية . ولكن الطباخ باو ما زال رافضا التبديل ، لأنه قد اعتاد ان يمعن النظر الى الشيخ يوان الذى ينبسط حاجباه ولحيته انبساط الرضى كلما انتهى من تناول الشعيرية . كما تعود على التمتع بما يبديه الشيخ يوان من الاعجاب والتقدير . وقد خيل اليه ان ذلك هو اغلى جائزة تقدم اليه . وفضلا عن ذلك فان هناك كثيرا من الزبائن الغرباء العاديين لا يمكن ان يعاملهم بما لا يليق بهم . ان الذين يشتغلون بالطهى لا يسمح لهم بمخالفة تعليمات الاسلاف لخداع الناس ، والا فسيتعرضون الى ما لا تحمد عقباه من الكوارث الطبيعية او البشرية . وعلى اساس هذا التفكير ازداد عزم الطباخ باو على رفض تبديل حساء السمك مهما اصرت زوجته .

لم تستطع المرأة اقناع زوجها ، فليس امامها الا ان تقول له شاتمة :

— يا لك من ملعون ! انه لأمر بسيط ، لكنك لا تقدر على استشفاف ما وراءه ، فسيأتى عليك اليوم الذى تبتلع فيه المرارة ان عاجلا ام آجلا .

وكان من باب المصادفة ان اصابت المرأة بقولها . فلم يمض شهران حتى قلب الدهر للطباخ باو ظهر المجن ، اذ مع تعمق تطبيق نظام التعهد بالمسؤولية فى الريف تم توزيع اراضى الغابة الواقعة على جبال تشينغشى على عشرة مزارعين . ومنذ ذلك

الحين طرأ تغير كبير على الوضع . ففى الايام الماضية التى كانت اراضى الغابة فيها ملكا جماعيا ، لم يكن الطباخ باو يفعل — اذا اراد قطف الفلفل المطفل — اكثر من دعوة رئيس الفيلق الانتاجى وامين فرعه الحزبى وافراد اسرتيهما مع الاقرباء والقريبات الى تناول الشعيرية دون ان يدفعوا ولو فلسا واحدا . فيقطف مقابل ذلك ملء سلة كبيرة من الفلفل المطفل ، ثم يجففه ويطحنه ليستخدمه على مدى سنة كاملة . اما الآن فقد اصبحت اراضى الغابة مقسمة الى قطع ، كل منها مسورة بسياج شائك ، ونصبت هناك لافتات كتب عليها : "ممنوع الدخول منعا باتا ، ومن خالف دفع الغرامة " و" حذار من الخطر ! هناك فخ" ، وبمجرد النظر الى هذه اللافتات يصاب المرء بالفزع والقلق . فلم يبق امام الطباخ باو للحصول على الفلفل المطفل الا سبيل واحد هو الشراء . ولكن الاسعار تتغير وفقا للعرض والطلب . فاذا ندر الشىء وكثر طلبه ، ارتفع سعره . وبالنسبة للطباخ باو اصبح الفلفل المطفل شيئا نادرا وضروريا معا ، لذا اخذ يعانى من وطأة الابتزاز الذى يمارسه عليه اولئك المزارعون ، بحيث يطلبون منه ثلاثين يوانا صينيا لقاء الجين (نصف كغ) الواحد من هذا الفلفل . يا رب ، خمسة اضعاف ما كانت عليه فى الماضى ! ولكن ما دام الطباخ باو قد جاء ، فلا يرضى ان يرجع صفر اليدين ، لذلك اشترى كيلوغرامين منه بمائة وعشرين يوانا .

فاض قلب الطباخ باو بالمرارة والاسى لما حدث . وعاد بذاكرته الى الايام الماضية التى كان فيها اولئك المزارعون العشرة

يفدون الى كشكه لتناول الشعيرية كلما نزلوا الى السوق ، ثم تأخذ ألسنتهم تلهج بالاطراء للذتها وضآلة ثمنها ، ولا يفوتهم كذلك كيل المديح الى الزوجين على نبل اخلاقهما وعدم طمعهما فى طلب سعر مرتفع منهم على الرغم من ان شهرتهما تلتمع التماع الذهب . ولكن لماذا انقلبوا هم بين يوم وليلة الى غرباء ، فطلبوا منهما مبلغا كبيرا ثمن الفلفل المطفل برغم ما كان بينهم من ألفة ومودة ؟ واتاح هذا للمرأة فرصة لتكرار حديثها القديم فقالت :

— لم تصدقنى عندما قلت انك عاجز عن استشفاف ما وراء الامر البسيط . اسمع ، لا تكن على هذه الحماقة باستمرار ! فلنبدأ غدا تبديل حساء السمك وشراء الفلفل العادى من السوق بدلا من الفلفل المطفل الذى تدفع ثمنه غاليا . فشراء الفلفل العادى سهل جدا ، لا يتطلب اكثر من دخول الجمعية التعاونية ودفع ثمن اقل .

كان لكلام المرأة وقع فعال ، فبدا كأنه ضربات متواصلة هوت على رأس الطباخ باو ، واوقعته فى حيرة بين الموافقة والرفض ؟ واخيرا ، وبعد صراع فكرى عنيف ، تفتح عقله الحصين تفتحا يشبه انكسار الجمجمة البشرية .

ومنذ ذلك اليوم طرأت تغيرات كبيرة على كشك باو ، فاستجدت وتضاعفت موائد وكراس ومقاعد ، وتمدد وقت الدوام من نصف يوم الى يوم كامل ، اضافة الى احضار فتاة جميلة لتقوم بخدمات متفرقة .

ـ يا للعجب ! كم كان التغير سريعا !

جاء الشيخ يوان ذات يوم لتناول الشعيرية وقد سبقه صوته الى الكشك . وبينما علق هذا الشيخ قفص الطيور على غصن شجرة الصفصاف بجانب الشارع كان الطباخ باو قد احضر له مقعدا خاصا ، ثم قال :

ـ تفضل بالجلوس ايها الشيخ !

وبعد ان اثبت الشيخ يوان جلسته على المقعد طلب من الطباخ باو قائلا :

ـ طاسة واحدة ، شديدة الحمرة (المقصود اكثار الفلفل) ، وافرة الحساء ، طويلة الغليان (تعنى اخراج الشعيرية من القدر دفعة اخيرة) ، مع شيء من التوابل الملحية .

ان هذا الشيخ جدير بلقب " زبون واسع الخبرة " ، فما من كلمة قالها عند طلبه الطعام الا ولها ايقاع متناغم . منذ الايام الاخيرة وهو يشكو من وعكة صحية ، فسد انفه ، واصبح الطعم فى فمه مرا ، لذا اراد ان يتصبب عرقا بفضل تناول الشعيرية .

ـ حاضر ... انتظر قليلا من فضلك .

تسلمت المرأة طاسة من زوجها بعد ان هيأ كل شيء فيها ، فأخذتها ومشت بها فى حركات بارعة وبخطوات رشيقة ، حتى اتت الى الشيخ يوان ووضعت الطاسة امامه على المائدة .

ولما انتهى الشيخ يوان من الاكل شعر فجأة برغبة جامحة للعطس ، فأسرع الى سحب منديله من جيبه ليغطى به انفه ، ولكن فات الاوان ، فقد عطس عطسة شديدة ، انفتح لها انفه

انفتاحا كبيرا ، واحس بعدها بارتياح تام : فسألته المرأة وهى تجمع ادوات الاكل :

— يا شيخ يوان ، كيف وجدت طعم الشعيرية ؟

لم يرد عليها فى الحال ، اذ ظل يمسح انفه بالمنديل وينظف شفتيه باهتمام ، محاولا تجنب اى احراج آخر . فالاحراج الاول فى اعتقاده هو ان العطس يقلل من هيبته ، واذا هو لم يكمل مسح وتنظيف انفه وشفتيه بسرعة ، فسيؤثر ذلك فى وجاهته . وبعد ذلك كله رد الشيخ يوان على المرأة قائلا :

— لذيذة ، لذيذة ، طبعا لذيذة .

" لذيذة ، لذيذة ! " جاء الصوت من القفص الذى يقلد الببغاء فيه اصوات الشيخ يوان هازا رأسه ومشرئبا بعنقه .

اغمضت المرأة عينيها فى بهجة وسرور ، ثم نظرت بطرفى عينيها الى زوجها كأنها تسأله : "أ سمعت ؟ هل اقتنعت ؟ "

ومع ان الزوج غض النظر عنها ، الا انه بدأ يقلب فكره : " يبدو ان الفلفل والحساء يمكن تبديلهما ، فحتى الشيخ يوان لم يتنبه الى ذلك ، ناهيك عن اولئك الذين لا يسعون الا الى اشباع بطونهم او لم تجذبهم الا شهرة الكشك . "

وعندما اظلم الليل غط الزوجان فى سبات عميق ، ورأيا فيه احلاما جميلة .

ولم يمض يومان حتى اقبل الشيخ يوان اليهما حاملا قفص الطيور ، ويدندن بلحن سيتشوان : " الرعد يدوى فى السماء ، الرعد يصك الاسماع ، لعل الرعود ستقبض عليك ايها الرجل الغادر . "

بادرت المرأة الى الترحيب به باسمة وقالت :

ـ اهلا ، اهلا وسهلا ، ايها الشيخ يوان !

علق الشيخ يوان القفص على الشجرة كالمعتاد ، وجلس على مقعده الخاص . فسأله الطباخ باو :

ـ ما طلبك اليوم ؟

فأجابه الشيخ يوان بطلاقة :

ـ طاستان ، كل منهما خفيفة الحمرة ، قليلة الحساء ، قصيرة الغليان ، مع شيء من التوابل الحلوة والملحية .

ـ حاضر ! انتظر قليلا من فضلك .

الصوت عذب رنان ، ليس صادرا من زوجة باو هذه المرة ، وانما من الفتاة الخادمة التى لم تكن على مستوى المرأة باو فى الحركة البارعة والخطوة الرشيقة ، فقد مشت بالطاسة بكل بطء وحذر ، الى ان وصلت الى الشيخ يوان وقالت له :

ـ يا عم ، هذه هى الطاسة الاولى ، وسآتى اليك بالثانية حينما تشاء .

ـ حسنا جدا !

تراقص حاجبا الشيخ يوان ولحيته من شدة السرور ، اذ كان يعيش وحيدا ، لا اولاد عنده ولا بنات . فاذا عومل من شاب او شابة معاملة حسنة ، تأثر تأثرا يعجز عن وصفه اللسان .

مد الشيخ يوان يديه ، وتنحنح قليلا ، ثم بدأ تناول الشعيرية بالعودين (من ادوات الاكل الصينية) .

ولكن ، ما ان ابتلع اللقمة الاولى حتى توقف عن الاكل

لحظة ، ولما دخلت اللقمة الثانية الى فمه توقف مدة طويلة ، واغمض عينيه اغماضة بدا معها بين اليقظة والنوم ، وراح يحدث طقطقة فى فمه حينا ، ويبتلع لعابه حينا آخر ، كأنه كائن فى السماء قد نزل الى الدنيا يتذوق الطعام الشعبى لأول مرة .

" ماذا حدث لهذا الشيخ ؟ " رمقه بعض الزبائن بنظرات التساؤل . اما الطباخ باو فهو يدرك ان الشيخ يوان منهمك فى التذوق الآن ، لذلك راح قلبه ينقبض ، ودفع زوجته دفعة بمرفقه ومط شفتيه الى جهة المقعد الخاص كأنه يقول لها : " انظرى اليه ! لعل اليوم يوم انقلاب سفينتنا . "

القت المرأة نظرة خاطفة الى تلك الجهة ، ثم هزت رأسها كأنها تقول : " ما لى اراك مرتبكا ! لا داعى للقلق . " كانت المرأة على يقين من ان الشيخ يوان ما دام قد ابدى اعجابه بشعيريتهم فى المرة السابقة ، فانه سوف ...

وفيما كان الزوجان يفكران لاحظا الشيخ يوان قد فتح عينيه وقال :

— تعال من فضلك ، يا عزيزى باو .

تقدم الطباخ باو منه مضطربا وهو يمسك طرف وزرته لتنظيف يديه ، وقال بصوت خافت :

— اى خدمة ، يا شيخ يوان ؟

مسد الشيخ يوان لحيته ، ثم لوح بيده الى باو اشارة الى تقريب اذنه منه ، وقال :

— لماذا تغير طعم شعيريتكم ؟ فليس فى طعمها الحارق

تلك اللذة الكافية ، ولا الطراوة المطلوبة فى الحساء : انها ليست لذيذة كما كانت من قبل .

– لم . . . لا . . . لا شيء تغير ، أ . . . أ . . . انت . . .

تلعثم الطباخ باو فى الاجابة من شدة ارتباكه .

اقبلت المرأة حينذاك تتمايل فى مشيتها ، ورفعت نظرها الى السماء شابكة ذراعيها امام صدرها وقالت :

– ايها الشيخ يوان ، ربما ارتفع مستوى مذاقك مع ارتفاع جلوسك على المقعد الخاص هذا . يبدو ان بركتنا ذات المياه العذبة لن تستطيع استبقاء سمكة مالحة مثلك !

– انت ! انت ! ما هذا الذى تقولينه ؟

تحجرت حدقتا عينى الشيخ يوان من شدة الغضب ، ثم تابع يقول :

– النصيحة الواحدة لا تقاس قيمتها بالذهب ، فلن اقولها الا لمن يستحقها . انى برغم كبر سنى لا اجرؤ على القول بأن المأكولات المشهورة فى وسط سيتشوان قد تذوقتها جميعا ، ولكن لا ابالغ اذا قلت بأن جميع انواع المأكولات فى شمالى سيتشوان قد تذوقتها ، وادركت طعم كل منها ادراكا دقيقا .

واخذ الشيخ يوان يزداد انفعالا وارتفاعا فى الصوت دون وعى منه كلما استغرق فى الكلام .

ازداد الطباخ باو قلقا وارتباكا ، فأسرع بابريق الشاى نحو الشيخ وقال له :

– هون عليك يا شيخ ! ونفس عن غضبك !



" أف ! " ما زالت المرأة فى ضجر ، فاستدارت على عقبيها ، وراحت تضرب حاشية القدر بالمغرفة عمدا ، حتى اعتلى صوت الضرب صهوة السحاب ، وفى ذلك الحين قفزت هرة مرقطة الى جانبها ، فرفستها رفسة قوية وهدر فمها باللعنات :

— اخرجى ايتها الهرة الهرمة اللعينة ! لم يعد عندى ما تأكلين !

أليس هذا يعنى " اكلمك يا جارة فاسمعى يا كنة " ؟ قام الشيخ يوان من مقعده ، ترتعش لحيته وشفتاه من شدة غيظه ، واراد ان يرد على المرأة بالشتم ، ولكن ما كادت ألفاظ الشتم تصل طرف لسانه حتى ارتدت ثانية . آه ، هكذا حالة الشيخوخة ! فالعين بصيرة واليد قصيرة . . حتى الشتم لم يعد الشيخ يوان قادرا عليه . ما اشد غيظه الحبيس ! لم يكن امامه الا ان القى نظرة غاضبة على المرأة ، ثم اخذ القفص عن الشجرة وانصرف مستاء .

فنادته الفتاة الخادمة وقد ابتعد :

— يا عم ، ما زال عندنا طاسة اخرى لك !

لكن الشيخ لم يلتفت اليها قط ، ولم تنبس شفتاه بأى كلمة ، وانعطف مسرعا الى شارع آخر .

وقعت المرأة فى حيرة ، فلم تفهم " لماذا لم يحس الشيخ يوان بتغير الطعم فى المرة السابقة ، بل شعر به فى هذه المرة ؟ " ونسيت انه كان فى المرة السابقة مسدود الانف ، يجد كل شيء يتذوقه مرا .

مضت سنة وسنتان لم يعد خلالهما الشيخ يوان الى كشك باو مطلقا . لكن الشعيرية الزوجية ظلت تلقى اقبالا شديدا وان كان

بعض الناس قد سأل عن طعمها ، الا انه مجرد سؤال لا يستطيع رفعه الى المحكمة ، ولم يمنع الكثير من الناس من مواصلة تناول الشعيرية الزوجية ، لكونها ذائعة الصيت منذ زمن طويل . وظلت الشعيرية الزوجية لذيذة برغم خلوها من الفلفل المطفل وحساء السمك الامبراطورى ، فبقيت التوابل كافية لضمان لذتها المطلوبة .

حصل الزوجان على ارباح طائلة جعلتهما فى عداد الاغنياء ، فقد بلغت ودائعهما فى البنك عشرات الالوف من اليوانات . وازدادت المرأة بدانة وبياض بشرة ، واصبح من عادتها الاستمرار فى الدندنة حتى عند غسل الصحون . اما تلك الخادمة الجميلة فلم تعجبها اية فرصة من فرص الاعمال الحكومية ، لذلك آثرت البقاء فى الكشك .

لكن الطباخ باو هو الوحيد الذى لم يكن مطمئن الضمير ، فلازمت وجهه امارات القلق والهم ، وبات يشعر بدوام الضعف الوجدانى كأنه يفتقر الى شيء ما . ما هو ؟ الله اعلم ! لم يجرؤ الطباخ باو على النظر الى عيون الزبائن نهارا ، ولا على مقابلة الاسلاف فى احلامه ليلا . وذات مرة ذهب الى السوق لشراء الاسماك الاعتيادية . وبينما كان ينتظر ان يرد له البائع بقية الحساب ، فوجئ برؤية الشيخ يوان يقبل نحوه وفى يده قفص الطيور . فارتبك ارتباك المدين الذى رأى الدائن يأتيه طالبا استرداد ديونه المتراكمة . فأسرع الى اخذ الاسماك ، وتوارى عن الانظار متخليا عن بقية الحساب . والى جانب ذلك كان خائفا من ان يسمع كلمتى "الكذب" و" الغش " ، فما ان يسمعهما حتى ترتعد لهما فرائصه . يا له

من مسكين ! ما اشبهه برجل يثقل ظهره بطاحون حجرية !

لكن المرأة لم تعرف ما الذى يقلق ضمير زوجها ، وظنت انه يشكو من وعكة صحية ، فراحت تطبخ له الاطعمة اللذيذة كل يوم ، الا انه كما قال كونفشيوس "لا يستلذ طعاما ما لم يكن مستريح البال" . لقد بذلت المرأة كل ما فى وسعها من مهارة فى الطهى والقلى والدمس من اجل زوجها ، غير انها لم تجد اية مسحة من الغبطة على محياه . فأخذت تفكر مليا ضاربة اخماسا فى اسداس ، واخيرا تمكنت من التوصل الى تفهم ما يعتلج فى نفس زوجها ، فسألته قائلة :

– ما زال قلبك متعلقا بالشيخ المخضرم يوان ، أليس كذلك ؟

اجل ، كان الطباخ باو مشغول البال بالشيخ يوان . فمنذ غادرهما هذا الشيخ مغتاظا والطباخ باو يشعر بالخجل وتأنيب الضمير . ولهذا السبب حدث شجار عنيف بينه وبين زوجته . ومع مرور الايام اشتد احساسه بأن الامر لن ينتهى عند هذا الحد ، بل اعتراه احساس بالفراغ الشديد نفسيا تماما كاحساس الممثل المشهور الذى فقد مشاهديه فجأة وهو على خشبة المسرح . فلم يعد الطباخ باو يسمع المديح الصادق من ذواق خبير مثل الشيخ يوان ، ولم يعد يرى حاجبيه ولحيته منبسطة راضية ، مما جعله يشعر كأنه فقد طعم الحياة . نعم ، هذه الحالة تجسد تماما الحكمة القائلة : "ثناء مائة متعلم لا يعادل ثناء خبير واحد ." وحتى القدماء كانوا يعرفون ان الرجل يجب ان يكون مخلصا لصديقه ولو اضطر الى التضحية بحياته . وكلما وصل الطباخ باو بتفكيره

الى هذه النقطة ، اشتد لومه على زوجته : "لو لا فكرتها السيئة ولسانها الملعون لما انصرف الشيخ يوان مغتاظا" . وخطر فى بال الطباخ باو خاطر ساوره عدة مرات ، الا وهو اعادة الطعم الاصلى الى الشعيرية ، لكن الشيخ يوان لا يأتى ، فما فائدة اعادة الطعم الاصلى دون عودته ؟ ثم ان صحته ليست على ما يرام ، فلا يقوى على النزول الى نهر تشيانغجيانغ لصيد السمك الامبراطورى وزوجته مصرة على سلوك الطريق الحالى . لذلك ظل امر اعادة الطعم الاصلى معلقا .

آه ، متى ستعود الينا ايها الشيخ يوان ؟

وذات مساء كان الزوجان منهمكين فى معالجة السمك ، فسمعا قرعا على الباب . ولما فتح الطباخ باو الباب فوجئ بالشيخ يوان يقف امامه متكئا على عصا خيزرانية وقد شحب وجهه فلم تزده اضواء المصباح مسحة من الحمرة ولو مثقال ذرة .

سر الطباخ باو سرورا عظيما ، واسرع بدعوة الشيخ يوان الى الدخول والجلوس على المقعد ، واحضر له الشاى قائلا :

ـ أجئت من اجلى يا شيخ ؟

لم يتكلم الشيخ يوان ، بل اخرج من جيبه ثلاث ورقات نقدية من فئة عشرة يوانات ، ووضعها على المائدة .

فسأله الطباخ باو حائرا :

ـ ماذا تريد بها يا شيخ ؟

تنحنح الشيخ يوان وسحب نفسا عميقا ، ثم قال والانفعال

باد على محياه :

– لم آت اليكم منذ سنتين ، غير انني كنت ابعث بين حين وآخر غلاما ليشترى لى طاسة من شعيريتكم . وقد وجدت ان شعيريتكم ظلت على طعمها المتغير ، وهذا ما لم اتوقعه ! واليوم اود ان يكون كلامى واضحا وضوح الشمس . انتم تسعون وراء الاموال بالتأكيد ، اما انا فسأدفع راضيا ثمنا غاليا لشعيريتكم ، اى كل طاسة بيوان بشرط ان تكون الشعيرية اصيلة الطعم . فما رأيكم ؟ وهذه الثلاثون يوانا ادفعها مقدما لقاء شهر واحد . ومن يوم غد سأبعث بالغلام اليكم لأخذ الشعيرية كل يوم .

انتاب الطباخ باو شعور بالمرارة بعد ان سمع ما قاله الشيخ يوان ، لكن المرأة لم تتمالك نفسها عن القول غاضبة :

– يا شيخ ، لقد تجاوزت الحد فى اهانتنا ! التجارة يجب ان تكون مقبولة لدى البائع والمشترى . اذا كنت معجبا بطعمها الحالى فتفضل بتناولها ، والا فلا تأكل منها ، ولا داعى لهذه الثرثرة الثقيلة التى تضايقنا كثيرا .

فصاح الطباخ باو بزوجته :

– اخرسى ايتها اللعينة ! لماذا لا تتفوهين الا بالهراء ؟ هيا انصرفى الى الغرفة الداخلية !

ثم استدار نحو الشيخ يوان وقال له :

– لا تغضب يا شيخ ، ارجوك . . .

خرج الشيخ يوان غاضبا قبل ان ينتهى الطباخ باو من كلامه . وما كاد يخطو خطوتين حتى توقف ، واستدار الى الخلف ، ثم

نطق هذه الجملة بشفتين مرتجفتين :

ـ آه ، لقد افسدتم اخلاق اسلافكم !

ضرب الشيخ يوان عتبة الباب بعصاه محدثا طقطقة مدوية .

وهرولت المرأة الى خارج الباب ممسكة بالورقات النقدية ، ودستها فى جيب الشيخ يوان قائلة :

ـ حسنا ، حسنا ، نحن لا نستطيع تحديك ، فانك كصنم بوذا المحترم ، فلتصحبك السلامة !

تميز الشيخ يوان غيظا ، وراح يلهث بشدة ، ثم اطلق جملة كانت محبوسة فى اعماق قلبه :

ـ لقد مات الضمير ! ماتت ضمائر الناس !

ثم اخرج تلك الورقات النقدية من جيبه ، ومزقها ورماها على الارض ، وانصرف .

ـ هذه نقود ، نقود !

لم يفلح الطباخ باو فى منعه من تمزيقها ، فأسرع الى التقاطها عن الارض .

ـ لا اريدها ، لقد اصبحت بلا فائدة بالنسبة لى .

واصل الشيخ يوان مشيته ، واختفى بين طيات الظلام .

ان تصرفات الشيخ يوان هذه قد اذهلتهما ، فلاذت المرأة بالهدوء منتفخة الاوداج من الغيظ ، وامعنت فى التفكير : يبدو ان هذا العجوز جاد كل الجد فى تطبيق قوله بالفعل الحقيقى ، شأنه شأن المقاتل التاريخى البطل " تشانغ فى" الذى يلعب بسيف حقيقى على خشبة المسرح . ومع هذا التفكير سرى فى نفسها

شعور بالتقدير والاحترام لهذا الشيخ دون وعى منها : اما زوجها فقد استغرق هو الآخر فى التفكير : لم يكن فى حسبانه ان مهارته لها كل هذه القوة الساحرة .

وفى اليوم التالى بدأ الزوجان بسط الورقات النقدية الممزقة ولصق اجزائها بدقة متناهية حتى تمت اعادتها الى ما كانت عليه . فأخذها الطباخ باو وخرج بها متجها الى بيت الشيخ يوان .

وحينما وصل الى المجمع السكنى لقى امرأة مشغولة بنشر الغسيل ، فسألها :

— من فضلك ، اين يسكن الشيخ يوان ؟

— اى منهم ؟ فهنا ثلاثة شيوخ يحملون اسم يوان .

— اقصد الشيخ الذى كان يعمل ذواقا للخمر .

— آه ، عرفت ، انت تقصد ذلك الشيخ الذى اصيب بمرض السرطان ، انه يسكن فى الطابق الرابع على اليمين .

وعلى الفور تملكت الطباخ باو دهشة وذهول ، فسألها :

— ماذا ؟ الشيخ يوان مصاب بالسرطان ؟ ومنذ متى حدثت له هذه المأساة ؟

— فى الشهر الماضى ظهرت نتيجة الفحص الطبى مشيرة الى اصابته بالسرطان فى الرئة . وكان ملازما الفراش فى المستشفى مدة شهر ، والآن يستريح فى البيت .

وا اسفاه ! هرع الطباخ باو الى داخل العمارة والجمر يتقد فى صدره ، وصعد السلم بسرعة ، ثلاث درجات فى كل خطوة ، ولكن ، ما ان وصل الى مدخل الطابق الرابع حتى وقف هناك

بلا حراك ، وبعد برهة من التفكير عاد نازلا الى اسفل العمارة ، وانصرف مستعجلا .

ماذا اصاب هذا الرجل ؟ أهو مجنون ؟ استغربت امره تلك المرأة التى ما زالت تنشر الغسيل .

وعقب عودة الطباخ باو الى بيته بدأ يفتش ويقلب الاشياء فى ارجاء الغرفة ، خلف الباب ، تحت السرير ، مسببا الضوضاء بين الفينة والفينة . فسألته زوجته عما يبحث ، لكنه لم يعبأ بسؤالها . فقالت وقد استشاطت غضبا :

— هل جننت ؟

— هيه ، هيه ، وجدتها .

قال زوجها ذلك ونصف جسده ما زال تحت السرير .

التفتت المرأة اليه فوجدت ان ما اخرجه من تحت السرير لم يكن سوى تلك السلة الخيزرانية ، فسألته :

— ماذا تفعل بها ؟

— ماذا ؟ ألم تفهمى غرضى منها مع انك صاحبة الكشك ؟ سأنزل الى نهر تشيانغجيانغ .

اخذ الطباخ باو يطبخ بكل دقة الشعيرية الزوجية الاصيلة كأنه يطبخ طعاما خاصا بالامبراطور . ثم ملأ منها طاسة كبيرة وغطاها ووضعها بعناية بالغة داخل كيس منسوج من خيوط خيزرانية رفيعة ، ثم انصرف بها . لقد اصبح الطباخ باو فى غاية السرور ، وبدا كل شيء فى نظره قد تغير ، فالشوارع اصبحت اوسع ،

واللافتات المعلقة على ابواب الدكاكين والتى كانت قاتمة بالامس ، ظهرت اليوم تشعشع ببريق يبهر العيون . حتى زقزقات العصافير المزعجة صارت الآن تلذ الاسماع . ولكن ظل الطباخ باو يسير فى حذر شديد على جوانب الشوارع خوفا من الارتطام بالدراجات او الاولاد الصغار الذين يقفزون ويتواثبون من هنا وهناك .

واخيرا وصل الى مسكن الشيخ يوان مع شىء من الانفعال ، ولكنه بدا هادئ البال رابط الجأش . فخطا على السلم خطوة تلو اخرى الى ان بلغ الطابق الرابع . ووقف امام باب الشيخ يوان برهة ، ثم قرع الباب مناديا :

ـ يا شيخ يوان .

فتح الباب مع كحة ووقع شبشب .

ـ آه ، هذا انت !

كان صوت الشيخ يوان خافتا جافا ، وعيناه قد تغضنتا ، فبدتا مثل قنديل يكاد ينفد زيته .

احس الطباخ باو بالالم ينتابه من حيث لا يعلم ، وقال على الفور :

ـ لقد احضرت لك الشعيرية يا عم .

لم يتكلم الشيخ يوان ، بل ظل الفتور باديا على وجهه . ثم استدار الى الخلف متجها نحو غرفته الداخلية . فتبعه الطباخ باو ، ووضع الطاسة على المائدة ، وقال له باسما :

ـ الشعيرية ما زالت ساخنة ، فلتتفضل بتناولها يا عم .

وذهب الى المطبخ واحضر له عودين .

جلس الشيخ يوان على الاريكة متراخيا ، ورمق الشعيرية بطرف عينيه ، ثم سأله قائلا :

ــ شعيريتك هذه ما زالت تلك الشعيرية ؟

ــ اجل ، اجل ، هى تلك الشعيرية .

شعر الطباخ باو بشىء من الالتباس فى اجابته السريعة ، فأضاف قائلا :

ــ هذه هى الشعيرية الاصيلة ، الشعيرية الزوجية الحقيقية . صدقنى ، ربما استطيع خداع عينيك ، لكن ، هل استطيع خداع لسانك ؟ ان وجدت اى تغير فى طعمها ، ولو قليلا ، فسأموت اللحظة فى هذا المكان .

واخيرا تناول الشيخ يوان العودين .

وبعد ان ابتلع لقمة توقف مدة طويلة مغمضا عينيه كأنه بين اليقظة والنوم تماما كالحالة التى كان عليها قبل سنتين .

وقف الطباخ باو بجانبه قلقا مثل تلميذ ينتظر من معلمه النتيجة بعد ان سلمه ورقة الامتحان .

لقمة ثانية ، ثم تلاها صمت .

لقمة ثالثة ، وفتحت عينا الشيخ يوان اخيرا ، فاذا بالمظهر المألوف قد تمثل امام عينى الطباخ باو ، فحاجبا الشيخ يوان ولحيته قد انبسطت من الرضا والغبطة . ولا حاجة الى مزيد من التوضيح ، فالشيخ يوان قد انتشى بلذة الشعيرية الاصيلة التى تجسد مهارة الطباخ باو الحقيقية . وغمرت هذا الاخير البهجة والسرور ، حتى

كاد قلبه يقفز من صدره . نعم ، لقد مضت مدة طويلة لم يشعر خلالها بهذه المتعة منذ اصبح معترفا به لدى الآخرين .

وبدت حالة الشيخ يوان الصحية قد تحسنت كثيرا بعد ان تناول الشعيرية ، ثم قال :

— حسنا ! هذا جيد ! انتم بهذا الفعل الجميل ستطمئنون ضمائر الناس .

آه ، ضمائر الناس ! شعر الطباخ باو بخفقة فى قلبه ، ثم دس الثلاثين يوان تحت وسادة الشيخ يوان بخفة ، وقال له :

— سأحضر لك طاسة كل يوم ، واستأذنك الآن .

ولما بلغ عتبة الباب ، اضاف قائلا :

— ارجو منك ان تعتنى بصحتك وانت فى هذه السن الكبيرة .

— اجل ، اجل .

ودعه الشيخ يوان عند الباب وتابع كلامه :

— لعل صحتى لا بأس بها .

ولكن من المؤسف انه مات قبل ان ينتهى الشهر .

تتعالى الموجات الهائجة مع سقوط الصخرة على المياه ، بينما تتخافت اوراق الاشجار عند سقوطها على الارض . لم يكن لوفاة الشيخ يوان وقع كبير فى بلدة يويتشن ، الا ان كشك الشعيرية الزوجية قد اعاد دوامه النصفى ، وعلق عليه هذان البيتان من الشعر :

لا خداع للناس ، فالتوابل تامة .

لا غش للزبائن ، فالطعم اصيل .

وكتب على لافتة عرضية : الشعيرية الزوجية .

اذن ، كيف طعم الشعيرية الآن ؟ دع الناس يتلذذوها بدقة . التوابل الجيدة تخلق طاهيا ماهرا ، والطعم اللذيذ يربى ذواقا ممتازا . وربما سيظهر كثير من الذواقين ذوى الخبرة فى بلدة يويتشن مثل الشيخ يوان .

من يدرى !

كلمة عن المؤلف



بانغ تسه يون .. من ابناء جيانغيو بمقاطعة سيتشوان ، ولد عام ١٩٥١ . تخرج فى المدرسة الاعدادية عام ١٩٦٦ ، وذهب عام ١٩٦٩ الى المنطقة الجبلية شمالى مقاطعة سيتشوان حيث عمل فلاحا . وفى عام ١٩٧٠ انخرط فى الجيش ، حيث تولى منصب رئيس جماعة فرئيس فصيلة ثم رئيس سرية فمرشد لها . وفى عام ١٩٨٧ التحق بكلية الآداب بمعهد الفنون الجميلة التابع للجيش .

ومنذ عام ١٩٨٤ بدأ ابداعه الادبى ، فنشر «شعيرية الأرز» و«البحث عن الصداقة التى لن تنسى ابدا فى شمالى سيتشوان» وغيرهما من الاعمال الادبية الكثيرة . وقد فازت قصته «شعيرية الارز» بجائزة وطنية للقصص القصيرة الممتازة فى عامى ١٩٨٥ و١٩٨٦ .

الفهرس

مطبعة اللغات الاجنبية بكين

توزيع

الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب

٢١ شارع تشه قونغ تشوانغ الغربى ، بكين ، الصين

ص . ب ٣٩٩ بكين – الصين

الرمز البريدى ١٠٠٠٤٤

中国当代短篇小说选（下）
（1980—1986）
谌容 等著
李恒辰 插图
凤凰丛书
*
外文出版社出版
（中国北京百万庄路24号）
邮政编码100037
北京外文印刷厂印刷
中国国际图书贸易总公司发行
（中国北京车公庄西路21号）
北京邮政信箱第399号　邮政编码100044
1991年（36开）第一版
（阿）
ISBN 7—119—01235—5/ I ·220(外)
10—A—2269Pc

هذه المختارات القصصية

تضم تسع قصص قصار شيقة رائعة، اختيرت من القصص الفائزة بالجائزة. وتعكس هذه القصص بدرجات معينة بعض التغيرات التى طرأت على مدن الصين واريافها خلال السنوات الاخيرة. فقصة «مايو — موسم حصاد القمح» تصف الخيار المختلف للحياة لدى الاخت الكبيرة والاخت الصغيرة والاخ الصغير فى اسرة فلاحية. وقصة«صاحب الاصوات الكاملة» تبين لماذا حصل كادر ريفى على صوتين اثنين فقط على الرغم من ان المنتخبين ادعوا بأن كل واحد منهم قد اعطاه صوته. وقصص «واد من مناجم الفحم» و «كوة الحب» و«ابو الشاحنات» تبين ان الفلاحين اخذوا يغادرون الارياف ويشقون طريقهم الجديدة. اما قصة «لا تستطيع ان تغيرنى» فهى تصف كيف تسعى طالبة ثانوية الى ان تصبح موديلا.

وتتخلل هذا الكتاب عدة رسوم . و
قصة صورة لكاتبها مع نبذة موجزة عن



-01235-5